قررت وزارة المعارف العمومية هذا الكتاب بمدارسها الثانوية .

المطالعة العربية

للمدارس الثانوية

الجزء الرابع

للسنة الرابعة

ألفته وراجعته لجنة من وزارة المعارف والجامعة المصرية

ملتزم طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

قررت وزارة المعارف العمومية هذا الكتاب بمدارسها الثانوية

المطالعة العربية

للمدارس الثانوية

الجزء الرابع

للسنة الرابعة

ألفته وراجعته لجنة من وزارة المعارف والجامعة المصرية

[illegible]

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على رسوله خاتم النبيين ، وعلى سائر أنبيائه المطهرين ، وعباده المصلحين المخلصين .

وبعد ؛ فإننا نرى نهضتنا الفكرية المباركة قد شملت جميع وسائل التعليم ، وحفزت الهمم إلى التجديد والتحسين فى شتى النواحى ، فلم يكن بدّ أن تنال كتب المطالعة العربيّة نصيبها من الإتقان حتى تساير الرقى الفكرىّ العام ، وتسد حاجة النشء فى هذا العصر الزاهر .

وقد وضعنا فى العام الماضى كتباً للمطالعة العربية بالمدارس الابتدائية ، فلقيت — بحمد الله — قبولاً من المدرسين ، وكانت لها آثار محمودة فى إقبال التلاميذ على القراءة ، وتقدمهم فيها تقدماً يستدعى الاغتباط .

والآن نتمم ما بدأنا ؛ فنقدم كتباً أخرى للمطالعة بالمدارس الثانوية ، راعينا فيها التدرج والانسجام ، فلا يجد من ينتقل من مرحلة التعليم الابتدائى إلى مرحلة التعليم الثانوى ، أو من ينتقل من فرقة إلى أخرى من فرق المدارس الثانوية — فى الكتاب المقرر عليه صعوبة تفجؤه فتصده عن الاستمرار فى المطالعة ، ولا يشعر حين يقدم إليه كتاب جديد

أن صلته بكتابه القديم قد انقطعت؛ بل يعرف أن بين القديم والجديد تقاربا ظاهراً ، وعلاقة محكمة ، وصلة متينة فيترقى من الأدنى إلى الأعلى دون أن يشعر بصعوبة المرتقى .

وقد قصدنا إلى أن يكون كل كتاب مشتملاً على قطع كثيرة تصور الحياة فى بيئتنا المصرية ، ثم فى البيئة العربيـــــة ، ثم فى غيرهما من البيئات الأخرى .

وكذلك اخترنا طائفة صالحة من القصص التى تشوق التلاميذ ، وتحفزهم إلى القراءة ، وتهذب خيالهم ، وتربى عواطفهم ، وتقوم أخلاقهم ، وتمدهم بكثير من العبارات العربية السهلة السليمة التى تعينهم على التعبير عن أفكارهم فى أحاديثهم ، وفى إلقاء الخطب ، وتحرير المقالات .

وقد أكثرنا فى كل كتاب من القطع التى تجمع بين عذب الشعر وجيد النثر ، وتمثل الأدب فى عصوره المختلفة . وسيجد التلاميذ من بين هذه قطع ما يصلح لأن يحفظوه ، فينمى ثروتهم اللغوية ، ويرقى أذواقهم الأدبية .

وكذلك وضعنا قطعاً فى تاريخ المخترعات وبعض المسائل العلميـة ، وتراجم العلماء والمخترعين والكاشفين التى لا بد للتلاميذ من الإلمام بها . وراعينا فى هذه القطع تقريب المسائل إلى أذهان التلاميـذ ، وتيسير الإبانة عنها ، وتجنبنا ما استطعنا أن نشعر التلاميذ فيها بصعوبة الأبحاث العلمية .

وقد اقتصرنا فى ضبط الـكلمات بالشكل على الضرورىّ منه ، وبخاصة كتابا الفرقتين الثالثة والرابعة ؛ لنحمل التلاميذ على تفهم ما يقرءون ، ليستفيدوا بما درسوا من قواعد اللغة فى ضبط الـكلمات بأنفسهم . فقد دلت التجارب على أن الإسراف فى الشكل أدى إلى اعتماد التلاميذ فى أثناء القراءة على أعينهم لا على عقولهم ، فأُقفلت أفـكارهم ، وكانت قراءتهم آلية خالية من الفهم والتدبر .

وقد أتينا بقطع سهلة مناسبة لمدارك التلاميذ — يجدها القارىء فى مواضع متفرقة من كل كتاب — خالية من الشكل ليختبر بها المدرس تلاميذه ، ويتبين مقدرتهم على ضبط الـكلمـــات ، ويعدهم لقراءة ما ليس مشكولاً من الصحف والمجلات والرسائل والمـكاتبات .

واقتصرنا فى شرح المفردات والعبارات على القليل المستغلق ، وتركنا ما عداه دون شرح ليعتمد التلاميذ على أنفسهم ، ويمرنوا على البحث فى المعجمات التى بأيديهم لمعرفة ما يصعب عليهم فهمه ، وليرجعوا إلى أساتذتهم فى شرح ما يعجزون عن معرفته بأنفسهم .

وإننا لنردد الشكر ، ونقدم واجب الثناء لوزارة المعـارف فى هذا العهد السعيد الذى نهضت فيه باللغة العربية وآدابها ، وجددت شبابها ، وأعادت مجدها ورفعت مستواها ، حتى تظل أداة صالحة للفهم والتفاهم .

وتساير النهضة الحديثة التى تستمد من شباب مليكنا الصالح شباناً ، ومن نشاطه نشاطاً ، ومن قوته قوة ، حفظه الله ورعاه ، وأدام عليه نعمة السداد والتوفيق ؟

جمادى الأولى سنة ١٣٥٧ هـ
يوليه سنة ١٩٣٨ م

المؤلفون :

ابراهيم مصطفى . محمد عطية الإبراشى . محمود السيد عبد اللطيف . عبد الحميد الشافعى . الدكتور عبد الوهاب عزام . حامد عبد القادر . محمد أبو بكر ابراهيم . محمد عاطف البرقوقى .

المراجعون :

الدكتور طه حسين بك . محمد أحمد جاد المولى بك
الأستاذ أحمد أمين . على الجارم بك

١ – آيات قرآنية

بسم الله الرحمن الرحيم

وإن تَعْجَبْ فعجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئذا كنا تُرَابًا أئنا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . أولَـئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، وأولَـئِكَ الأَغْلالُ فِي أعْنَاقِهِمْ ، وأولَـئِكَ أَصحابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون . وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وإنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ للنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ ، وإنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العِقَاب . ويَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ من رَبِّه إنَّمـا أَنْتَ مُنْذِرٌ ، ولِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ . اللهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كلُّ أُنْثَى وَما تَغِيضُ الأَرْحَامُ وما تَزْدَادُ ، وكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ، عَالِمُ الْغَيْبِ والشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَال . سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ ومَنْ جَهَرَ به ، ومَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ باللَّيْلِ وسَارِبٌ بالنَّهار . لَهُ مُعَقِّبَاتٌ من بَيْنِ يَدَيْه ومِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَه مِنْ أَمْرِ اللهِ ، إنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ ، وإذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ ، ومَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ . هُوَ الَّذِي يُرِيكُم الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ويُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقَالَ . ويُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ والمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ، ويُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ

فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وهُمْ يُجَادِلُونَ فى الله وهو شَدِيدُ المِحالِ . له دَعْوَةُ الْحَقِّ والَّذِينَ يَدْعُون مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُون لَهُمْ بِشَىْءٍ إلا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إلى المَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ ، وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دُعَاء الكَافِرِينَ إلا فى ضَلَالٍ . وللهِ يَسْجُدُ مَنْ فى السَّمٰوَاتِ والْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وظِلَالُهُمْ بالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ والْأَرْضِ قُلِ اللهُ ، قُلْ أَفَتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاء لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا ولاَ ضَرًّا ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى والبَصِيرُ ، أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ والنُّورُ ، أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاء خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ، قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ وهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . أَنْزَلَ من السماء ماء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، ومِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فى النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ والْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فيَذْهَبُ جُفَاء ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فى الْأَرْضِ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَال . لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى ، والَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا له لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فى الْأَرْضِ جَمِيعًا ، ومِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أولَئِك لَهُمْ سُوء الْحِسَاب وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهَاد .

« من سورة الرعد »

٢ — النّظــــام

هذا الكونُ على وجه ليس فيــه خلَل ولا تَشْويش ، هو الذى نريده من النظـام ، وهو مَظْهَر الكمال الوجودِىّ كما يقولُ الأستاذ الإمام ؛ فحيثما كان النظام مَوْفورًا ، كان الوجود أتمّ وأقوى ، وحيثما قلّ النظام كان الوُجود ضعيفاً ناقصاً .

النظام فى حياة الفرد مظهر لقوّة وجوده ، والنظام فى حياة الجماعة أسُّ القوة فى وجودها ، والوجودُ القوِىّ هو الأكمل بالضرورة ؛ فهو مَطْمح كل موجود يريد الكمال ويفِرّ من النّقص .

وإذا نحن نظَرنا فى أمرِنا باعتبارنا أفراداً ومجتمعين ، وجَدنا الاضطراب غالباً على حياتنا فى كل وجه من وجوهها ، بمقدار ما يغلب النّظام على حياة الناس فى الأُمم الراقيــة القويّة فى وجودها الفردىّ ، وفى وجودها الاجتماعىّ .

ومن حق المَعْنيّين بنهضَة هذه البلاد أن يعمَلوا على تقوِية وجودها بجَعْل النظام ملكةً فى أبنائها ، تظهر آثاره فى الحياة الخاصّة والحياة العامّة .

وإن كل سعى فى تفهيمنا معنى النّظام ، وإشاعة الذوق النظامى فينا — لهوَ خيرُ سعى لإصلاح الأمة . وأعظمُ بركة عليها .

عقولنا ضعيفة لأنها غير منظمة ، ومعارفنا ضعيفة لأنها غير منظمة ، وأعمالنا ضعيفة لأنها غير منظمة ، وآمالُنا ضعيفة أيضاً لأنها غير منظمة .

ينبغى أن نشعر بشاعة الاضطراب والتشويش وسوء أثرهما فى حياتنا ، وأن نفهم جمال النظام ، وندرك أنه سرّ القوة ، وبذلك نتكلف سيرة النظاميين رغبةً وشوقاً حتى نعتادها .

لقد كنا نألَمَ لعدم إحساس قومنا بما فى حياتهم من تشوش ، وعدم طموح أنظارهم إلى مُثُل فى الحياة أكملَ مما هم فيه . ولكننا — والحمد لله — نغتبط بما نَلمح من بشائر النُّزوع إلى النِّظام فى بعض جهات الحياة المادية لقومنا ، وبما نعرف من ألم أناس منا لمظاهر الاضطراب فى شئوننا .

فى البلد اليوم بيوت تدخلها فتلقاك نفحة من الجمال فى تقسيم أماكنها وترتيب أثاثها ، ولا يخلو ما يُستحدث من الأزياء من بعض اللطف وحسن التناسب .

لا تَحْقِرْ شيئاً من مظاهر الرقىّ فى الذوق والتّشبُّث بأهداب النظام ؛ لأن هذه الآثار الصغيرة تَدُلُّ على تنبُّه فى الإحساس يرجى أن يصل بنا إلى ما نريد من النظام الأكبر : نظام النفس الذى تصدُر عنه الأعمال من غير اضطراب ولا تشوش .

يسرّنا أن نرى بيوتنا متجملة بحلْية النّظام ، وأن يُعْنَى بناتنا وأبناؤنا بنظام ملابسهم وحسن هِندامهم ، ولكننا ننتظر السرور الأعظم يوم ينشأ فينا جيل يحيا حياة منظمة يقوى بها وجودنا .

٣ — واجب الشباب والنشء بعد المعاهدة

لا ريب فى أن معاهدة الاستقلال قد استوجبت على كل مصرى أموراً جمّة ، والشبان هم عَتاد المستقبل وعمادُه ؛ فعليهم أهم الواجبات وأجلُّها خطراً ، وأعظمها عَناء ومشقة .

من أجل ذلك كان من الحق علينا أن نُبين لهم كيف يُعِدُّون أنفسهم للنهوض بهذه الواجبات والاضطلاع بها ، كما توجبه مصلحة الوطن ، ويستدعيه البِرّ به والوفاء له .

إن أول ما يُفرض على النشء من هذه الواجبات هو : العناية بأجسامهم؛ فسلامة الجسم عادةً شرطٌ لازم لـكمال الحياة الخلقية والعقلية ، وكمال النفس هو الغاية من العناية بالجسم ؛ فالنفس غاية والجسم وسيلة . ومعنى هذا أن مراعاة صحة الجسم من أوجب الواجبات ؛ إذ كان اختلال القوى الجسمية مؤدياً إلى اختلال القوى الخُلقية ؛ لأنها مترابطة فيما بينها ، والانحلالُ الطبَعيّ يجرُّ إلى انحلال القوة المدرِكة والإرادة ، يحول دون القيام ببعض الواجبات للنفس والجماعة ، ولذلك كانت رياضة البدنية واجباً أيضاً لتقوية القوة الجسمية ونُموّها .

يقول علماء الاجتماع : « إن ما لا يتم الواجب إلا به يكون واجباً . » إذا كان الإنسان لم يُخلَق فى هذا العالم إلا لقيامه بالحقوق التى أُلقيت

على كاهله ، وكان قيامه بها لا يتم إلا بالجسم الصحيح — كانت الصحة والقوةُ وتوفيرُهما مما يجب على الإنسان بالطبع ؛ ليتمكن من قيامه بما عليه من الحقوق المذكورة ، وهو مفعم قوةً ونشاطاً ، مستكملٌ الأُهْبَةَ لأدائها على خير وجوهها . وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « نفسُك مطيتُك فارفُق بها . » ويقول : « إن لبدنك عليك حقًّا . » وجاء فى الحديث الشريف أيضاً — ردًّا على من ينسُب نجاحه وإخفاقه فى أمورِه للقَدر : « الدواء من القَدَر ، وقد ينفع بإذن الله . »

فتأمل كيف نبّه إلى حفظ العقيدة مع بيان أن الدواء سبب ، وأن الأسباب من جملة القدر الإلٰهىّ الخفىّ عنا ، وإنما يتجلّى لنا أثر القدر فى مظاهر سُنَن هذا الكون وقوانينه العامة ، وارتباط أسبابه بمسبّباته ، فهى التى إن راعيناها — مع استِبطان العقيدة وسلامتها — كانت تأثيراتها الظاهرة فينا هى أحكام القدر الذى كان خفيًّا عنا .

ومن ذلك يتبين قيمة التعلُّل بالقدر فى ترك الأسباب وإهمالها ، والتعرض للأمراض وأهوالها .

ولولا خوف الإطالة فى هذا المقام ، لأوْردنا كثيراً مما جاء عن الشرع ، حثًّا على صون الأجسام مما يفتِك بها .

وحسبُنا أن نذكّر النشء بقوله صلى الله عليه وسلم : « اجتنبوا الخمرَ

فإنها مفتاحُ كلِّ شر . » وقوله عليه الصلاة والسلام . « سافروا تَصِحّوا »

فمن هذين الحديثين الشريفين يتبين مَبلغ حرص الشارع على حفظ الأجسام وصونها مما يُرْديها ، ويجعلها فريسة للأمراض ، غيرَ صالحة للقيام بما هيأها الله له من شتَّى الأعمال والتكاليف .

ومما يتصل بهذا مما يجب على النشء صون أنفسهم وعدم إتلافها ؛ ولذلك كان الانتحار جناية عظيمة ومعصية من أكبر المعاصي ؛ لأنه قضاء على الحياة الخُلقية اللاصقة بالإنسان ، التى تُلقِى عليه واجباتٍ لا مناص منها ؛ كالصبر والمجاهدةِ ، واحتمال الأذى ، والدأب فى سبيل العُلاَ .

والانتحارُ فوق ذلك فِرارٌ من واجبات المجتمع ، وعدوانٌ على حياته ؛ لأن المنتحر إنما يقتُل فى شخصه عامِلا من عوامل حياة المجتمع ويصدع بناءه . وفى هذا يقول الله تعالى : « مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ، وَمَنْ أَحْياهَا فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً . »

ومن الواجبات على الشباب والنشء : مَنعُ الشهوات الدنيئة أن تتولَّد فيهم ، ومَحوْ كل أثر للحَسد والأَثَرة ، وإحلالُ العواطف الشريفة محلَّها ؛ كمحبَّة الأهل والأقارب ، وحسن المعاشرة ومحبة الخير والعلم .

ومن أبرز الواجبات : أن يعمل النّشء على تقوية الإرادة فى أنفسهم ؛

فمعيار قيمة الرجل إرادته ؛ لأنه إذا سُلِب المرء عقلَه ، قيل عنه أبلهُ ، وإذا غيض مَعين الرحمة فيه قيل عنه لئيم ، وإذا تجرّد عن الإرادة فهو ليس بإنسان ذلك بأن كثيراً من البائسين عِلّتهم فى أنفسهم وهى ضَعف الإرادة ، فلا يعرفون كيف يقفون فى صفوف الجهاد الحيوى ، بل يجدون من رحمة الناس بهم ما يَحْسِبونَه عيشاً رَغْداً لهم ، فلا يعمَـلون ولا يسعَوْن كما يسعى أولو الإرادة ، وذلك سبيلهم إلى البؤس والرذيلة .

إن تقوية الإرادة يُكسب الشجاعة ، وهى التى بها يحفظ الإنسان كرامته الشخصية ، فلا يَرضى الاستعباد طائعاً مختاراً ، ولا ينقاد للخسيس من العادات ؛ لأن كل ذلك معناه التنزُّل عن إرادته .

ومن الضعف أن يَرهَب الإنسان الصعاب من بعيد ، فإنه إذا اقترب منها صَغُرت فى عينيه ، وربما امّحت واختفت .

ومن أجل ذلك وجب العمل بالقاعدة الآتية :

« أقْدِمْ على عمل ما تريد ، وأَشْعِرْ نفسَك القدرةَ عليه . » ؛ فإن الثقة بالنجاح عين النجاح ، لأن المصاعب والحوائل تتساقَط أمام العقـول المَشحوذَة الصَّابرة ، فهى تعمل لقهْرها كما يفعل الماء فى الصَّخر .

لا ريب أن تقويةَ الإرادة يُكسب الإنسان استقلالا ، والرجلُ

المستقلُّ حقًّا هو ذو العزم وذو المبادئ القوية التى يلازمها وتلازمه ، لا يُضَحِّى منها شيئًا لأىّ سبب كان حتى النّهاية . وهو الذى يضُمّ بين جوانحه نفساً قوية ، يشعُرُ بها أنه أعلى مكانة من كل حادث ، وأعز منالاً مِن المخاوف ، وأرفعُ مقاماً من أن تُنْزِله الوعود عن سُدَّة كرامته الشخصية . وهو الذى يعمل الواجب ، دون نظر إلى ما يكون بعدُ .

وهو الذى لا يعتد بالشهوات الباطلة . وهو الذى يعقِل ما يُمليه عليه عقله وضميره . وهو الذى لا ينحدِر مع تيّار الحوادث ؛ بل يناضِل ويقاوم — ما دام الحق مَهيناً والعدل مَهيضاً ، ولا يَثْنيه نجاحُ الباطل وانتِصاره .

هذا الاستقلال فى الرأى لا غِنَى عنه للقاضى ؛ لأن عمله إصدار أحكام لا إسداءُ مِنَنٍ ، إذ أنه رجل عَدْل يحمله ميزانه ورائِده ، لا رجل سُلطة وبَطش يُذل الناس بقهره وجَبَروته .

هذا الاستقلال الذى ندعو إليه لا يتعارض مع الخضوع والطاعة للقانون ؛ لأن القانون مَظهر الحقيقة والعدل والنظام ، فالخضوعُ له واجب . ولا منافاةَ بين أداء الواجب وروح الاستقلال .

ومن الواجبات الهامة : أن يجتهد النشء فى تكميل أنفسهم ؛

فيختاروا المِهن المشروعة ليكسِبوا عيشهم ، حتى لا يصيرُوا عِيالاً على المُجتَمع ؛ ففى العمل المَشروع فائدة ذاتُ شأن لبدن الإنسان وعقله ونفسه ، وما البطالةُ والكسلُ إلا رذائلُ لها خطَرها على المجتمع . قال أحد علماء الأخلاق : « إن البَطالة شر من الرذيلة ، لا بل هى أمّ الرذائل ، وإذا كان من الواجب أن يبتعد الإنسان عن ذوى الأمراض المُعدِية ، فالأوجب أن يتجنب معاشرة أَرْباب المَفاسد ، وإلا وقع فى أمراضهم الخلقية القاتلة . »

ولو نظرنا مثلاً إلى حُكم الطب فى شُرب الخمر وتَعاطى المُخْدِراتِ ، والتَّهالكِ على الشهوات ؛ لألْفَينا أنه هو حكم الاقتصاد الاجتماعى فى المقامرات والمضاربات والإسراف والتبذير ؛ فكِلا العَمَلَين يُنذِرُ بالوَيْل والخراب .

ولذلك كان من الواجب على النشء — لشرف أنفسهم وفائدة أمتهم — ألا يجنَحوا إلى السُّكْر والإسراف فى الشهوات ، حتى لا تتهدّمَ أجسامُهم وتَفسُد حياتهم : فكم من تُعساء أوقعَتْهم شهوات نفوسهم فى هذه الخمر بتزيين بعض الحمَقى من دُعاتها ، أو بغَواية بعض رُفقاء السوء ، فراحوا ضحية تلك المَفْسدة التى حرّمتها أكبر الشرائع ، وثارت عليها مواضعات المجتمعات الراقية ، وقامت لمحاربتها جماعات مَنع المسكِرات .

والمُخْدِرات أضر من المسكِرات ؛ لأنها تبتدئ بالخمول وتنتهى بالبلادة ثم الجنون .

ومن الواجب عليهم : أن يُخلِصوا فى معرفة أنفسهم ؛ فلا يعتقدوا البراءة من العيوب ، حتى لا يغترُّوا بأنفسهم فتفتُر هممُهم ، بل يجعَلوا مقصِدهم طلبَ الكمال ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، وألا يجعَلوا للمُغالطات التى تخرجهم عن حدّ القانون الأدبى مكان القيادة من نفوسهم وخواطرهم . وبذلك تصبح ضمائرهم خَيِّرة نقيةً صائبة الأحكام ، وتسمو نفوسهم عن الكِبْر والعناد والصَّلَف ؛ لأن ادعاء معرفة كل شىء وجهلَ كل شىء سيان فى كونهما من علامات ضعف العقل وانحِطاط الخلق .

وإن أنبل واجب على النشء : أن يعملوا على عظمة وطنهم فهى غاية كل وطنىٍّ ، وإن إثمًا دونه كلّ إثم أن ينصرِف أبناء الوطن عن القيام بحقوقه ، قانعين من الوطنية بالفخار بما سلف من أخباره ، والتَّباهى بما درَس من آثاره ؛ فما الوطنيةُ إلا تلك العاطفة التى تُزْجى إلى نفوسنا حُبَّ الوطن ، وتحبِس أبلغ جهودنا وأنبلَ مساعينا لخيره والعمل لمجده .

وإذا كان للوطنية الصادقة مظاهرُ كثيرة — فإن أجلاها وأوضحَها : الشعورُ بالواجب الوطنىِّ ، فهو مادة القوميَّة الحق .

لذلك وجب على النشء — وهم ذُخر المستقبل — أن يؤثروا وطنهم بكل ما أوتوا من جُهد وقوة ، وأن يُخلصوا له الحبّ ؛ ففى رِفعة الوطن رفعتهم ، وفى ذُلّه وشقائه ذلُّهم وشقاؤهم .

ورفعة الوطن تجىء من طريق التعاون مع سائر الأفراد على العمل ؛ لتَنمِية ثروته المادية والأدبيـة . ولا يتهيأ ذلك إلا إذا قام كلّ امرئٍ بواجبه جُهد الطاقة .

أما الأبنـاء فبالتّوافر على الجدّ فى تحصيل العلوم وحِذق الفنون ، وأما الآباء فبالعمل على ترقية أُسَرهم وتهذيب أبنائهم ، وتدريبهم على الفضائل وأخذهم بمحمود الخلال .

وأما العمال فبالاجتهاد والصـدق فى مِهنهم وفنون صناعاتهم .

وأما النُّواب فبِسَنِّ القوانين والنظم الـكفيلة بإسعاد قومهم .

وأما الحـكام فبالسّهر على مصالح الشعب ، وأخذه بالمَعدلة وقضاء مصالحه — على أنها واجبٌ عليهم لا مِنّةٌ يُسْدونها إليهم ، واستِئْصال شَأفَة الذين يتخذون جاهَهم ومناصبهم وسائلَ لابتزَاز أموال النـاس بالباطل ، حتى لا يستشرىَ الخطبُ ويستفحلَ الداء ، وفى ذلك الدّمارُ والخراب .

وأما جمهور الأمة فباحترام القوانين والتزام حدودها ، والتماسِ الحقوق من أبوابها دون التجاء إلى وساطة وشفاعة أو رِشوة أو هَديّة .

ومن أول الواجبات : العمل بأوامر الدين ، واجتناب نواهيه ؛ لأن لكل دِينٍ من الأديان تكاليف وواجباتٍ ، تكفُل حفظ مَظهره وتبسُط سلطانَه في الناس . وجليٌّ أن أوامر الدين الإسلاميّ : من صلاة وصيام وحَجّ وزكاة وما إلى ذلك — أعلام خفّاقة تهوِى إليها النفوس ، وتنتظم حولها القلوب ، فتدنو من رعاية الله وتقرب من حِماه ، وفي ذلك عِصمةٌ لها وتطهير لها من الرّذائل والنقائص .

وإذا كان كل من ينتَسِب إلى عظيم يحمِل شارَته ، ويفاخر الناس بنَبالته — فما أجدرَ المسلمَ أن تكون سماتُ الإسلام أظهر شيء لديه ، ثم هي طهارةٌ للنفوس وتهيئة للكمال .

فالصلاة تغسِل أَدْران الشيطان من نفس الإنسان ، وتعوّده الخير والتواضع ، وتحول بينه وبين المحظورات . قال تعالى : « إنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الفَحْشَاء والمُنكَرِ . » وكذلك بَقيّة التكاليف تُذكّر الإنسان بعظمة ربه ، وترسُم أمام ناظريه الحلالَ والحرام ، فيعرف ما يأخذ وما يَدَعُ . وليس هناك دين من غير عمل ؛ فالمسلمون القائمون باسم الإسلام دون العمل بأوامره ، حرَموا أنفسهم مواردَ السعادة ، ومكّنوا

لغريزة النفس الجامحة أن تتغلّب على عقولهم ؛ إذ لا تجد من جنود الدين الرُّوحية حاجِزاً وقائداً حكيماً يَهديها سواء السبيل .

ومما يجب على النشء : أن يحترموا شعور غيرهم ، فليس لأحد أن يَجرَح شعور غيره بشَتم أو سخرية أو استهزاء أو بكلام غليظ ؛ لمنافاة ذلك للعدل والإنصاف اللائِقَيْن بأمثاله فى مرتبة البَشَرية . ومثْل ذلك احترام شرف الأشخاص وسمعتهم ؛ فإنهما أغْلَى ما يُملَك وأثمن ، فقد جاء فى الأمثال : « طِيبُ السمعة خير من نطاقٍ من ذهب . »

ويقع الاعتداء على سمعة المرء بالغِيبَةِ والوِشاية ، والقَذْف والشَّتم ، والتشنيع والتبليغ ، والنميمة ونَقْل الكلام .

أما الغِيبة والوشاية ؛ فذِكْر عيوب الإنسان فى غَيبته ؛ فإذا كانت العيوب حقيقة فهى غيبة فى رأى علماء الأخلاق ، وإن كانت مَكذوبة أو مُلَفَّقة فهى افتراء ، والغيبة والافتراء من الرَّذائل الخسيسة ، وكل منهما يُزرى بسمعة المذموم ، وسمعتُه بلا ريب أثْمَن من حياته .

وأما القَذْف — وهو ذِكر السيئات ، والعملُ على نشرها بالصحف وغيرها — فمحرم ولو كان حقّاً ؛ لأن كل إنسان له الحق فى المحافظة على سمعته وإن كان جانِياً ، وفى استطاعته إصلاح هَفْوته ما دامت مَستورة . ولا ريب فى أن الذى ارتكب هَفوة مستورة ثم ندِم وأصلح

من نفسه ، خيرٌ لنفسه وللمجتمع من ضَياع سمعته لهَفوةٍ قد لا تستحِقّ هذا العِقاب الخطير .

ومن المُؤكَّد أن أداء الشهادة أمام القضاء ، وتبليغ الجرائم التى شاهدها الإنسان أو علِم بها لرجال السلطة ، سواء أوَقعت على الإنسان أم غيره — واجبٌ من أكبر الواجبات ، ولا يختلط أمرهما بالقَذف بحال من الأحوال . ولا محيصَ عن واجب التبليغ كلما تعرّض العدل أو الحق للخطَر أو الضّرر ، أو كان كِتمان الحقيقة يُفْضِى إلى الإضرار بالحكومة أو طائفةٍ أو فرد .

ومن خير واجبات النشء : أن يَحولوا بين الناس وبين ارتكاب الجرائم ؛ لأن الناس جميعاً مُتواثقون فى الحياة ، فمن الواجب المحتوم على الشبان أن يَعُدُّوا كلّ اعتداء على الحق والعدل فى شخص أحدهم اعتداء على أنفسهم ؛ لأن الحق مِلك للجميع على السواء . ومن واجب كل إنسان أن يُدافِع عنه فى سبيل المجتمع ، ومن واجب المجتمع أن يُدَافِعَ عنه فى سبيل كلّ فرد .

فمن رأى اعتداء على إنسان ضعيف ، وكان ذلك الاعتداء على روحه أو جسمه بقوة أو إكراه أو تجاوُزِ حدود السلطة ، حَقّ عليه الدفاع عن ذلك الضعيف المَقهور . وإن سكت عُدّ جانياً شريكاً

للمُعتدى . ومن علم أن مُجرماً أو سَيِّئَ السمعة يسعى لتولّى عمل ما فى مصالح الحكومة ، وجب عليه إظهار أمره ؛ لحماية الحكومة والشعب من شرّه ، وإن أحجم كان جانياً . ولا تعدّ النميمة من باب التبليغ ، وهى نقل الكلام إلى مَن قيل فى حقّه بقصد الإضرار بالمتكلم ، أو بَذْر الشِّقاق بين الأصدقاء ، أو تكدير صَفْو الأُسَرِ ، أو وقوع الاضطِراب والانقسام والتّقاطُع بين الناس .

ومن أجل ذلك يقول الله تعالى : « يَأَيُّها الّذِينَ آمَنُوا إنْ جاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبأٍ فتبيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فتُصْبِحُوا على مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ . »

ذلك قُلٌّ من كُثْرٍ مما يجب أن نُلقِيَه على مسامع النشء ؛ ليكونوا على بَيِّنة من أمرهم فى الواجبات التى استلزمتها حياتُهم الجديدة ، بعد أن مَلكوا أمرهم ، وتولَّوْا رعاية شئونهم ، إن غُنْماً فلهم ، وإن غُرْماً فعليهم ، قال تعالى : « وذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ . »



٤ — رثاء المرحوم قاسم أمين

لعلى الجـــارم بك



مَلَّ مِن وَجْدِهِ ومن فرْطِ ما بِهْ وأراقَ الشَّرابَ من أكْوابِهْ
وإذا القَلْبُ أَظْمَأَتْهُ الأمانِيّ فماذا يُريدُه من شَرابِهْ ؟
وأشَدّ الآلام أنْ تُلزِم الثَّغْــرَ ابْتِساماً والقلْبُ رهن اكْتِئابِهْ !
كُلَّما اخْتالَ فى الزَّمانِ شبابٌ عَصَفت رِيحُـه بِلَدْنِ شَبابِهْ
والنُّبوغُ النُّبوغُ يمْضى وتمْضى كلّ آمال قَوْمِهِ فى رِكابِهْ
غَرِدٌ ما يَكادُ يَصْـدَحُ حتى يُسْكِتَ الدَّهْرُ صَوْتَه بِنُعابِهْ

وحَبابٌ إذا عَلا الماء ولّى   فاسأل الماء هل دَرى بحَبابه ؟
وسفين ما شارَفَ الشَّطّ حتى   مَزَّق اليَمُّ دُسْرَهُ بعبابه
بَخِل الدّهر أن يُطوِّلَ للعَقْـ   ـل فيَجرى إلى مَدى آرابه
كلّما سارَ خُطْوَةً وقَف المو   تُ فسَدَّ الطَّريق عن طُلّابه

* * *

أين مَن يستَطيعُ أن يرشد الدُّنيـ   ـا وسَوْط المنونِ فى أعْقابه
أيُّها الموت أَمهِل الكاتب المِسْكِين يُرْسِـ   ـلْ أنفاسَه فى كِتابه
آه لَو يَشْتَرى الزّمانُ قريضى   بسنينٍ تُمَدُّ لى فى حِسابه
ما حَياتِى والكَوْن بعد جِهاد   لم أزَلْ واقِفاً على أبْوابه ؟
تَظمَا النّفْس فى حياة هى القفْـ   ـر فتَرْضى بنَهْلَةٍ من سَرَابه
أنا قَلْبِى من الشَّباب وجِسْمى   أثخَن الشّيبُ رأسَه بِحِرابه

* * *

عَصفَت صَيْحَة الرَّدَى بخَطيبٍ   وهو لم يَعْدُ صَفْحة من خطابه
سَكْتَةٌ أطفَأتْ منارَ طَريق   كم مَشَت مِصرُ فى ضِياء شِهابه
ومَضى قاسِمٌ وخَلَّف مَجْـ   ـداً تقْرَع النّجمَ راسِياتُ قبابه
قد نَكِرْناهُ حين قام يُنادى   وفَهِمْنا مَعناه يوم احتِسابه
رُبَّ مَن كُنتَ فى الحياةِ له حرْ   باً شقَقْتَ الجُيوبَ عند غِيابه

وتَحدَّيْتَ شمسه فإذا وَلَّى	تمنَّيْتَ لمحَةً من ضبابه
لم يَفُـزْ منك مرَّةً بثناء	فنثَرْتَ الأزهارَ فوقَ تُرابه
يُمْرَف الوَرْد حينما يَنقضى الصَّيْـ	ـف ويُبكى النُّبوغ بعد ذهابه

***

كتبَ الله أن يَعيش غريباً	كلُّ ذى دَعْوَةٍ إلى الْحق نابه
لا تَرى فوقَ قِمَّة الطَّوْدِ إلاَّ	بَطَلاً لا يَهابُ هَوْل صِعابه
كلُّ ذات الجناحِ طيْرٌ ولكن	عَرَفَ الجوُّ نَسْرَه من غُرابه
كم رأَيْنا فى الناس من يَبْهَر العَيْـ	ـن وما فيه غير حُسْنِ ثِيابه
يملأ الأرض والسماء رياءً	وعُيوب الزَّمان ملءُ عيابه
نَقَد الناسُ قاسِمًا فرَأَوْهُ	أَصبَر الناس فى تَجرُّع صَابه
صالَ بالرَّأى قاسمٌ لا يُبالى	ومَضى فى طَريقه غيرَ آبه

***

كم جَرىءٍ لا يَرْهَبُ السيف إن سُـ	ـلَّ ونِكسٍ يَخاف مسّ قِرابه
والشُّجاع الذى يُجاهر بالحـ	ـق ولو كان فيه مُرُّ عَذابه
وطريقُ الإصْلاح فى كل شَعْبٍ	عَسِر المُرْتَقى على مُجْتابه
قمتَ للْجَهْل تَقْلِمُ الظُّفْرَ منه	وتَقُصُّ الحِداد من أَنْيابه
يا نَصيرَ النِّساء والدِينُ سَمْحٌ	لو وَعَيْنا السِّرىّ من آدابِهِ

*
* *

قد خَشِينا على الحمائم فى الدَّوْ ح أظافيرَ بازِه أو عُقابه
إن أرَدْتَ الظِّباء تَمْرَحُ فى السَّهـل فطَهِّرْ أكنافَه من ذِئابه
كم ضَراءٍ وَسْطَ المدائن أنكى من ضَراء الضِّرغام فى وسط غَابه
وشِباكٍ من الجرائم والخَتـل حَواها شيطانُهم فى جِرابه
وإذا ما الحياء لم يَسْتر الحسـن فماذا يُفيده من نِقابه

*
* *

قمت تدعو البنات للعِلْم فانظر كيف حلّقْن فوق شُمِّ هِضابه
وزَها النيلُ بابنَة النِّيل فاختا ل يَجُرُّ الذُّيول من إعجابه
وغدَا البيت جنَّة بالتى فيـه خَصيباً بالأُنْس بعد يَبابِه
كنت فى الحق للإمام نصيراً والوفىَّ الصَّفىَّ من أصحابه
نَمْ هَنيئاً فَمِصْر نالت ذرا المَجْـد وفازت بِمَحْضِه ولُبابه
منك عزم الدَّاعى وفَضْل المجلِّى ومن الله ما تَرى من ثَوابه



٥ — الشَّـــرَفُ

للمرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى

لو فَهِمَ الناسُ معنى الشّرف لأصبَحوا كلُّهم شُرَفاء .

ما من عامل يعمَل فى هذه الحياة إلا وهو يطلُب فى عمله الشَّرف الذى يتَصَوَّره أو يصوِّره له النــاس ، إلا أنه تارةً يخطئُ مكانه وتارة يُصيب .



يقتُل القــاتِلُ وفى اعتقادِه أن الشرف فى أن يَنتَقِم لنفسه أو عِرضـه بإراقَة هـذه الكمية من الدم ، ولا يُبالى أن يُسمِّيه القانونُ بعد ذلك مُجرما ؛ لأن البيئَة التى يَعيش فيها لا تُوافق على هذه التَّسمية ، وهى فى نظره أعْدل من القانون حُكمًا وأصْدقُ قولا .

يَفسُق الفاسِق وفى اعتقادِه أنه قد نَفَضَ عن نفسه بعمله هذا غُبار الْخُمول والبله الذى يُظَلِّل الأعفاء والمستَقيمين ، وأنه استطاع أن يعمَل عملا لا يُقْدِمُ عليه إلا كل ذِى حِذْقٍ وبراعة وشجاعة وإقدام .

يسرِق السارق ويُزَوِّرُ المزوِّرُ ويَخون الخائن ، وفى اعتقادِ كلٍّ منهم أن الشرَف كل الشرَفِ فى إحْرازِ المال ، وإن كان السبيلُ إليه دنيئاً وسافِلاً ، وأن للذهب رَنيناً تخفِتُ بجانب صوته أصواتُ المعترضين والناقدين شيئاً فشيئاً حتى لا يُسمع بجانبه صوتٌ سواه .

هكذا يتصوَّر الأغنياء أنهم شرفاء ، وهكذا يطلبُون الشرف ويخطئُون مكانه . وما أفسد عليه تصوُّرهم إلا الذين أحاطوا بهم من سُجَرائهم وخُلَطائهم وذوى جامِعَتهم ، أولئك الذين يَحْتقرون المَوْتور حتى يغسل الدم بالدم فيعظِّموه ، ويَنْعَوْن على الرجل العفِّ المستقيم بلاهَتَه وخُموله حتى يفجُر ويستهتِر فيُطروه ويُجِلُّوه ، ويكرمون صاحب الذهب ، ولو أن كل دينار من دنانيره مُحْجَمٌ من الدم . وأولئك الذين يُسَمون الفقير سافلا ، وطيِّب القلب مُغَفَّلا ، وطاهر السَّريرة بليداً ، والحليمَ عاجِزاً .

لا تَعجَبْ إن سمِعت أن جماعة الأغنياء الجهــلاء تنعكس فى أدمغتهم صورُ الحقائق حتّى تلبَس فى نظرهم ثوباً غير ثوبها ، وتتراءى فى لون غير لونها ، فإن بين الخاصّة الذين نعتَد بعقولهم ، ونمتدح أفهامهم ومداركهم مَن لا يفرّق بين الرّذيلة والفضيلة ، حتى إنه ليكاد يفخر بالأولى ويستحي من الأخرى .

لولا فساد التصوُّر ما افتخر قائد الجيش بأنه قتل مائة ألف من النفوس البشرية فى حرب لا يُدافع فيها عن الفضيلة ، ولا يؤيِّد بها حقًّا من الحقوق الشَّرعيَّة أو الاجتماعية . ولولا فسادُ التصور ما وضع المؤرِّخون اسم ذلك السّفاح بجوار أسماء العلماء والحكماء والأطباء — خَدَمَةِ الإنسانية وحملةِ عرشها ، وأصحاب الأيادي البيضاء عليها — فى سطر واحدٍ من صحيفة واحدة . ولولا فساد التصور ما جلس القاضى المرقَّشُ فوق كرسى القضاء يَفتِل شاربيه ويُصعِّر خدَّيه ، وينظُر نظرات الاحتقار والازدِراء إلى المتَّهَم الواقف بين يديه مَوْقِفَ الضَّراعةِ والذلِّ ، ولا ذنبَ له عنده إلا أنه جاع وضاقت به مذاهبُ العيشِ فسرَق درهما ، وهو يسرق الدنانير فى جميع آنائه وأوقاته . ولولاه ما توهم وهو اللص الكبير أنه أشرف من هذا اللص الصغير ، ولو باتا عند قدرَيْهما لوقفا معاً فى موقفٍ واحدٍ أمام قاضٍ عادلٍ يحكم بإدانة الأوَّل ؛ لأنه سرق مختارًا ليرفِّهَ عيْشه ، وبراءةِ الآخرِ ؛ لأنه سرق مضطرًّا لينْقِذَ حياته من براثِن الموت .

فمن شاء أن يُهذِّب أخلاق الناس ويقوِّم مُعْوَجَّها ، فليهذِّبْ تصوّراتِهم ، وليقوِّمْ أفهامهم يُوَافِهِ ما يريد من التَّهذيب والتَّقويم .

ليس من الرأى أن يُشير المعلم على المتعلِّم أن يحمل هذا المجتمعَ

الإنسانى ميزانًا يزن به أعماله ، أو مِرآة يرى فيها حسناته وسيئاته ؛ فالمجتمع الإنسانىّ مصابٌ بالسُّقم فى فهمه والاضطراب فى تصوُّره ، فلا عبرةَ بحُكمه ، ولا ثِقةَ بوزنه وتقديره .

ليس من الرأى أن يرشد المعلم المتعلم إلى أن يَطْلب فى حياته الشّرف الاعْتِياديّ ؛ فليس كل ما يَعتبِره الناسُ شرفًا هو فى الحقيقة كذلك ؛ ألا تراهم يَعُدُّون أشرفَ الشرفِ أن يتناول الرجلُ من المَلِكِ قطعةَ من الفضّة أو الذهب يحلّى بها صدره ، وربما كانوا يُعلّمون أنه ابتاعها بِماله كما تبتاع المرأة من الجوهرى حليتها .

لا شرف إلا الشرف الحقيق ، وهو الذى يناله الإنسان ببذل حياته أو ماله أو راحته فى خدمة المجتمع البَشَرِى جميعِه ، أو خدمة نوع من أنواعه . فالعالِم شريف ؛ لأنه يجلو صَدَأَ العقل الإنسانى ويصقُل مرآته ، والمجاهد فى سبيل الذود عن وطنه شريف ؛ لأنه يَحْمِيَ بنى وطنه غائلة الأعداء ويَقيهم عادِيَة الفناء ، والمحسن الذى يضَع الإحسان فى موضعه شريف ؛ لأنه يأخذ بأيدى الضّعفاء ويحمى أنفس البؤساء ، والحاكم العادل شريف ؛ لأنه رسول العناية الإلهية إلى المظلومين يمنعهم أن يَبْغِي عليهم الظالمون ؛ وصاحبُ الأخلاق الكريمة شريف ؛ لأنه يؤثّر بكرم أخلاقه وجمال صِفاته فى عُشَرائه وخُلطائه ، ويُلقى عليهم بالقُدْوة الصالحة أفضلَ

دَرس فى الأخلاق والآداب ، والصانع والزارع والتاجر أشرافٌ متى كانوا أمناءُ مستقيمين ؛ لأنهم هم الذين يحمِلون على عواتِقِهم هذا المجتمع البَشَرِىَ ، ويحمِلون فى سبيل ذلك ما يحتملون من المؤنة والمشقّة حذراً عليه من التّهافت والسقوط .

فإن رأيت فى نفسك أيها القارئ أنك واحد من هؤلاء فاعلم أنك شريف ، وإلا فاسلك طريقهم جُهدَك ، وإن لم تبلغ غايته ، فأخذ القليل خير من ترك الكثير . فإن لم يكن هذا ولا ذاك فلتَبكِ على عقلك البواكى .

٦ — من رِحلةٍ فى الصَّحْراء

قال أحمد باشا حسنين :

« فى العاشر من مايو بلغنا « الجرد » ، وهى مرتفعات من الرمال جوانبها تكاد تكون قائمة ، تسير الجمالُ عليها فتغوص فيها إلى الرُّكَب .

وفى الثانىَ عشَرَ منه شرعنا فى السير الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر ، وقطعنا ٧٠ « كيلومتراً » دَفعة واحدة ، ثم حططنا رِحالنا قُبيل الساعة العاشرة صباحاً ، وأرسلنا الجمال إلى التلال المجاورة لترعى فيها .



الرحالة أحمد حسنين باشا

وفى الرابعَ عشَرَ صار همّنا الأكبر الوصول إلى « أردى » لأن ماءنا كاد ينفَد ، وكلّت جمالنا من التعب ، ورأى اثنانِ من رجالنا آثار وَرَلٍ فاقتفَياه إلى جُحْره ، وبحثا عنه وأمسكا به وهو لا يعضّ ، ولكن ذنبه كالسوط

فيضرب به . والبدو والزنوج يستعملون دُهنه دواء لداء المفاصل ، ويقولون إن رأسه عُوذَةٌ تقى من السحر .

وهنا كثُرت الأودية وهى كثيرة الكلأ والحشيش دليلاً على أننا دنونا من « أردى » ولكننا لم نر تلالها الحمراء إلا صباح السادسَ عشر من مايو . وأجمع رأينا على النزول فى وادى « أردى » نفسِه لا فوقَه ؛ لكى نكون على مقرُبة من الماء مخافة من طارئ يفاجئنا ونحن بعاد عنه ، فصعدنا حَيداً إلى أن بلغنا أعلاه ، وأشرفنا منه على وادى « أردى » وهو ضيّق طوله ٨ « كيلومترات » ، وعرضه نحوُ مائة « متر » تحيط به صُخورٌ شائقةٌ حمراء اللون ، فابتهجنا برؤية ما فيه من الأشجار الغَنّاء والمرُوج الخضراء . وهذا الوادى غير نافذ ، وفيه بئر تُغطّيها الصخورُ ، وهى بركة كنصف دائرة طولها ستة « أمتار » وعرضها ثلاثة ، ومن رأيى أن ماءها خليطٌ من ماء المطر ، ومن ماء نابعٍ فى الأرض . والوادى جميلٌ بما فيه من الخُضرة ، وما يحيط به من الصخور الحمراء القائمة حوله كالجُدْران .

وهنا حذّرَنا دليلانا من السفر ليلا ؛ لكثرة ما فى البلاد من التلال والوهاد ، فقمنا فى السابعَ عشرَ من مايو الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين صباحاً . ولما خرجنا من الوادى رأيت القرق الكبير بينه

وبين أودية « أركنو » و « العوينات » ؛ فإن أرض الأودية هناك على ارتفاع الأرض حول الجبل ، وأما هنا فالوادى أعمق من السهل الذى حول الجبـــل .

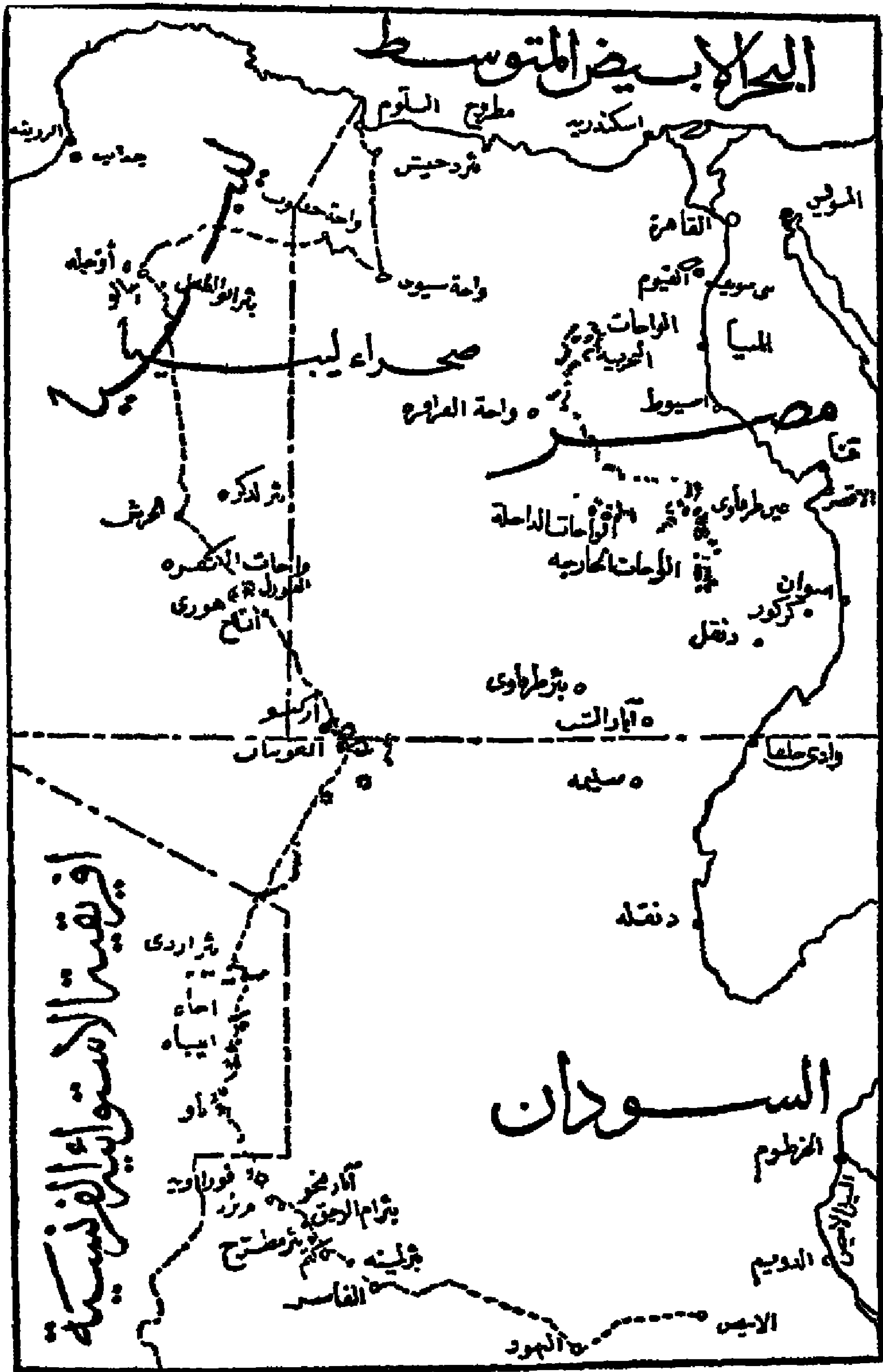
ولما خرجنا منه جُزنا أرضاً جبلية ، صخورها سوداء وحمراء وقبلما انقضت مرحلتنا رأينا تلال « أجاه » فى الأفق ، وبلغنا وادى « أجاه » فى العشرين من الشهر ، ولم نر فى واد حتى الآن ما رأيناه فيه من كثرة الأحجار والنباتات . والبئر فيه مثل بئر « أردى » ، ولـكن الجمال والقُطعانَ عَبِثَت بمائها فأفسدته . والطيور كثيرة هنا تُطْرِبُ الأُذُنَ بأصواتها . وأردنا أن نبتاع بعض الخرفان من السكان ، فأبوا حاسبين ذلك عاراً عليهم ، ولـكنهم أهدوا إلينا ثلاثة خرفانٍ ضيافة ، وأبوا أن يأخذوا ثمنها ، فأهدينا إليهم مقاطيع من « البفتِ » الأزرق فسُرّوا بهـــا .

وأستأنفنا السير فى ٢١ مايو قبـل غياب النجوم ، وإذا أمامنا ثلاثة غزلان ، فتبعها ثلاثة من رجالنا ، وأطلق « حامد » بُندُقيته على واحد منها فأخطأه ، ولـكنه أقسم بالله أنه أصابه ورأى الدم يفور من بدنه . ولما جلسنا الظُّهر للغداء ، جرح واحد يده وهو يقطع بَضْعة من الخروف الذى شويناه لغدائنا ، فسألته : « من أين هذا الدم ؟ »

فأجاب آخر : « هذا من غَزَال حامد . » فقهقَهَ الرجالُ مسرورين . وبعد الغداء كنت أدِيرُ ساعاتى ، وأكتب قراءات « البارومتر » و « الترمومترين » اللذين يدل أحدهما على أعلى درجات الحرارة والآخر على أصغرها ، وإذا « بحامد » يعدو إلينـــا وهو يقول : « إنه رأى سُرَباً من النعاَم » فأمسكنا بَنادِقَنا استعداداً لها ، فمرت بنا وهى نحو ثلاثين أو أربعين نعامةً ، فأطلق الرجال بنادقهم عليها وهى لا تزال بعيدة ، وعدا « حامد » وأمسك بعنق واحدة منها ، فضربته برجله فى خاصرته وأفلتت ، فعاد إلينا ويده على جنبه ، فسألته : « هل آذتك ؟ » فقال : « كلا . » ، فقلت : « لماذا لم تأت بها إذا ؟ » فقال : « لأنى وجدتها أنثى . »

وقمنا الساعة الخامسة وسرنا فى الوادى ساعة ، ثم صعدنا فى الآكام ، فلما بلغنا أعلاها رأينا ذلك الوادى تحتنا كبساط من الزبرجد تُرَصِّعُهُ الأشجار والأنجُم وبُقَعُ الرمل الوردىّ ، وتحيط به صخور وتلالٌ حمراءُ . ونسيم المساء يتخلّله هديل القَمارِىّ . وغابت الشمس حينئذ فاكتسى الجوُّ حُلةً من الأرجُوانِ لا ينساها من يراها .

بلغنا « أينباه » فى ٢٣ مايو ، والماء هنالك عذْبٌ قَراحٌ ، وعليه جماعة من قبيلة « البديات » ومعهم كثير من الغنم وبعض الخيول ،



خريطة رحلة أحمد حسنين بك (باشا) من السلوم إلى الأبيض

فخرجوا لاستقبالنا فصافحتهم ، وصببت على أيديهم قليلا من الروائح العطرية فأتونا بالخرفان ضيافة ، وجاءنا نساؤهم بالسمن والجلود ليبعنها منا ، لأن البيع والشراء فى أيدى النساء . وبينما كنت أرصد فى المساء ، رأى الرجال مقياس الأبعاد « البيودوليت » و « المصباح الكهربائى » فأوجسوا شراً ، ودخل أحد شيوخهم خيمتى ، ورآنى أفتح صندوق آلة من الآلات ، فأغلقته لما رأيته ، ولكننى انتبهت إلى ما فى عملى هذا من الخطأ ، لأنى رأيت أمارات الشر فى وجهه ، كأنه حسب أن الصندوق مملوء ذهباً . ولما خرج من خيمتى ناديت اثنين من رجالى ، وأمرتهما على مسمع منه أن يبتدئا دورهما فى حراسة المعسكر ، ثم أخبرته ألا يدع أحداً من النساء أو الأولاد يدنو منا ؛ لئلا يطلق رجالى الرصاص عليه خطأ . قلت ذلك لأريه أننا على حذر ، فأصاب قولى المرمى .

وسرنا من هناك إلى أن بلغنا وادياً كبيراً اسمه « كوتى مينا » ممتداً من الشرق إلى الغرب تغطيه أشجار كبيرة ، وكان فيه جماعة من قبيلة « الجرعان » ووصل إليه ونحن هناك تاجر قادم من « ودّاى » ، معه بقر وغنم وهو ذاهب بها إلى « الفاشر » . وسرنا فى ٢٦ من مايو مقتفين آثار الغنم والجمال إلى أن بلغنا وادياً كبيراً جداً فيه كثير من الأشجار الظليلة اسمه « كب تركو » ، وكنا نحسب أننا نصل إلى « باو »

صباح السابع والعشرين حَسْبَ قول الدليل « هرى » . ولـكن انقضى النهارُ ودخل الليلُ ولم نصلْ ؛ لأن هـذا الدليل أخطأ فى تقديره وكان ماؤنا قد نفِدَ كلُّه ما عدا قربةٍ واحدةٍ . فتابعنا السير إلى الساعةِ السابعةِ والدقيقةِ الخامسةِ والأربعين ، فوصلنا إلى أرض صخرية يتعذَّر السيرُ فيها فى ضوء القمر ، وكنا على حافةِ وادٍ ادَّعى « هرى » أنه وادي « باو » لـكنني لم أصدِّقه ، ولم أسمح للرجال أن يشربوا ماءَ القِربةِ إلا حينما نبلغ مكاناً فيه ماء ، فنِمنا تلك الليلة من غير عشاء لـكى لا نشربَ .

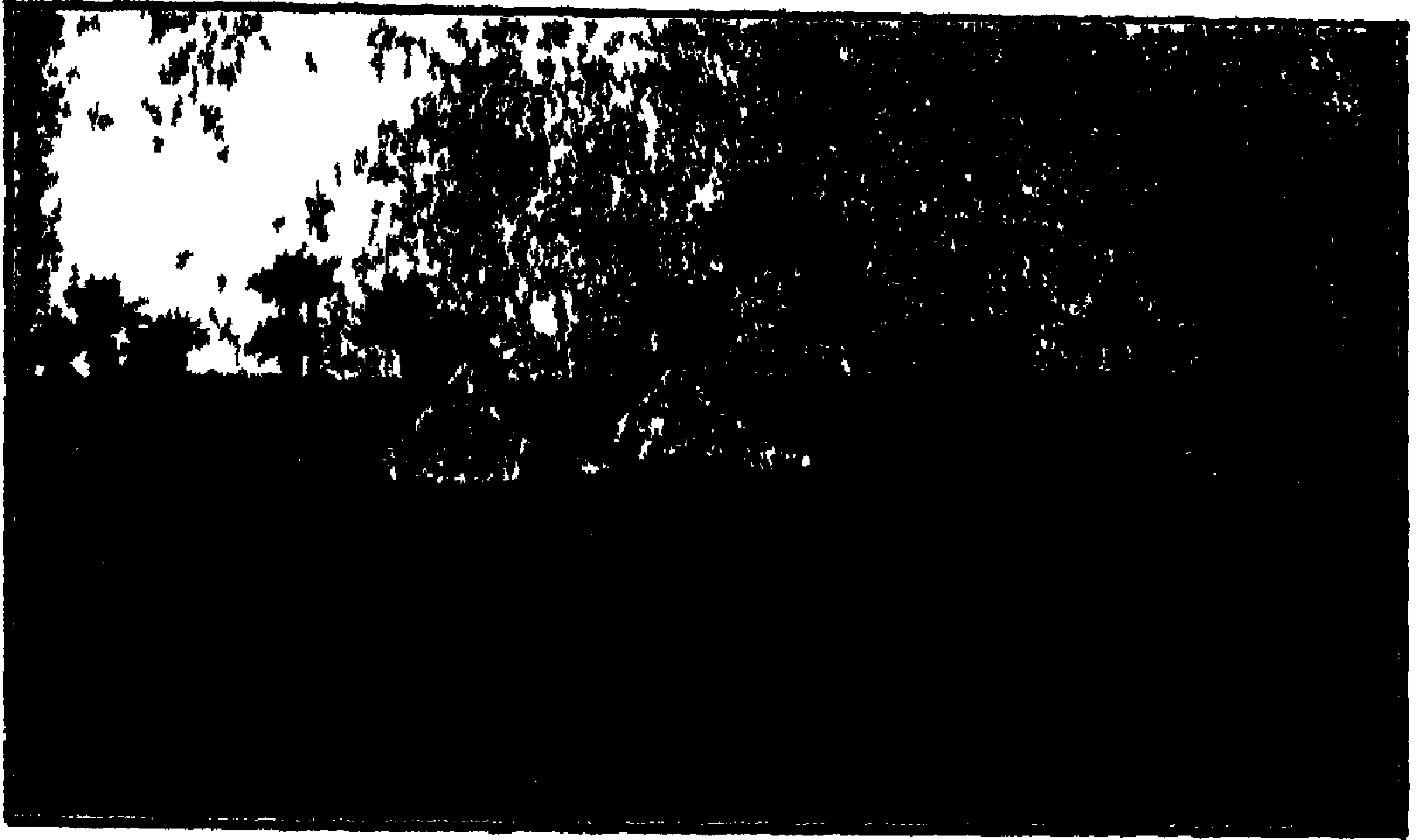
وكان النزول إلى الوادى عسيراً جدا ؛ لـكن كان لا بد منه ، فنزلنا إلى أن رأينا فى الوادى غنما وكُوخاً ، فأذنت للرجال أن يشربوا ماءَ القربة . وأقبلَ نفر من « الجرعان » و « البديات » للقائنا . ونساؤهم حِسانُ المنظر يشتملن بثيابهن اشتمالا ، ويضفرن شعورهن ، ويتحلَّين بحُلِيٍّ من الفضة والعاج . وفى أعناقهن عقودٌ من الخرز والـكهرمان ، والبنات يكتفين بأُزُرٍ يستُرْن بها عوارتهن ، والرجال عُراة فى الغالب ، وهم مُجَدْوَلُو العضَل يحمل الواحد منهم حَرْبتَين أو ثلاثا ، وسيفاً وسكينا يرشُق بهما خصمه رشقا .

وأما شيوخهم فيرتدُون أرْدية بيضاء ويعتمُّون . أعطينا النساء من

المكرونة فلم يأكلنها بل نظمنها عقوداً تقلدن بها . وللحال دار الأخذ والعطاء بينهن ، فتبادلن هذه العقود بالسمن والجلود .

وقمنا من هناك فى الثلاثين من مايو ، وانبسطت الأرض أمامنا ، وقلت الأودية والأشجار الكبيرة ، ورأينا آثار الأسد . وبلغنا وادى « هور » فى أول يونيو ، وهو كنصف دائرة وفيه أشجار كبيرة وأرض زراعية كأرض مصر . والأرض بعده قليلة الشجر ، ولكنها كثيرة العشب . ومررنا أمام تلة تسمى « تاميرا » على رأسها شجرة يابسة ، وهى الحد الفاصل بين « وداى » و « السودان » . ونهضنا فى الثانى من يونيو مبكّرين ، لكى نصل إلى « فوروية » ذلك اليوم ، ومررنا فى الساعة الخامسة صباحاً أمام حجر « كرارا » وكان على عشرة « كيلومترات » عن يميننا . وبعد ساعة مررنا أمام حجر « أردو » وهو تلٌّ ارتفاعه نحو ثمانين « متراً » وطوله ٢٠٠ « متر » . والحجر بلغة السودان الأكمة الصغيرة . ثم نزلنا إلى وادى « فوروية » وهو أكبر واد ، وآهَلُ وادٍ مررنا به فى رحلتنا حتى الآن وسكانه من « الزغاوى » وقليل من « البديات » . وكنا ننتظر أن نجد طعاماً فى هذا الوادى فلم نجد ، وكان سكّرنا قد نفد منذ ثلاثة أسابيع ، فكنا نحلى الشاى بدقيق التمر . ونفد أيضاً ما معنا من الدقيق والأرز ، ولم يبق معنا إلا

المكرونة فماقتها نفوسنا ، فكتبت إلى « سقيل باشا » حاكم « دارفور » في « الفاشر » ليرسل إلينا طعاماً وثياباً لرجالي ؛ لأن ثيابهم صارت أخلاقاً وأرسلت الكتاب مع رسول استأجرته بعد عناء كثير .



مخيم البعثه في الصحراء

أقمنا في « فوروية » ثلاثة أيام ، وكانت السماء تمطر كل يوم . وأكثر رجالي من أكل اللحم ، ولكنه لم يغنهم عن الشاي والسكر .

وفي سادس يونيو سرنا في طريق مطروق جنوباً ، وكنا نمر في طريقنا بقرى صغيرة بيوتها أكواخ من القش . وبلغنا « أم بورو » في اليوم التالي ، فنزلنا قرب البئر ، ونهضنا في الصباح مُبَكِّرين على صوت الغنم والبقر آتية لتشرب . وبعد ساعة قامت سوق إلى جانب خيامنا ، لأننا كنا قد نصبناها ملاصقةً لشجرة كبيرة ، وهي في وسط مكان السوق .

ولا يحضر السوق إلا النساء ، فهن يبعْن ويشترين السمن ، والجلد ، والحصر ، والذرة ، والقطن ، والملح ، يتبادلنها مبادلة — والرجال مُقيلون كسالى .

والمرحلة التالية كانت خمسة أيام إلى « كتُم » قطعنا فيها ١٢٩ « كيلومتر » ، والطريق مطروق ، وكنا نقوم فى الصباح وننزل العصر . وفى البلاد تلال كثيرة تغطيها الأشجار والحشيش ، وبينها بقاع حرق هشيمها استعداداً لزرعها .

وفى صباح اليوم الرابع جاءنى رجل يقول : إنه رأى عن بعد عسكرياً راكباً جملاً « هجاناً » . وبعد قليل وصل هذا العسكرى ومعه كتاب من المستر « تشارلس ديوى » حاكم « دافور » بالنيابة — لأن « سفيل باشا » كان قد استعفى — ومعه شىء من الرز والدقيق والشاى والسكّر والسكاير . وقد كان سرورنا بالسكاير على أشده ، لأن ما كان معى منها نفد كله بعد خروجنا من « أردى » . ولما بلغنا بيت الحكومة فى « مرابغ » جعل رجالى يغنون ويطربون . فأقاموا قالب السكّر فى وسط ساحة ، وجعلوا يرقصون حوله ، والعسكرى ينظر إليهم مدهوشاً ، حاسباً أنهم جنُّوا . ولا يعرف الشوق إلى السكر إلا من حرمه أياماً متوالية .

وصممت على أن نسرع فى السير. لأن مؤونتنا كادت تنفد كلها . فبلغنا ضواحى « كتم » فى الرابع عشر من الشهر، وشاهدنا حينئذ كوكبة من الخيالة تدنو منا ، فقابلناها بالهتاف ، وكان أبهج شيء فى نظرى رؤية الجنود السودانيين بملابسهم العسكرية . وكان فى الكوكبة معاونان وعشرة جنود وقاض وكاتب وبعض وجوه « كتم » فصافحتهم كلهم وسرنا تحت لوائهم ، ولما دنونا من المركز خرج النساء للقائنا لابسات البياض ، يقرعن الدفوف ، وينشدن الأناشيد ، فدخلنا المركز وأقمنا فيه وحوله ، وعادت النساء ليلاً ، وهن يغنين ويرقصن ، فسر رجالى واستأذنونى فى إطلاق بنادقهم عند أقدام البنات ، فأذنت لهم ، نخاف البنات أولاً لأنهن لم يألفن ذلك ، ولكنهن أدركن المراد حالاً واستأنفن الغناء والرقص والزغردة ، فزال كل ما كنا نشعر به من وعثاء السفر.

أقمنا يومين فى ضيافة المعاونين ؛ لأن « المستر أركل » المفتش كان فى « الفاشر » . وقمنا فى السابع عشر من يونيو ، فوصلنا إلى « الفاشر » بعد يومين كانا من أيام السرور والبهجة ، لأننا شعرنا أننا رجعنا إلى العمران الذى كنا نشتاق إليه . ولما صرنا على ثلاث ساعات من « الفاشر » نزلنا لكى نستعد لدخولها ، فلقت وكان « المستر دبوى»

قد بعث إلينا مقداراً من البفت الأبيض إلى « كُتُم » فالتحف به رجالى ثم استأنفنا السير ، وإذا بكوكبة من الفُرسان آتية للقائنا ، فصر جوادى أذنيه وعدا إليهم . وخرج « المستر دبوى » على جواده للقائنا ، فتصافحنا مصافحة الأصدقاء ، ورحب بنا الضباط كلهم من إنكليز ومصريين ، وضافنا « المستر دبوى » فى بيتـه . وهناك مركز للتلغراف اللاسلكى ، فاستعلم مديره لى عن وقت « غرينتش» بإنجلترا فإذا « خرنومترى » لم يفقد إلا ٢٣ دقيقة و٢٣ ثانية فى ثمانية أشهر ، أى أقل من ست ثوانٍ كل يوم .

وأقمت عشرة أيام فى ضيافة « المستر دبوى » والضباط وأعيان المدينة ، فإنهم لم يتركوا وسيلة لإكرامنا . وسرنا من هنـاك إلى « الأبيض » وركبت منها إلى « الخرطوم » « فالقاهرة » فبلغتها فى أول أغسطس سنة ١٩٢٣

٧ — وصية أعرابيـة لابنها

قال أبان بن تَغلب ، وكان عابداً من عباد أهل البصرة : « شهِدت أعرابية وهى توصى ولداً لها يريد سفراً وتقول له : « أى بُنى ! اِجلس أمنحْك وصيتى وبالله توفيقك ، فإن الوصيةَ أجـدى عليك من كثيرِ عقلك » قال أبان : فوقفتُ مستمعاً لـكلامها ، مستحسِناً لوصيتها . فإذا هى تقول : « أى بنى ! إياك والنميمةَ فإنها تزرع الضغينةَ ، وتفرّق بين المحبّين . وإياك والتعرض للعيوب فتُتَّخَذَ غَرضاً ، وخليق ألاَّ يثبُت الغَرَضُ على كثرةِ السِّهام ، وقلّما اعتورت السهامُ غرضاً إلاّ كَلَمَتْه ، حتى يَهِيَ ما اشتدَّ من قُوَّته »

« وإياك والجود بدِينك ، والبخل بمالك ، وإذا هززتَ فاهزُز كريماً يلِنْ لهزّتك ، ولا تهزز اللئيم ؛ فإنه صخرة لا ينفجرُ ماؤها . ومثّلْ لنفسك مِثالَ ما استحسنت من غيرِك فاعملْ به ، وما استقبحتَ من غيرك فاجتَنِبْه ؛ فإن المرء لا يرى عيب نفسه . ومن كانت مودتُه بِشْرَه ، وخالفَ ذلك منه فِعْلُه ، كان صديقه منه على مثل الريح فى تصرّفها . » ثم أمسَكتْ . »

« فدنوت منها فقلت : « بالله يا أعرابية إلا زدتِهِ فى الوصية ! » فقالت : « أوقد أعجبك كلام العرب يا عراقى ؟ ! » قلت : « نعم . » قالت : « والغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم ، ومن جمع الحلم والسخاء فقد أجاد الحُلّة رَيطتَها وسربالها . »

٨ — كتاب عمر بن الخطاب
إلى قائد جيوشه سعد بن أبي وقاص

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد : فإنى آمُرك ومن معَك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ؛ فإنَّ تقوى الله أفضلُ العـدّة على العَدُوّ ، وأقوى المكيدةِ فى الحرب . وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدّ احتراساً من المعاصى منكم من عَدُوّكم ؛ فإن ذنوبَ الجيش أخوفُ عليهم من عَدوّهم ، وإنما يُنْصَرُ المسلمون بمعصية عدوّهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنـا بهم قُوّة ؛ لأن عَدَدَنا لَيس كعَدَدِهم ولا عُدّتنا كعدتهم ، فإن استَوَيْنا فى المعصيةِ كان لهم الفضـلُ علينا فى القوة ، وإلاّ تُنصرْ عليهم بفضلِنا لم نَغلبهم بقوّتنا . فاعلموا أن عليكم فى سيركم حَفظةً من الله يعلمون ما تفعلون فاستَحْيُوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله ، ولا تقولوا : « إنَّ عدوّنا شرٌّ منّا فلن يُسلّطِ علينا . » فربَّ قومٍ سُلِّط عليهم شرٌّ منهم كما سُلِّط على بنى إسرائيل — لَمّا عَمِلوا بمساخطِ الله — كُفارُ المجوسِ ، فجَاسُوا خِلالَ الدِّيار وكان وعداً مفعولاً . واسألوا اللهَ العونَ على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم ، أسألُ الله تعالى ذلك لنا ولـكم .

وترفَّقْ بالمسلمين فى مَسيرهم ، ولا تُجَشِّمْهم مَسيراً يتعبهم ، ولا تقصُرْ بهم عن منزلٍ يرفُق بهم حتى يبلغوا عدوَّهم ، والسفرُ لم يَنقُص قوتهم ، فإنهم سائرون إلى عدوٍّ مُقيمٍ حامى الأنفس والكُراع . وأقم بمن معك فى كلِّ جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يُحيُون فيها أنفسهم ، ويرُمُّون أسلحتهم وأمتعتهم . ونَحِّ منازلهم عن قُرَى أهلِ الصلح والذِّمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا مَنْ تثق بدينه ، ولا يرزأْ أحداً من أهلها شيئاً ؛ فإن لهم حُرمةً وذِمّةً ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبَروا لكم فتولَّوهم خيراً ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح .

وإذا وطئتَ أرضَ العدوِّ فأذْكِ العيون بينك وبينهم ، ولا يخفَ عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرضِ من تطمئنُّ إلى نُصحه وصدقه ؛ فإن الكذوبَ لاينفعُك خبرُه وإنْ صدقك فى بعضه ، والغاشُّ عَينٌ عليك وليس عيناً لك . وليكن منك عند دنوِّك من أرض العدو أن تكثِرَ الطلائع وتبث السَّرَايَا بينك وبينهم ، فتقطع السَّرَايا أمدادَهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتِهم . وتَنَقَّ للطلائع أَهلَ الرأى والبأس من أصحابك ، وتخيَّرْ لهم سوابقَ الخيل ، فإن لَقُوا عدوًّا كان أوّل ما تلقاهم القوة من رأيك . واجعل أمر السرايا إلى

أهلِ الجهاد والصبر على الجلاد ، ولا تخصّ بها أحداً بِهَوًى فتُضيعَ من رأيك وأمرك أكثر مما حابيتَ بهِ أهل خاصّتك . ولا تبعثنّ طليعةً ولا سريةً فى وجه تتخوف فيه غلبةً أو ضَيعةً أو نكايةً . فإذا عاينتَ العدوّ فاضمُمْ إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك ، واجمع إليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلْهم المناجَزة ما لم يستكرهْك قتالُ، حتى تُبصرَ عورة عدوِّك ومقاتِلَهُ، وتعرف الأرض كلَّها كمعرفةِ أهلها ، فتَصنعَ بعدوِّك كصُنْعِه بك . ثم أذْكِ أحراسَك عَلَى عَسْكَرِك ، وتيقَّظْ من البيَاتِ جهدك ، ولا تُؤْتَىَ بأسيرٍ ليس له عَقْدٌ إلاّ ضربتَ عُنُقَه لتُرهبَ بهِ عدوّ الله وعدوك . والله ولى أمرك ومن معك ، وولىُّ النصر لكم عَلَى عدوكم ، والله المستعان والحمد لله رب العالمين .



٩ ــ الظاهر بيبرس البندقدارى

وَلِىَ الظَّاهر بيبرسُ مُلك مصر فى آخر سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة للهجرة النبوية ، وفى أيامه أصبَحت القاهرة مقرَّ الخلافة الإسلامية ، فقد وَفَد عليها فى سنة ستين وستمائة من بقى من العباسيين بعد استيلاء التتار عَلَى بغداد ، فرحَّب بهم وبايَعَ ابن أَحد الخلفاء ، ولقبه بالمستنصر بالله . ثم أراد أن يَستَرجِع بغداد للعباسيين فأنْفَذَ مع المستنصر جيشاً فلاقاه التتار فى الطريق ، وشتَّتوا جيشه وقتلوه ، فبُويع بالخلافة فى القاهرة آخر من بنى العباس وسمّى الحاكم بأمر الله .

وكان الظاهر بيبرس شُجاعاً ، حارَب حروباً كثيرة كان النّصر حليفه فى معظمها . ومَدّ ملك مصر إلى بغداد ، وعاش مَرْهوب الجانب واسِع السلطان إلى أن تُوفِّىَ سنة ست وسبعين وستمائة .

وللظاهر بيبرس محاسن كثيرة ؛ فهو الذى أكمل عِمارة المسجد النبوى بعد ما أصابه من الحريق ، وكان الخليفة المستعصم شرَع فيها فقتل قبل أن يتمها . جهّز الظاهر فى رمضان سنة إحدى وستين وستمائة صناعاً وأخشاباً وآلات ، وطِيفَ بها بالدّيار المصرية إجلالاً لها وتعظيماً لشأنِها ، ثم سِيرَ بها إلى المدينة المنورة . وأرسل

مِنْبراً فنُصِب هناك ، وحجّ فى سنة سبع وستين فغَسَلَ الكعبة بيده بماء الورد ، وسار إلى المدينة المشرفة ، ورأى الناس يلتَصِقون بالقبر النبوى ، فقاس ما حوله بيده ، وأرسل فى العام الذى يليه إطاراً من خشب فأُديرَ حول القبر الشريف . وهو الذى جعل القُضاة أربعة ؛ من كل مَذْهب قاض ، ولم يُعْهد ذلك قبله . وأمر فى أيامه بإراقة الخمور وإبْطال المفْسِدات ، وإسْقاط المكوس المترتِّبة عليها . وفى أيامه طِيفَ بالمحمل وبكُسْوة الكعبة المشرفة بالقاهرة ، وذلك فى سنة خمس وسبعين وستمائة ، وكان يوماً مشهوداً . فكان أوّلَ من فعل ذلك بالديار المصرية .

وكانت له صَدقات كثيرة ؛ من ذلك عشرة آلاف إردب قمح للعجزة والمُعْوِزين وأرباب الزّوايا ، وكان يُرتِّب فى أول رمضان مطابخ لأنْواع الأطعمة للفقراء والمساكين ، ووقف وقفاً على تكفين أولاد الغرباء ، وبنى الجامع المعروف باسمه بالقاهرة ، ورمّم قلعة الجبل — وغير ذلك من الأعمال الجليلة التى خلّدت له جميلَ الذكر ، وحسن الأحدوثة .



١٠ — ماركونى

هو ذلك الرجل الذى يَحْمل هذا الاسم العظيم الذى يُدَوِّى صيتُه فى الآفاق ، ونردِّدُه بالإعجاب والتَّقدير والفَخار كلما اسْتَمَعْنا إلى اللاسلكى فى البر أو البحر أو الهواء .



وُلِدَ ماركونى[1] فى بولونيا بإيطاليا لستٍّ بقين من إبريل من عام أربع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية — من أب إيطالى ، وأم إيرلَنْدِيَّة ، وقد انْتظم فى سِلْكِ طلبة جامعة بولونيا ، وفيها تَلَقَّى علومَه ، ولقد

(١) Guglulmo-Marconi

شُغِفَ بدراسة علم الطبيعة أيّما شغَف فنهل من مَوْرِدها ، واشتدّ حرصهُ على المحاضرات فيها من أستاذها « ريغى[1] » ، ودأب على تفهّمها .

وكان ريغى — أستاذ الطبيعة — من العلماء الذين اهتمّوا بإتمام أبحاث العالم الألمانى « هرتز[2] » وبخاصة تلك الموجات الجديدة التى كانت من أجلّ مُكتشفَاته ، والتى كانت موضِع عِناية علماء الطبيعة فى مختلِف الجامعات ، ومعامل الأبحاث العلمية .

أُعجِب ماركونى بأبحاث أستاذه « ريغى » ومحاضراته فى هذه الموجات ، ورأى بثاقب نظره وبُعْد تفكيره إمكانَ إخراجِها من حَيِّز العلم إلى ساحة العمل ، واستِغلالها لصالح التجارة فى الاتّصال والمراسلات

عَزم ماركونى على استخدام هذه الموجات الجديدة فى البَرق اللاسلكى « التلغراف » فأعدّ جهازاً للإرسال ، وآخر للاستِقبال ، واتّخذ من أخيه مُساعِداً له ، ليَقِفَ عند جهاز الاستِقبال ، واختار مُزرعة أبيه لإجراء تجربته الأولى ، وجعل المسافة بين الجهازين غير طويلة ، وطلب من أخيه أن يَرْفع عَلَماً فى يده عند استِماع ثلاث أصوات متَتالِية ؛ هى ثلاث « نقطٍ » معبرة عن الحرف « S » فى تلغراف « مورس » فما أن دقّ ماركونى مِفتاح جهازه حتى رأى أخاه يَرْفعُ

---

(١) Anguato Reghi (٢) H. R. Hertz

العلم علامةَ الانتصار الأول ، فاستطار قلبه فرحاً ، وامتلأت نفسه سروراً ، وبدا البِشْرُ على وجهه أن تحققت فكرته ، واتفقت مع الحقيقة بعد أن كانت حُلماً يتذبذبُ فى عالم الخيال — وهكذا كان مولد اللاسلكى ، واستغلاله فى الناحية التجارية سنة ١٨٩٥ ، ولم يَعْدُ ماركونى العشرين من عمره .

كرّر التجربةَ ثانيةً على مسافة أطوَل من الأولى ، إذ جعل المسافة بين الجهازين ٢½ ك م ، ثم أعاد العمل فكان النجاح حليفَه ، فتأكد من تحقيق فكرته ، وبادر بعرضها على الحكومة الإيطالية فترددت فى قبولها .

ما كان ردُّ الحكومة لمشروعه وإباؤها قبولَه ليفلّ من عزيمته الوثّابة ، أو يَخضِد من طموحه الغلّاب ، فعرض الأمر على والدته ، فوجد من حسن مشورتها ، وحكيم تدبيرها خيرَ مُجَدِّدٍ لنشاطه ، وحافزٍ له على الدأب فى تنفيذ فكرته ؛ فقد نصحت له بالذهاب إلى انجلترا — حيث يُوجد أصدقاؤها العديدون — كى يُسَجِّل اختراعه هنالك .

فسافر الشابُّ إلى انجلترا يدفعُه الأملَ ، ويحدوه الرّجاء ، وهناك قابل « سير وليام[1] بريس » الرئيس الفنّى لمصلحة البريد البريطانية ،

---

(١) Sir W. Preece

وعَرَض عليه فكرتَه ، فصادفَتْ هوًى في نفسه ، ووقعت لديه موقعاً حسناً ، فبادر إلى مساعدته وتشجيعه ، وأوصى باختبار فكرته ، ومنحه كل ما يلزم لتسهيل مهمته ، وهكذا بسم القدرُ لماركونى بنجاح تجاربه واستخدام موجات اللاسلكى فى التخاطب بين الجهات النائية ، وسجل اختراعه عام ١٨٩٦ م فى انجلترا ، فخلد بذلك اسمه على صفحات التاريخ .

استمر ماركونى يواصل بحوثه فى نشاط يثير الإعجاب ، وجهاد يدعو إلى التقدير حتى تكشفت أمامه أسرارُ اللاسلكى وبدائعه ، فقد بدأه بموجاتٍ مضمحلة تتولد من الشرارات ، وأجهزة لم تصل بعدُ إلى درجة الإتقان التى هى عليها الآن ، واستعمل تلك الموجات فى البرق اللاسلكى فقط لمدى قصيرٍ . وبفضل جهاده ومثابرته استطاع إدخال التعديلات فى أجهزته الحالية واختراع أخرى ، حتى تعددت نواحى نشاط اللاسلكى من تلغراف إلى تليفون لاسلكى إلى إذاعة لاسلكية .

ولم يقف به البحثُ عند هذا الحد ، بل توصل بضوء عقله ، ونور بصيرته إلى استخدام اللاسلكى فى أعماق البحار فى الغواصات ، وفوق بساط الريح فى الطيارات ، وعلى ظهر البسيطة فى السيارات ،

وهكذا توالت الانتصارات ، وانتشرت محطّات الإذاعة حتى عمّت جميع الأرجاء

تلك هي آية العصر الحاضر ، ومُعجِزة ماركونى رسول المدنية ، التى تَبَوّأ بها مكانته العظيمة بين أفذاذ المخترعين ، ولقد صدق الجارم بك إذ يقول :

بالعِلْم ماركونى تَسلّق للعُلا   وعزيمة الوثّابة الطمّاح
اليومَ فِكْرَةُ عالِمٍ فى مَصْنَعٍ   تُغْنى عن الأَسْيافِ والأرْماح

١١ – أسطول المعزّ

قال أبو القاسم محمد بن هانئ الأندلسي المتوفى سنة ٣٦٢ هـ من قصيدة يمدح بها المعز لدين الله الفاطمي ويصف أسطوله وكان أقوى أسطول في البحر الأبيض المتوسط :

أما والجواري المنشآت التي سَرَتْ لقد ظاهرتها عُدَّةٌ وعديد
قباب كما تُزْجى القباب على المَهَا ولكن مَنْ ضُمَّتْ عليه أُسُودُ
ولله . مما لا يرون كتائبٌ مُسَوَّمة تحدو بها وجنودُ
أطاع لها أنّ الملائك خَلْفَها كما وقفت خلف الصفوف رُدُودُ
وأن الرياح الذاريات كتائب وأن النجوم الطالعاتِ سُعُودُ

* * *

وما راع مَلْك الروم إلا أطّلاعُها تُنشَّرُ أعلام لها وبُنُودُ
عليها غمام مُكْفَهِرٌ صبيره له بارقات جمة ورُعُودُ
مواخر في طامي العُبابِ كأنها لعزمك بأسٌ أو لكفك جُودُ
أنافت بها أعلامُها وسَما لها بناء على غير العَرَاء مَشيد
وليس بأعلى شاهق وهو كوكب وليس من الصُّفّاح وهو صَلُود

* * *

من الراسيات الشُم لولا انتقالها فَمِنها قِنان شُمَّخٌ وريود
من الطير إلا أنهن جوارحٌ فليس لها إلا النفوسَ مصيد
من القادحات النار تضْرَم للصَّلَى فليس لها يوم اللقاء خمود
إذا زَفَرت غيظاً ترامت بمارج كما شب من نار الجحيم وقود
فأنفاسهن الزافرات صواعق وأفواههن الحاميات حديد

١٢ — ابراهيم بن المهدى والمأمون

قال الواقدى : « كان إبراهيم بن المهدى قد ادعى الخلافة لنفسه بالرّىّ ، وأقام مالكها سنة وأحد عشر شهراً واثنى عشر يوماً ، وله أخبار كثيرة أحسنها عندى ما حكاه لى قال : لما دخل المأمون الرّىّ فى طلبي ، وجعل لمن أتاه بى مائة ألف درهم ، خِفت على نفسى وتحيرت فى أمرى ، فخرجت من دارى وقت الظهر ، وكان يوماً صائفاً ، وما أدرى أين أتوجه ، فوقفت فى شارع غير نافذ ، وقلت : « إنا لله وإنا إليه راجعون . إن عدت على أثرى يُرتاب فى أمرى . » فرأيت فى صدر الشارع عبداً أسود قائماً على باب دار ، فتقدمت إليه وقلت : « هل عندك موضع أُقيم فيه ساعة من نهار ؟ » فقال : « نعم » ، وفتح الباب ، فدخلت إلى بيت نظيف فيه حصُر وبُسُط ووسائد جلود إلا أنها نظيفة ، ثم أغلق الباب علىّ ومضى ، فتوهمته قد سمع الجِعالة فىّ ، وأنه خرج ليدلّ علىّ ، فبَقِيت على مثل النار ، فبينما إنا كذلك إذ أقبل حمال عليه كل ما يحتاج إليه ، من خبز ، ولحم ، وقدر جديدة ، وجرة نظيفة ، وكيزان جُدُد فحطّ عن الحمال ثم التفت إلىّ وقال : « جعلنى الله

فِداك ، أنا رجل حجّام ، وأنا أعلم أنك تتقرف منى لما أتولاه من معيشتى ، فشأنَك بما لم تقع عليه يد . »

« وكان بى حاجة إلى الطعام فطبخت لنفسى قِدرًا ما أذكر أنى أكلت مثلها ، فلما قضيت أرَبى من الطعام قال : « هل لك فى شراب فإنه يسلى الهم ؟ » فقلت : « ما أكره ذلك . » رغبة فى مؤانسته ، فأتى (بقطر ميز) جديد لم تمسه يد ، وجاءنى بدست شراب مطينة وقال لى : « روّق لنفسك . » فروقت شرابًا فى غاية الجودة ، وأحضر لى قَدحا جديداً وفاكهة وأبقالا مختلفة فى طُسوت نخار جدد ، ثم قال بعد ذلك : « أتأذن لى — جعلتُ فداءك — أن أقعد ناحية وآتى بشرابى فأشربه سرورًا بك . » فقلت له : « افعل . » فشربت وشرب ، ثم دخل إلى خِزانة له فأخرج عوداً مصفّحاً ثم قال : « يا سيدى ! ليس من قدرى أن أسألك فى الغناء ، ولكن قد وجبت على مروءتِك حرمتى ؛ فإن رأيت أن تشرف عبدك فلك علو الرأى . » فقلت : « ومن أين لك أنى أحسن الغناء . » فقال : « يا سبحان الله ! مولانا أشهر من ذلك ، أنت إبراهيم بن المهدى خليفتنا بالأمس ، الذى جعل المأمون لمن دله عليه مائة ألف درهم . » فلما قال ذلك عظم فى عينى ، وثبتت مروءته عندى ، فتناولت العود

وأصلحته وغنيت ، وقد مر بخاطرى فراق أهلى وولدى :

وعسى الذى أهدَى ليوسف أهلَه وأعزَّه فى السجن وهو أسـير
أن يستجيب لنا فيجمع شملنا واللهُ رب العالمين قـدير »

« فاستولى عليه الطرب المفرِط ، وطاب عيشه كثيراً ، ومن شدة طربه وسروره قال : « يا سيدى ! أتأذن لى أن أغَنى ما سنَح بخاطرى — وإن كنت من غير أهل هذه الصناعة . » فقلت : « هذا زيادة فى أدبك ومروءتك . » فأخذ العود وغنى ·

شكَونا إلى أحبابنا طولَ ليلنا فقالوا لنا : ما أقصرَ الليلَ عندنا
وذاك لأن النـوم يَغشى عيونهم سريعاً ولا يغشى لنا النوم أعيُنا
إذا ما دنا الليل المضربذى الهوى جزِعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثـل ما نلاقى لـكانوا فى المضاجع مثلَنـا

فوالله لقد أَحسست بالبيت قد سار بى ، وذهب عنى كل ما كان بى من الهلَع ، وسألته أن يغنى فغنى :

تُعـيِّرنا أنا قليـلٌ عديدنا فقلت لها إن الـكرام قليـل
وما ضرنا أنا قليـل وجارنا عزيز وجارُ الأكثرين ذليـل
وإنا لقومٌ لا نرى القتل سُبّة إذا ما رأته عامر وسَـلول
يقرِّب حبُّ الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطـول »

« فداخلنى من الطرب ما لا مزيد عليه إلى أن عاجلنى النومُ فلم أستيقظ إلا بعد المغرب ، فعاودنى فكرى فى نفاسة هذا الحجام وحسن أدبه وظرفه ، فقمت وغسلت وجهى وأيقظته . وأخذت خريطة كانت صُحبتى ، فيها دنانير لها قيمة ، فرميت بها إليه ، وقلت له : « استَودعتك الله ، فإنى ماضٍ من عندك ، وأسألك أن تصرف ما فى هذه الخريطة فى بعض مهماتك ، ولك عندى المزيد إن أمِنتُ من خوفى . » فأعادها على مُنكَّداً وقال : « يا سيدى ! إن الصعاليك منا لا قدر لهم عندكم ، أآخذ على ما وهبَنِيه الزمان من قربك وحلولك عندى ثمناً ؟ والله لئن راجعتنى فى ذلك لأقتلن نفسى . » فأعدت الخريطة إلى كُمى وقد أثقلنى حملها ، فلما انتهيت إلى باب داره قال لى : « يا سيدى ! إن هذا المكان أخفى لك من غيره ، وليس فى مُؤْنتك علىّ ثِقل ، فأقم عندى إلى أن يفرج الله عنك . » فرجعت وسألته أن ينفق من تلك الخريطة فلم يفعل ، فأقمت عنده أياماً على تلك الحالة فى ألذ عيش ، فتذممت من الإقامة فى مؤنته ، واحتشمت من التثقيل عليه ، فتركته ، وقد مضى يجدد لنا حالاً .

وقمت فتزييت بزى النساء بالُخف والنِّقاب وخرجت ، فلما صرت فى الطريق داخلنى من الخوف أمر شديد ، وجئت لأعبُر الجسر فإذا أنا بموضع مرشوش بماء ، فبصُرَ بى جندى ممن كان يخدُمنى ،

فعرفنى فقال : « هذه حاجة المأمون . » فتعلق بى . فدفعته هو وفرسه فرميتهما فى ذلك الزَّلَق ، فصار عِبرة ، وتبادر الناس إليه ، فاجتهدت فى المشى حتى قطعت الجسر ، ودخلت شارعاً فوجدت باب دار وامرأة واقفة فى دِهليز ، فقلت : « ياسيدة النساء ! اِحقنى دمى فإنى رجل خائف . » فقالت : « على الرحب . » وأطلعتنى إلى غرفة مفروشة ، وقدمت لى طعاماً ، وقالت : « لِيهدَأْ رَوْعك فما علم بك مخلوقٌ . » ، وإذا بالباب يُدَق دَقًّا عنيفاً ، فخرجَت وفتحت الباب وإذا بصاحبى الذى دفعته على الجسر وهو مَشْدوخ الرأس ، ودمه يجرى على ثيابه وليس معه فرس ، فقالت : « يا هذا ! ما دهاك ؟ » فقال : « ظفِرت بالمُغَنِّى وانفلت عنى . » فأخبرها بالحال ، فأخرجت خِرَقاً وعصَبته بها ، وفرشت له فنام عليلاً ، وطلعت إلىّ وقالت : « أظنك صاحب القصة . » فقلت : « نعم . »

فقالت : « لا بأس عليك . » ثم جددت لى الكرامة . وأقمت عندها ثلاثاً ثم قالت : « إنى خائفة عليك من هذا الرجل ، وأخشى أن يَنِمَّ بك ، فانج بنفسك . » فسألتها المهلة إلى الليل ففعلَت ، فلما دخل الليل لبست زِى النساء ، وخرجت من عندها ، فأتيت إلى بيت مَوْلاة كانت لنا ، فلما رأتنى بكت وتوجعت ، وحمِدت الله على سلامتى ، وخرجت كأنها

تريد السُّوق للاهتمام بالضيافة ، فظننت خيراً ، فما شعَرت إلا بإبراهيم الموصلى بنفسه فى خيله ورَجله ، والمولاة معه حتى سلمتنى إليه ، فرأيت الموت عِياناً ، وحُمِلت بالزى الذى أنا فيه إلى المأمون ، فجلس مجلساً عاما ، وأُدخلنى إليه ، فلما مَثَلتُ بين يديه سلمت عليه بالخلافة ، فقال : « لا سلامُ الله عليك ، ولا حياك ولا رعاك . » فقلت له : « على رِسْلك يا أمير المؤمنين ! إن ولىّ الثأر مُحَكّم فى القصاص والعفو أقرب للتقوى ، وقد جعلك الله فوق كل عفو ، كما جعل ذنبى فوق كل ذنب ، فإن تأخذ فبحقك ، وإن تعف فبفضلك . » ثم أنشدت :

ذنبى إليك عظيم ... وأنت أعظم منهُ
فخُذ بحقك أولا ... فاصفح بحلمك عنه
إن لم أكن فى فِعالى ... من الكرام فكُنه

فرفع إلىّ رأسه فبدرته وقلت :

أتيتُ ذنبًا عظيماً ... وأَنت للعفو أَهلُ
فإن عفوت فَمَنٌّ ... وإن جَزيت فعدل »

« فرقّ المأمون واستَرْوَحت روائح الرحمة من شمائله ، ثم أَقبل على ابنه العباس وأخيه أبى إسحق وجميع من حضر من خاصته ، فقال : « ما ترَوْن فى أمره ؟ » فكل أشار بقتلى إلا أنهم اختلفوا فى القِتلة

كيف تكون ، فقال المأمون لأحمد بن أبى خالد : « ما تقول يا أحمد ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين ! إن تقتله وجدنا مثلك قتل مثله ، وإن عفوت عنه لم نجد مثلك عفا عن مثله . » فنكس المأمون رأسه وجعل ينكت فى الأرض وأنشد متمثلاً :

قومى هم قتلوا أُمَيْمَ أخى ... فإذا رميتُ يصيبنى سَهْمى »

« فكشفت المِقْنعة عن رأسى ، وكبّرت تكبيرة عظيمة ، وقلت : «عفا — والله — عنى أمير المؤمنين. » فقال المأمون : «لا بأس عليك يا عمّ ! » فقلت : « ذنبى يا أمير المؤمنين أعظم من أن أتفوه معه بعذر ، وعفوك أعظم من أن أنطق معه بشكر ولكنى أقول :

إن الذى خلق المكارم حازها ... فى صُلب آدمَ للإمام السابع
مُلئت قلوبُ الناس منك مَهابةً ... وتظل تكلؤهم بقلب خاشع
ما إن عصيتُك والغُواة تمدنى ... أسبابهـا إلا بنيـة طائع
فعفوت عمّن لم يكُن عن مثله ... عفو ولم يشفَع إليك بشافع
ورحِمت أطفالاً كأفراخ القَطا ... وحنـين والدة بلُبٍّ جازع »

فقال المأمون : « لا تثريب عليك اليوم ، قد عفوت عنك ، ورددت عليك مالك وضياعك . » فقلت :

رددتِ مالى ولم تبخَل علىّ به ... وقبل ردك مالى قد حقَنتَ دمى

فلو بذلتُ دمى أبغى رضاك به ... والمالَ حتى أسُلّ النَّعل من قدمى

ما كان ذاك سوى عاريّة رجعَت ... إليك لو لم تُعِرها كنت لم تُلَمَ

فإن جحدتُك ما أوليتَ من كرم ... إنى إلى اللؤم أوْلى منك بالكرم

فقال المأمون : « إن من الكلام دُرًّا وهذا منه . » ، وخلع عليه وقال : « يا عم ! إن أبا إسحق والعباس أشارا بقتلك . » فقلت : « إنهما نصَحاك يا أمير المؤمنين ! ولكن أتيتَ بما أنت أهله ، ودفعتَ ما خِفتُ بما رجوتُ . » فقال المأمون : « أمتَّ حقدى بحياة عذرك ، وقد عفوت عنك ولم أُجَرِّعك مرارة امتنان الشافعين . » ثم سجد المأمون طويلاً ورفع رأسه وقال : « يا عم ! أتدرى لم سجدت ؟ » قلت : « شكرًا لله تعالى الذى أظفرَك بعدُو دولتك . » فقال : « ما أردت هذا ، ولكن شكراً لله الذى ألهمنى العفو عنك ، فحدثنى الآن حديثك . » فشرحت له صورة أمرى ، وما جرى لى مع الحجام ، والجند ، والمرأة ، والمولاة التى نمّت علىّ . فأمر المأمون بإحضارها وهى فى دارها تنتظر الجائزة ، فقال لها : « ما حملك على ما فعلت مع سيدك ؟ » فقالت : « الرغبة فى المال . » فقال لها : « هل لك ولد أو زوج ؟ » فقالت : « لا . » ، فأمر بضربها مائتى سوْط ، وخلّد

سجنها ، ثم قال : « أحضروا الجندى وامرأته والحجام . » فأحضروا ، فسأل الجندى عن السبب الذى حمله على ما فعل فقال : « الرغبة فى المال . » فقال المأمون : « أنت يجب أن تكُون حجاماً ، ووكّل به من يُلزمه الجلوس فى دكان الحجام لتعلُّم الحِجامة ، وأكرم زوجته وأدخلها إلى القصر وقال : « هذه امرأة عاقلة تصلح للمُهمات . » ثم قال للحجام : « لقد ظهر من مروءتك ما يوجب المبالغة فى إكرامك . » وسلم إليه دار الجندى بما فيها ، وخلع عليه ، وأنعم عليه برزقه وزيادة ألف دينار فى كل سنة ، ولم يزل فى تلك النعمة إلى أن مات . »

١٣ — عقبة على شاطىء المحيط

(١)

مَن القومُ أوغَلوا فى البيداء ، يجوبون سِيناء ، قد أغذّوا السير ، وأقلّوا المَيْر ؟

من القوم تسبح بهم الجمال فى لُجَج الرمال ، وتغوص منهم الأشباح والظّلال فى غمرات الآل ، تسيل بهم الهِضاب إلى الوِهاد ، وتفيض بهم الوهاد إلى الهضاب ، لا يَألون تأويباً وإدلاجاً ، ولا يشكون نَصباً ولا كلالا ؟

من القوم ترمى عزائِمُهم الغايات ، وتَطوى هممهم السبل ، سِيان عندهم البعيد والقريب ، والعسير واليسير ؟

من القوم تُضىء بالإيمان قلوبهم ، وتَقَرّ على اليقين نفوسهم . حُدَاؤهمُ القرآن وغناؤهم الأذان ، رِحالهم معابد ، ومنازلهم مساجد . قد شَرَوا فى سبيل الله أنفسهم ، وأرخصوا فى مَرضاته أرواحهم ، ورضُوا بما قَسم لهم ، وسايروا الشمس مُغرّبين ، لا تصدهم الأهوال ، ولا تستردّهم الأوطان ، كأنهم نجوم فى حُبُك الأرض تسير بقَدر إلى قدَر ؟

* * *

العرب المسلمون يقودهم عمرو ، يتوجّهون تِلقاء مصر . رمَوا الباطل

فى جانب ، وقصدوا إليه فى جانب ، وصَرعوه فى ميدان ، وهرعوا إلى ميدان . هدموا سلطان الروم فى الشام ، وصَمَدوا لسلطان الروم فى مصر وإفْرِيقِيَة .

بالأمس زحموا الصَّرح فانهار ، ونفخوا زُخرف قَيْصر فطار ، وأشاروا إلى الصنم فسجد ، وخلَّى جبروته إلى الأبد . وضعوا سلطان هِرَقل ، ورفعوا سلطان الله ، وأقاموا الحرية فى مَصارع العُبودية ، وشادوا العدل على مَقاتل الجَوْر .

واليوم يتبَعون الباطل المهزوم ، ويشرّدون الزور المَذْءوم ، إنهم يؤمّون مصر ، ومصر أكرم على الله من أن تكون مَباءة الباطل ، ومَثْوَى الجبروت . إنهم يُسرعون إلى مصر ، فعَفاءٌ على الروم وسلطانهم ، وَيْل للباطل يدمَغُه الحق ، والظلم يصمُد له العدل ، والاستعباد تثور به الحرية ، وَيل للروم يسير إليهم العرب

(٢)

أتَرى البحرَ المائج ، واللُّج الهائج ؟ أترى السفن على الثَّبَج راجِفة والجموع فوقها واجِفة ؟ أترى الموج يتلاطَم والسّفين يتصادم ، والجيوش ملتحِمة ، والخناجر والسيوف مُختصمة ؟ أترى جنداً يلوذون من حَرّ

الضّراب إلى برد الماء ، ومن ذُل الإسار إلى عار الفِرار ، وجُنْداً ثبّته اليقين فثَبت ، وآثر الموت على العار فظفِر ؟

واعجبا ! قد أصبح فُرسان الصحْراء أبطالَ الدَّأماء ، وصار حُداة الإبل أمراء السفن ، جاوزوا الكثبان البيض إلى اللُّجج الخُضر ، فاتخذوا السفين جِيادا ، والبحر مَرادا . وهل الإبل إلا سفُن الصحراء ؟ وهل السفن إلا أفراس الماء ؟ فما استبدل هؤلاء إلا سفينةً بسفينة ، وفرساً بفَرس .

وإنها على ذلك لإحدى العبر : أبناء البادية ينازلون الروم فى الأساطيل ، معاوية وابن أبى سرح يقاتلان قُسطنطينَ بنَ هِرقل ، وقد جاءهم فى سِتمائة سفينة ، تحمِل جند الروم وتاريخ الروم . وأعجب العجَب أَن يغلِب الأسطول الرضيع الأسطول المُكتهِل ! أن يغلِب ابن أَبى سفيان ابنَ هِرقل ! أَن يغلب العرب الروم فى بحر الروم !

(٣)

ما جزيرة العرب وفارس ، والشام ومصر؟ وما الهند والصين ، والمشرق والمغرب فى همة هذه الشمس الوهّاجة ، وعزيمة تلك الكواكب السيّارة ؟ قد استقَر سلطان القوم فى مصر فلم يقنَعوا ،

وها هم أولاء قد غزَوْا « بَرقة » ورجعوا . أتحسَب الأمد تطاوَل عليهم ، والشُّقة بعُدت بهم ، فملّوا أو خاروا ؟ تلبّثْ قليلا ، ثم انظر جيش العَبادلة يزحَف إلى إفريقية فيظفَر ثم يُصالح . وما وراء الحرب والسِّلم إلا المسيرُ لإعلاء كلمة الله ، وبلُوغُ الغاية مما أرادوا فى سبيل الله .

ويقف القوم سِنينَ . وما هو إلا اجِمام للسَّير ، والتحفُّز للوُثوب ، والإعداد للجهاد ، والتريُّث للتثبُّت . عمَّا قليل يَطوون المغرب ، لا تعوقهم الفيافِى المترامية ، ولا تصدهم الجيوش الجرّارة . تنظّر الغد ، فما بلغ القوم الأملَ الموعود ، ولا قاربوا الغاية المقدورة .

(٤)

عَشَرَةُ آلاف تَطوى الأوطان والقُطَّان فى سبيلها ، وتطأ الأهوال والأبطال إلى غايتها ، عشرة آلاف وفى النـــاس واحد كألف .

تجمّعَت فى فؤاده هِممٌ   ملءُ فؤاد الزّمان إحداها

عشرة آلاف قائدهم عُقبة بنُ نافع ، قد عزَموا ألا ينثَنوا ، وصمّموا ألا يُهزموا ، وآلوا ألا يَرجعوا ما اتّسع الفتح لعزائمهم ، وامتدت الأرض لأقدامهم .

ها هو ذا عُقبة يبنى مدينة القَيرَوان ، فِعل الغازىَ المعمِّر والفاتح المقيم . وسيجعلها مبدأ السير وأول الفَتح ، كأنهم ما قطعوا المَهامِهَ إليها ، ولا ساروا عن ديارهم قِبَلَها .

فى كل فَجّ عزمهم سيّار
إلى الوغَى تهافتوا وطاروا
جماعة ليس لهم دِيار
إلا ظهورُ الخيل والغبار

أَرض الله وعباد الله ، أين توجّهوا فهى أرضهم ، وحيثما حلّوا فهى ديارهم ، لا بُعد عندهم ولا قُرب ، ولا شرق ولا غرب .

« وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّه . » ولكن عشراتُ آلافٍ من الروم والإفريق قد ساروا إليهم ، لقد أعدّ الروم لهم ، وأزمَعوا أن يحطموهم ؛ فوارَحمتاه للأنجاد القليلين ، والغُرباء النّازحين .

كلا ؛ لا خوف ولا حزن ، ولا قِلّة ولا كثرة ، اُنظرهم يُديرونها على عدوهم حرباً طاحنة ، ويُلجئون الروم وأعوانهم من لظَى النار إلى سلاسل الإسار . ثم ألوف من الروم مصفَّدون . أترى الكثرة أغنَت ، أم ترى القلة قلت ؟ ذلك آخر عهد الروم بإفرِيقِيَةَ .

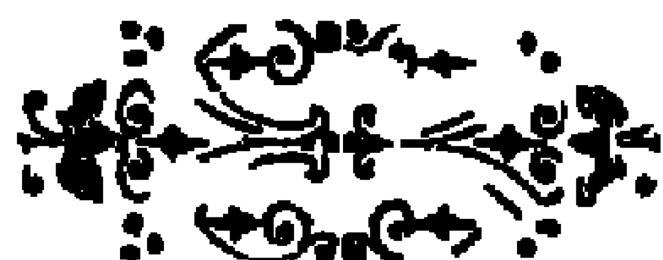
(٥)

أين الجنود البواسل ، والعبّاد الغزاة . والبُداة الذين خرجوا ينشُدون الحق ، ويردون الجبّارين إلى العدل ؟ إنهم ليسوا فى « برَقة » ولا « إفريقية » . . .

ها هم أولاء فى أقصى المغرب ! هم اليوم فى « طنجة » بل هم فى « السوس » . لقد انتَهوا إلى الساحل . لقد انتهت الأرض . واأسفاً للجواد المُتَمطِّر لا يجد مجالاً ! والعزم المُخْضِر لا يجد مضطَرباً . قد بلغوا البحر فكيف المسير ؟ وفتحوا ما بين المدينة المنوَّرة وبحر الظُّلمات ؟ فأنَّى الفتح ؟

اُنظر عُقبة تضيق بعَزمه الأرض ، وتصغُر فى عينه الأقطار ، فيدفَع جواده فى البحر ويصيح :

« والله لو علِمتُ وراءه أرضاً لسِرت غازياً فى سبيل الله . »



١٤ — وفود العرب على كسرى

حدث ابن القطاميّ عن الكلبيّ قال :

« قدِم النعمان بن المنذِر على كسرى ، وعنده وفود الروم والهند والصين ، فذكروا من ملوكهم وبلادهم . فافتخر النعمان بالعرب ، وفضّلهم على جميع الأمم ، لا يستثنى فارسَ ولا غيرها .

فقال كسرى — وأخذته عزة الملك — : « يا نُعمان ! لقد فكرتُ فى أمر العرب وغيرهم من الأمم ، ونظَرت فى حال من يَقْدَمُ علىّ من وفود الأمم ، فوجدت الروم لها حظا فى اجتماع أُلفتها ، وعِظم سلطانها ، وكثرة مدائنها ، ووثيق بُنيانها ، وأن لها دينا يبيّنُ حلالها وحرامها ، ويردُّ سفيهها ، ويقيم جاهلها .

ورأيت الهند نحواً من ذلك فى حِكمتها وطِبّها ، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها ، وعجيب صناعاتها ، وطيِّب أشجارها ، ودقيق حسابها وكثرة عددها . وكذلك الصّين فى اجتماعها ، وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها ، وهمّتها فى آلة الحرب وصناعة الحديد ، وأن لها مَلِكا يجمعها . والتّرك والخَزر — عَلَى ما بهم من سوء الحال فى المعَاش ، وقِلّة الريف والثمار والحصون ، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس — لهم ملوك تضُمّ قواصيَهم ، وتُدَبّر أمرهم . ولم أر للعرب

شيئًا من خِصال الخير، فى أمر دينٍ ولا دُنيا، ولا حَزْم ولا قوة . ومع أن مما يدل على مَهانتها وذُلِّها وصغَر همتها ، مَحِلَّتُهُمْ التى هم بها مع الوحوش النافرة والطير الحائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقَة ، ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة ، قد خرجوا من مَطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ، ولهوها ولذّاتها ، فأفضل طعام ظَفِر به ناعِمهم لحوم الإبل التى يَعافُها كثِير من السباع لثِقلها ، وسوء طعمها ، وخَوْف دائها . وإن قَرى أحدهم ضيفاً عدَّها مكرُمة ، وإن أطعم أَكلةً عدّها غنيمة ، تنطِق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم ما خلا هذه التّنوخية التى أسس جدّى اجتماعها ، وشَدَّ مملكتها ، ومنَعها من عدوِّها ؛ فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا . وإن لها — مع ذلك — آثاراً ولَبوساً ، وقُرى وحصوناً وأموراً تشبه بعض أمور الناس . (يعنى اليمن) . ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذِلّة والقِلة والبؤس ، حتى تفتخروا وتُريدوا أن تنزلوا فوقَ مَراتب الناس . »

قال النّعمان : « أصلح الله المَلك ! حقٌّ لأمةٍ الملكُ منها أن يسموَ فضلها ، ويعظم خَطبها ، وتعلو درجَتها ، إلاّ أن عندى جواباً فى كل ما نطق به الملك ، فى غير ردّ عليه ولا تكذيب له . فإن أمّنتى من غضبه ، نطقتُ به . » قال كسرى : « قل ، فأنت آمِن »

قال النعمان :

« أما أُمّتك — أيها الملك — فليست تُنَازَعُ فى الفضل ؛ لموضعها الذى هى به من عقولها وأحلامها ، وبسطة مَحلّها ، وبُحْبُوحَةِ عزها وما أكرمها الله به من وِلاية آبائك وولايتك . وأما الأمم التى ذكرت فأىّ أمة تقرِنها بالعرب إلا فضلَتها ؟ » قال كسرى : « بماذا ؟ » قال النعمان :

« بعزّها ومَنَعتها ، وحُسن وجوهها ، وبأسها ، وسخائها ، وحِكمة ألسنتها ، وشدة عقولها ، وأنَفتها ، ووفائها . »

« فأما عِزها ومَنعتها ، فإنها لم تَزل مُجاورة لآبائك الذين دوّخُوا البلاد ، ووطّدوا الملك ، وقادوا الجند ، ولم يطمع فيهم طامع ، ولم ينلهم نائل . حصونهم ظهور خَيلهم ، ومِهادهم الأرض ، وسُقوفهم السماء ، وجُنّتهم السيوف ، وعُدتهم الصبر ، إذ غيرها من الأمم إنما عِزّها الحجارة والطين وجزائر البحور . »

« وأما حسن وجوهها وألوانها ، فقد يُعرف فضلهم فى ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة ، والصين المُنْحَفَة ، والترك المشوّهة ، والروم المُقَشَّرَة . »

« وأما أنسابها وأحسابها ، فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها ، وكثيرًا من أوّلها ، حتى إن أحدهم ليُسأل عمّن وراء

أبيه دِنياً فلا ينسُبه ولا يعرفه . وليس أحد من العرب إلا يُسَمّى آباءه أبًا فأبًا ؛ أحاطوا بذلك أحسابهم ، وحفِظوا أنسابهم ؛ فلا يدخل رجل فى غير قومه ، ولا ينتسب إلى غير نَسبه ، ولا يُدْعَى إلى غير أبيه »

« وأما سخاؤها ، فإن أدناهم رجلاً تكون عنده البَكْرَةُ والنّاب عليها بلاغَهُ فى حُمُوله ، وشِبَعِهِ ورِيّهِ ، فيطرُقه الطارق الذى يكتفى بالفِلذة ، ويجتزِئُ بالشَّربة ؛ فيعقِرها له ، ويرضى أن يخرج عن دُنياه كلّها فيما يكسبه حُسن الأحدوثة ، وطيب الذكر. »

« وأمّا حِكمة ألسنتهم ، فإن الله تعالى أعطاهم فى أشعارهم ، ورَوْنق كلامهم وحسنه ووَزْنِهِ وقوافيه ، مع معرفتهم بالأشياء ، وضَربهم للأمثال ، وإبلاغهم فى الصِّفات — ما ليس لشىء من ألسنة الأجناس . ثم خَيلهم أفضل الخيل ، ونساؤهم أعفُّ النساء ، ولباسهم أفضل اللّباس ، ومعادِنهم الذهب والفِضة ، وحجارة جبالهم الجَزْع ، ومَطاياهم التى لا يُبْلَغُ على مثلها سَفَر ، ولا يُقْطَعُ بمثلها بلد قَفر . »

« وأما دِينها وشَريعتها فإنهم متمسكون به ، حتى يبلُغ أحدهم من نُسكه أن لهم أشهُرًا حُرمًا ، وبلدًا محرّمًا ، وبيتًا محجوجًا ، ينسُكون فيه مناسكَهم ، ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيَلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه ، وهو قادر على أخْذ ثأره ، وإدراك رَغْمِهِ منه ، فيحجُزه كرمه ، ويمنَعه دينه عن تناوله بأذى . »

« وأَما وفاؤها، فإن أحدهم يلحَظ اللحظة، ويومئ الإيماءة، فهي وَلْتٌ وعُقدة لا يحُلّها إلا خروج نفْسه. وإن أحدهم يرفع عوداً من الأرض فيكُون رهناً بدَيْنِهِ، فلا يَغْلَقُ رهنُه ولا تُخْفَرُ ذمته. وإن أحدهم ليبلغه أن رجلًا استَجار به، وعسى أن يكون نائياً عن داره فيُصاب، فلا يرضى حتى يُفنى تلك القبيلة التي أصابته أو تَفنَى قبيلته، لما أُخْفِرَ من جواره. وإنه ليلجأ إليهم المجرم المحدِث، من غير معرفة ولا قرابة، فتكُون أنفسهم دون نفسه، وأموالهم دون ماله. »

« أما قولك، أيها الملك: يئدون أولادهم؛ فإنما يفعله مَن يفعله منهم بالإناث أَنَفةً من العار، وغَيرةً من الأزواج. »

« وأما قولك: إن أفضل طعامهم لحوم الإبل، على ما وصفت منها، فما تركوا ما دونها إلا احتِقاراً له؛ فعمَدوا إلى أجلّها وأفضلها، فكانت مراكبهم وطعامهم، مع أنها أكْثر البهائم شحوماً، وأطيبها لحماً، وأرقّها ألباناً، وأقلها غائلة، وأحلاها مُضغةً. وإنه لا شيء من اللُّحمان يُعالَجَ ما يُعالَجَ به لحمها إلا استبان فَضلها عليه. »

« وأما تحارُبهم وأَكل بعضهم بعضاً، وتركهم الانقِياد لرجل يسوسُهم ويجمَعهم، فإنما يفعل ذلك مَن يفعله من الأمم، إذا أنِست من نفسها ضعفاً، وتخوّفت نهوض عدوّها إليها بالزحف.

وإنه إنما يكون فى المملكة العظيمة أهل بيت واحد ، يُعرف فضلهم على سائر غيرهم فيُلقون إليهم أمورهم ، وينقادون لهم بأزمّتهم . وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين ، مع أَنَفَتهم من أداء الخراج ، والوَطْث بالعَسف . »

« وأما اليَمَن التى وصفها الملك ، فإنَّما أتى جدَّ الملك الذى أتاه ، عند غَلبة الجيش له على مُلكٍ متّسِق ، وأمرٍ مجتمع ؛ فأتاه مسلوباً طريداً مستصرخاً قد تقاصر عن إيوانه ، وصغُر فى عينه ما شيّد من بنائه . ولولا ما وُتِرَ به مَن يليه من العرب ، لمال إلى مَجال ، ولوجد مَن يُجيد الطّعان ويغضَب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار . »

فعجِب كسرى لِما أجابه النعمان به ، وقال : « إنك لأهلٌ لموضعك من الرياسة فى أهل إقليمك ، ولما هو أفضل . » ثم كساه من كسوته وسرّحه إلى موضعه من الحيرة .

*
* *

فلما قدِم النعمان الحيرة ، وفى نفسه ما فيها ، مما سمع من كسرى من تنقُّص العرب ، وتَهجين أمرهم — بعث إلى أكثمَ بن صيفىّ ، وحاجبِ بن زُرارة التميميين ، وإلى الحرث بن عُباد ، وقيس بن مسعود البكريين ، وإلى خالد بن جعفر ، وعَلقمة بن عُلاثَةَ ، وعامر بن

الطُّفيل العامريِّن ، وإلى عمرو بن الشَّريد السُّلَمِيّ ، وعمرو بن مَعْدِيكَرِبَ الزَّبِيدى ، والحارِث بن ظالم المُرِّى . فلما قدِموا عليه فى الخَوَرنق ، قال لهم :

« قد عرفتم هذه الأعاجم ، وقُرب جِوار العرب منها . وقد سَمِعْتُ من كسرى مقالاتٍ تخوّفت أن يكون لها غَوْر ؛ أو يكون إنما أظهرَها لأمرٍ أراد أن يَتخذ به العرب خَوَلاً كبعض طَماطِمَته فى تأديتهم الخَراج إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله . » فاقتصَّ عليهم مقالاتِ كسرى ، وما رد عليه .

فقالوا : « أيها الملك ! وفّقَكَ الله ! ما أحسن ما ردَدت ! وأبلغ ما حجَجتَهُ به ! فمُرنا بأمرك ، وادْعُنا إلى مَا شئت . »

قال : « إنما أنا رجل منكم ، وإنما ملكتُ وعَززتُ بمكانكم ، وما يُتخوَّف من ناحيتكم . وليس شىء أحبَّ إلىَّ مما سدَّد الله به أمركم ، وأصلح به شأنكم ، وأدام به عِزكم . والرأى أن تسيروا بجماعتكم — أيها الرَّهط — وتنطلِقوا إلى كسرى . فإذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره ، ليعلمَ أن العرب على غير ما ظنَّ أو حدثته نفسه . ولا ينطِقْ رجل منكم بما يُغضبه ، فإنه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان ، مُترَف معجَب بنفسه . ولا تنخزلوا له انخزال الخاضع

الذليل . وَلْيكن أَمْرٌ بين ذلك تظهر به وَثاقة حُلومكم ، وفضل منزلتكم وعظيم أخطاركم . وَلْيَكُنْ أول من يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صَيفي لسَنِيِّ حَالِه ، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضَعتكم بها ؛ فإنما دعاني إلى التَّقدمة إليكم علمي بِمَيْل كل رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه . فلا يكونَنَّ ذلك منكم ، فيجدَ في آدابكم مَطعَنا ؛ فإنه مَلِك مترَف ، وقادر متسلِّط . »

ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائف حُلل الملوك ، لكل رجل منهم حلَّة ، وعَمَّمهُ عمامة ، وختَّمه بياقوتة . وأمر لكل رجل منهم بنجيبة مَهْرِيَّة وفرس نجيبة . وكتب معهم كتابا : « أما بعد : فإن الملك ألقى إليَّ من العرب ما قد علِم ، وأجبته بما قد فهِم . بما أحْببْتُ أن يكون منه على عِلم ، ولا يَتلَجْلجُ في نفسه أن أمة من الأمم التي احتَجزت دونه بمملكتها ، وحمتْ ما يليها بفضل قوتها ، تبلُغها في شيء من الأمور التي يتعزَّز بها ذَوُو الحزم والقوة والتَّدبير والمكيدة . وقد أوفدتُ — أيها الملك — رَهْطا من العرب لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم ، وعقولهم وآدابهم ؛ فَلْيسمع الملك ولْيُغْمِضْ عن جفاء ، إن ظهر من مَنطقهم ، وَلْيُكرمني بإكرامهم وتعجيل سراحهم ، وقد نسبتهم في أسفل كتابي هذا إلى عَشائرهم . »

فخرج القوم فى أُهبتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، فدفعوا إليه كتاب النّعمان ، فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مَجلساً يسمع منهم . فلما أنْ كان بعد ذلك بأيام ، أمر الرؤساء ووجوه أهل مملكته ، فحضروا وجلسوا على كراسىّ عن يمينه وشماله . ثم دعا بهم على الوِلاء والمراتب التى وصفهم النّعمان بها فى كتابه ، وأقام التّرجمان يؤدى إليه كلامَهم . ثمّ أذِنَ لهم فى الكلام .

فتكلم كل رجل بما حضَره ، وكسرى يسمع فيقبَل ما يُعجبه ، ويقوّم ما يراه معوجًّا ، حتى انتهَوا فقال :

« قد فهِمت ما نطقَت به خطباؤكم ، وتفنّن فيه مُتكلّموكم ، ولولا أنى أعلم أن الأدب لم يُثقّف أوَدَكم ، ولم يُحْكم أمركم ، وأنه ليس لكم ملِك يجمعكم فتنطقون عنده منطِق الرعيّة الخاضعة الباخِعة فنطقتُم بما استولى على ألسنتكمْ وغلَب على طباعكم — لم أُجزْ لكم كثيراً مما تكلّمتم به . وإنى لأكره أن أجبَهَ وفودى ، أو أُحنِق صدورهم . والذى أحبّ هو إصلاح مُدبِّركم ، وتألُّف شواذّكم ، والإعذار إلى الله فيما بينى وبينكم . وقد قبلتُ ما كان فى منطِقكم من صَواب ، وصفحتُ عما كان فيه من خَلل . فانصرفوا إلى مَلككم فأحسِنوا موَازرتَه ، والتزموا طاعته ، واردَعوا سفهاءكم ، وأقيموا أودَهُمْ ، وأحسِنوا أدبهم ، فإن فى ذلك صلاح العامّة . »

١٥ — اختلاف أحوال العمران فى الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من آثار

من مقدمة ابن خلدون

اعلم أَن الأقاليم ليس كلها يوجد بها الخصب . ولا كل سكانها فى رغَد من العيش ، بل فيها ما يوجد لأهله خِصب العيش من الحبوب والأُدْم ، والِحْنطه ، والفواكه : لزكاء المنابت ، واعتدال الطّينة ووفور العمران . وفيها الأرض الحَرّة التى لا تنبت زرعا ولا عشبا بالجملة ؛ فأهلها فى شظَف من العيش مثل أهل الحجاز ، واليمن ، ومثل الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال ، فيما بين البَرْبر والسودان ؛ فإن هؤلاء لا يَفقِدون الحبوب والأُدْم جملة ؛ وإنما أغذيتهم وأقواتهم الألبان وقليل من اللحوم ؛ ومثل العرب أيضاً الجائلين فى القِفار ، فإنهم وإن كانوا يأخذون الحبوب والأُدْم من التلول ، إلا أن ذلك فى الأحايين وعلى الإقلال ؛ لقلةِ وُجْدِهم ، فلا يتوصلون منه إلى سد الخَلة أو دونِها ، فضلاً عن الرّغد وَالخصب . وتجدهم يقتصرون فى غالب أحوالهم على الألبان ، وتعوّضهم عن الِحْنطة أحسن مُعاض وتجد — مع ذلك — هؤلاء الفاقدين للحبوب والأُدْم من أهل القِفار أحسن حالة فى جسومهم ، وأخلاقهم من المنغمسين فى العيش : فألوانهم أصفى ،

وأشكالهُم أتم وأحسن وأخلاقهم أبعد من الانحراف ، وأذهانهم أثقب فى المعارف والإدراكات . هذا أمر تشهد له التجربة فى كل جيل منهم .

والسبب فى ذلك — والله أعلم — أن كثرة الأغذية ورطوباتها تولّد فى الجسم فضلات رديئة ، ينشأ عنها بُعد أقطاره فى غير نسبة ، وكَثرةُ الأخلاط الفاسدة العفِنة ، ويتبع ذلك انكساف الألوان ، وقبح الأشكال من كثرة الغذاء كما قلناه . وتغطّى الرطوبات على الأذهان والأفكار بما يصعد إلى الدماغ من أبخرتها الرديئة ؛ فتجىء البلَادة والغفلة ، والانحراف عن الاعتدال بالجملة .

واعتبر ذلك فى حيوان القفر ، ومواطن الجدْب من الغزال والنعام ، والمها والزرافة والحمر الوحشية ، والبقر — مع أمثالها من حيوان الأرياف والمراعى الخصبة : كيف تجد بينها بَوْناً بعيداً فى صفاء أديمها ، وحسن رونقها وأشكالها ، وتناسُب أعضائها ، وحدّة مداركها : فالغزال أخو المعْز ، والزرافة أخو البعير ، والحمار والبقر أخوا الحمار والبقر . والبَوْن بينهما ما رأيت . وما ذلك إلا لأن الخِصب فى الأودية فعل فى أبدان هذه من الفضلات الرديئة ، والأَخْلاط الفاسدة

ما ظهر عليها أثره . والجوع لحيوان القفر حسّن فى خلقها وأشكالها ما شاء .

واعتَبِر ذلك فى الآدميّين أيضاً ؛ فإنّا نجد أهل الأقاليم المُخصبة العيش الكثيرة الزرع والضّرْع والأُدْم والفواكه ، يتصف أهلها غالباً بالبَلادة فى أذهانهم ، وعدم التناسب فى أجسامهم ، على عكس المتقشفين فى عيشهم ، المقتصرين على الشعير أو الذرة ، فتجد هؤلاء أحسنَ حالا فى عقولهم وجسومهم . . . .

واعلم أن أثر هذا الخصب فى البدن وأحواله ، يظهر حتى فى حال الدين والعبادة ؛ فتجد المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة ، ممّن يأخذ نفسه بالجوع والتجافى عن الملاذّ ، أحسن ديناً وإقبالاً على العبادة من أهل التّرف والخصب ؛ بل نجد أهل الدين قليلين فى المدن والأمصار ؛ لما يعمّها من القساوة والغفلة المتصلة بالإكثار من اللُّحمان والأُدم ولُباب البُر ، ويختص وجود العبّاد والزّهاد لذلك بالمتقشفين فى غذائهم من أهل البَوادى . وكذلك نجد هؤلاء المخصِبين فى العيش المنغمسين فى طيّباته من أهل الحواضر والأمصار — إذا نزلت بهم السِّنون ، وأخذتهم المجاعات — يُسرِع إليهم الهلاك أكثر من غيرهم ؛ مثلُ أهل مدينة فاس ومصر فيما يبلغنا ، لا مثل العرب

أهل القفر والصحراء ؛ فإن هؤلاء ، وإن أخذتهم السنون والمجاعات ، فلا تنال منهم ما تنال من أولئك ، ولا يكثُر فيهم الهلاك بالجوع بل ولا يندُر .

وما يتوهّمه بعض الناس من أن الجوع مهلك فليس على ما يتوهمونه ، إلا إذا حُملت النفسُ عليه دَفعةً ، وقُطع عنها الغذاء بالكلية ، فإنه حينئذ يحسم المِعَى ، وينا له المرض الذى يُخشى منه الهلاك . وإما إذا كان ذلك القَدر تدريجاً ورياضةً بإقلال الغذاء شيئاً فشيئاً كما يفعله المُتصوّفة ، فهو بمعزِل عن الهلاك .

وهذا التدريج ضرورى حتى فى الرجوع عن هذه الرياضة ، فإنه إذا رجع إلى الغذاء الأول دَفعة خيف عليه الهلاك ، وإنما يُرجَع به كما بدأ فى الرياضة بالتدريج .

واعلم أن الجوع أصلح للبدن من إكثار الأغذية بكل وجه . وأن له أثراً فى الأجسام والعقول — فى صفائها وصلاحها كما قلناه .



١٦ — لا غالبَ إلا الله

ذهبت البارحة إلى مسرح الحمراء فى لندرة . وقد سمى الأوربيون كثيراً من ملاهيهم باسم الحمراء ، بعد أن حرفوه إلى الهمبرا . سألت نفسى فى الطريق كيف حرف الاسم هذا التحريف ؟ فقالت : « إن الزمان ليطمس الأعيان ، ثم يذهب بالآثار ، فما إبقاؤه على الأسماء ؟ » أشفقت من هذا الحديث أن أتغلغل فيما وراءه من آلام وأحزان ، فقلت : « فيم الفرار من الكد والعناء إلى هذا اللهى — إن بدأتَ حديثه بالمراثى والمصائب ؟ »

أخذت مكانى بين الجالسين ، فسرّحت طرفى فى طراز عربى من البناء والنقش ، وإذا منظر يفتح لى من التاريخ لجاجا ملأى بالأهوال والعبر . لبثت أتأمل البناء متحرزاً أن أجتازه إلى ما وراءه من خطوب التاريخ ، وما زلت أُصوّب النظر وأصعّده فى المسرح حتى جَمَد البصر على دائرة فى ذروته ، لاحت فيها أحرف عربية ، فكنت وإياها غريبين فى هـذا الجمع « وكل غريب للغريب نسيب » بل كنت وإياها نَجِيَّيْنِ فى هذا الحفل ؛ لا يفهمُها غيرى ، ولا تأنس من الوجوه الحاشدة بغير وجهى . أجهـدت البصر الكليل فى قراءة الأحرف فإذا هى :

« لا غالب إلا الله »

يا ويلتاه ! شعار بنى الأحمر الذى حلوا به قصورهم ومساجدهم . ؟ إنها لسخرية أن توضع هذه الكلمة الجليلة فى هذا الملهى ! وأى جليل من ماضينا المجيد لم يتخذه القوم سخرية ؟ قرأت هذه الكلمة فإذا هى عنوان لكتاب من العبر ، قلبته صفحة صفحة ذاهلا عما حولى ، فلم أنتفع بنفسى فى مشهد اللهو واللعب ، ولم تُحِسّ أذنى الموسيقى والغناء . أغمضت عينى عن الحاضر لأفتحها على الماضى ، وصمّت الأذن عن ضوضاء المكان ، لِتُصِيخَ إلى حديث الزمان .

وناهيك بجولان الفكر طاويا الأعصار ، منتظما البوادى والأمصار ، واثبا من غيب التاريخ إلى الحاضر ، ومن الحاضر إلى غيب التاريخ .

شهدت فى ساعةٍ جيوش طارق غازية من « الزُّقاق » إلى « البرنات » . وشهدت مصرع عبد الرحمن الغافقى فى بلاط الشهداء . وشهدت جلاد الأجيال من المسلمين والأسبان . ورأيت عبد الرحمن الناصر فى حربه وسلمه ملء العين جلالاً ورهبة ، وملء القلب عدلا ورحمة . ورأيت البطل ابن أبى عامر يحالف الظَّفَرَ فى خمسين غزوة ، ويُبْعِد الثغار حيث نكصت الهمم والعزائم من قبل ، ورأيت دولة الأمويين تَزَلْزَلُ فتتصدع فتنهار . وأبصرت ملوك الطوائف يتنازعون البوار والعار ، ويؤدون الجزية إلى « الفونس السادس » صاغرين . ثم سمعت

جلبة جيوش المرابطين، يَقْدُمُها يوسف بن تاشْفين . وشهدت موقعة «الزّلاقة» القاهرة . ثم رأيت راية المرابطين تلتف رايات ملوك الطوائف . وهذه دولة الموحدين ، وهذا المنصور يعقوب بن يوسف فى موقعة « الأَرَك » يحطم جيوش الأسبان بعد « الزّلاقة » بمائة عام .

ورأيت موقعة « العِقاب » وقد دارت على المسلمين دوائرها ، والناصر بن يعقوب يفرّ بنفسه ، بعد أن اقتحمت عليه المنايا دائرة الحراس ، ورأيت « غرناطة » وحيدة فى الجزيرة يتيمة ، قد ذهبت أترابها وصارت كما قال طارق يوم الفتح : « أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام » ، ولكنها ، على العلّات ، ورثت مجد المسلمين وكبرياءهم ، فجالدت الدهر عن نفسها مائتين وخمسين عاماً ، وحمت حضارة المسلمين على رغم النوائب وكَلَب الأعداء   ثم رأيت أشراط الساعة : —

رأيت أبا الحسن بن الأحمر وأخاه محمداً يتنازعان السلطان . على مرأى من العدو ومسمع ، ورأيت أبا عبد الله ينازع أباه أبا الحسن ذلك الملك المائل ، كما تناطح الخراف فى حظيرة القصاب . وتلك جيوش « فرديناند وإيزابلا » تُنيخ على مدينة بعد أخرى ، وتدكّ معقلا بعد آخر ، و « مَالَقَةُ » تجاهد الكوارث جهاد المستميت . و «الزاجل» يشق الأهوال إليها لينقذها فيقطع أبو عبد الله طريقه ويرد جنده . « مالقة » فى قبضة العدو ، وأهلها

أسارى يباعون فى الأسواق ، ويتهاداهم الملوك والكبراء . وها هو ذا « الزاجل » يسلم « وادياش » إلى العدو على منحة من الأرض والمال ، ثم يعيا بأعباء المذلة والهوان ، فيهاجر إلى الغرب .

ثم شهدت يوم القيامة : الجيوش محيطة « بغَرناطة » ، وأهلها يغيرون على العدو جهد البطولة والاستبسال والصبر ، ثم يُغْلِقُ عليهم الضعف أبواب المدينة . وهذا الثامن من ربيع سنة سبع وتسعين وثمانمائة وأبو عبد الله يسير إلى « فرديناند » فى كوكبة من الفرسان ، لا محارباً ولا معاهداً ، ولكن ليسلم إليه مفاتيح الحمراء . نظرت الصليب الفضى الكبير يتلألأ على أبراج القلعة ، وبكيت مع أبى عبد الله وهو يودع معاهد المجد وملاعب الصبا من الحمراء وجنة العريف . وسمعت أمه عائشة تصرخ فى وجهه : « إبكِ اليوم كالنساء على ملك لم تَحتفظ به احتفاظ الرجال . » فينهلُّ دمعه ، وتتصاعد زفراته على الأكمة التى يسميها الأسبان اليوم « آخر زفرات العربى » . وأبو عبد الله هذا الذى باء بأوقار من العار والذل ، تأبى فيه بقية من الشمم العربى أن يقيم على الضيم فيهاجر إلى المغرب ، ويرسل إلى سلطان فاس من بنى وطاس رسالته الذليلة المسهبة ، يدفع عن نفسه ما قُرِفَ به فى عرضه ودينه ، ويشكو إلى السلطان حزنه وبثه ويقول :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم　　رعياً لما مِثْلُهُ يُرْعَى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن　　جار الزمان عليه جَوْرَ منتقم

ثقلت على رأسى وقلبي هـــذه الأحداث الكاربة ، والخطوب المتلاحقة ، وهالتنى هذه المشاهد المُفْظِعة ، وخرجت من هذه الغمرة مرتاعاً كما يستيقظ النائم عن حلم هائل .

نظرت أمامى فإذا المسرح ، وصعّدت بصرى فإذا الدائرة :

« لا غالب إلا الله . »

١٧ — الموسوعات العربية

مضى على العرب زمانٌ جاهليتهم وهم يتخبّطون فى بَوادى الجهالة ، ويَهيمون فى فَيافى الغَواية ، حتى أتى عليهم حينٌ من الدهر هبّوا فيه من غَفلتهم ، واستيقظوا من غفوتهم ، فجارَوا الأمم فى مَيدان الحضارة فسبقوهم ، وبارَوا الشّعوب فى مِضمار التقدم ففضَلوهم .

ثم ورَدوا حِياض المعارف على ظَمأ فنَهلوا منها وعلّوا ، وأخذوا عن الفُرس آدابهم وعن اليونان فلسفتهم ، واستَساغوا ذلك كله . ثم دخلوا الفنون من أبوابها ، فكان لهم منها الحظّ الأكبر ، والنصيب الأوفر .

وقد حفظوا معارفهم فى الصدور والسطور ، لأنهم علِموا لُزوم بقائها للخلَف ، فقيّدوا ما وصلت إليه مداركهم السّامية بعد البحث والاجتهاد فى بُطون الأوراق ، فأوفَوا على الغـاية وبلغوا النّهاية . وألّفوا الكتب الكثيرة فى اللغة والأدب والتاريخ والجغرافية ، بعد أن تَرجموا الفلسفة والمنطِق والفلَك والهندسة ، والسِّيَر والحِكم والحساب والنّجوم والأقاصيص . وما كاد يجىء القرن الرابع الهجرى حتى زخَرت بحار العلوم والفُنون ، وظهرت المؤلّفات ثم الموسوعات ، والموسوعة هى السِّفر الضخم الحافل بشتّى المسائل والعلوم ، المشتمل على كثير من فنون الأدب والبلاغة وغيرها فى عدة أجزاء .

ومن هذه الموسوعات: « نِهاية الأرب فى فنون الأدب »، فإنه سِفر كبير فى ثلاثين مُجلداً لشهاب الدين أحمـدَ النُّويرى المصرى المتوفى سنة ٧٣٢ من الهجرة ، ألفه فى زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون . وقد قال فى مقدّمته :

« ورغبت فى صناعة الآداب، وتعلّقت بأهدابها، وانتظمت فى سِلك أربابها. فامتطيتُ جواد المطالعة ، وركَضت فى ميدان المراجعة . وحيث ذَلّ لى مركبها ، وصفا لى مشربُها . آثرتُ أن أجرِّد منها كتاباً أستأنس به وأرجع إليه ، وأعوِّل فيما يَعرض لى من المهمّات عليه .

فاستخرتُ الله سبحانه وتعالى ، وأثبتُّ منها خمسة فنون ، حَسَنَةَ الترتيب ، بيّنة التقسيم والتبويب، كلُّ فن منها يحتوى على خمسة أقسام :

الفن الأول فى السماء والآثار العلوية ، والأرض والمعالم السُّفْلية . وفيه خلق السماء ، ووصف الملائكة ، والكواكب والسحاب ، والصواعق والنيّازِك ، والرعد والهواء. والنار والليالى والأيام ، والشهور والأعوام والفصول ، والمواسم والأعياد .

وقد اشتمل أيضاً على ما فى الأرض من الجبال والبحار ، والجزائر والأنهار ، والغُدران والعُيون .

كما شرح طبائع البلاد، وأخلاق سكانها وخَصائصها، والمبانى القديمة، والمعاقل والقصور والمنازل .

والفن الثانى : فى الإنسان وما يتعلق به ، ويشتمل على وَصف طبائعه وأعضائه وتشبيهها ، والغزَل والنسيب والمحبة والهوى والأنساب ، وعَلَى المشهور من أمثال العرب وأخبار الكهنة ، والزّجر والفَأل والطِّيرة ، والفِراسة والذكاء والأحاجىّ والألغاز . ثم المدح والهجو والمجون والفكاهات والمُلح والخمر ، والنُّدمان والقِيان ووصف آلات الطرب .

ويشتمل كذلك على بيان أحوال المَلِك وما يُشترط فيه ، وما يجب له على الرعيّة وما يجب للرعية عليه . ويتصل به ذِكرُ الوزراء وقادَة الجيوش ، وأوصاف السّلاح ، ووُلاة المناصب الدينيّة ، والكتّاب والبلغاء .

وخُصِّص الفن الثالث للحيوان . ففيه وَصف السباع وما يتصل بها من جِنسها ، كالأسد والنَّمِر والفهد ، والكلب والذّئب والضبعُ ، والثعلب والدب والهر والخنزير . ووصف الوحوش والظباء وما يتصل بها من جنسها ، كالفيل والكَرْكَدَّن والزرافة ، والمَهاةِ والإيَّل والحُمُر الوحشية ، والوَعل والظّبي والأرنب والنَّعام .

وجاء فى هذا الفن وصف الخيل والبغال والحمير، والإبل والبقر والغنم، ووصف الطير، كالنَّسر والرَّخَم والحِدأة، والغراب والدُّرّاج والحُبَارى، والطَّاوس والزُّرزورِ والسُّمَانَى، والعَقعق والعصافير.

والفن الرابع خاص بالنبات، وقد بيّن أصل النبات وما تختص به أرض دون أرض، ويتصل به ذِكر الأقوات، والخضراوات والبقولات. وأوضح فى الأشجار ما لثمره قِشرٌ لا يُؤكل، وما لثمره نَوًى لا يؤكل، وما ليس لثمره قشر ولا نَوًى. ثم الفواكه المختلفة، والرياض والأزهار، وما وُصفَتْ به نظماً ونثراً.

وجاء فى الفن الخامس التاريخ والقِصص والأخبار : ففيه بيان لمبدأ خَلق آدم وحَواء وأخبارهما، وأتبع هذا بقصص الأنبياء والمرسَلين، ثم بأخبار الملوك والطوائف، وخبر سيل العَرِم، ووقائع العرب فى الجاهلية، وأخبار المِلة الإسلامية، وذِكر شىء من سيرة نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) وأخبار الخلفاء من بعده (رضى الله عنهم).

وأخبار الدولة الأَموية، والعباسية والعَلوية، ودول ملُوك الإسلام وأخبارهم، وما فتح الله سبحانه وتعالى عليهم.»

هذا طرف مما اشتمل عليه هذا الكتاب المسمى « نهاية الأرب في فنون الأدب » وقد قال فيه مؤلفه : « وما أَوردتُ فيه إلا ما غَلَب على ظني أن النفوس تميل إليه ، وأن الخواطر تشتمل عليه . ولو علمت أَن فيه خطأً لقبضْتُ بَنانى ، وغَضضْتُ طَرْفى ، ولقد تبِعتُ فيه آثار الفُضلاء قبلى ، وسلكت منهَجهم فوصلت بحبالهم حَبلى . »

إلى أن قال : « والذى أدى إليه اجتهادى من تأليفه فقد أُصدَرته ، والذى وقَفتْ عنده غايتى فقد أورَدته . . . . وبالله سبحانه المستعان ، وعليه أتوكل وإليه أتضرع فى التيسير وأتوسل . »

ونورد هنا طرَفا من القطع الواردة بهذا الكتاب ، تَأييداً لما سبق ذكره .

(١) جاء فى وصف الشمس وتشبيهها وقد قابلت القمر قول الشاعر :

أَمَا تَرى الشَّمسَ وهْى طالِعةٌ تمنَعُ عناً إدامةَ النَّظر
حمراء صفراء فى تلوُّنِها كأنها تَشْتَكى من السَّهَر
مِثلُ عروسٍ غداةَ لَيلتِها تُمسِكُ مِرْآتَها من القمَر

وقال مُؤيّد الدين الطُّغرائىّ ، عفا الله عنه ورحمه :

وكأنما الشمسُ المنيرةُ إذْ بَدَتْ والبدرُ يَجْنَحُ للمَغيب وما غَرَبْ
مُتحاربانِ لِذَا مِجَنٌّ صاغَه مِن فضةٍ ولذا مِجَنٌّ من ذَهَبْ

(٢) مما ذكر في القمر على طريق الذم :

حُكى أن أعرابياً رأى رجُلاً يَرقُب الهِـلال ، فقالَ له : « ما ترقبُ فيه ، وفيه عيوبٌ لو كانت في الحمارِ لَرُدَّ بها ! » قال : « وما هي ؟ » فقال : « إنه يَهدِم العمرَ ، ويُقرّبُ الأجَل ، ويُحِلُّ الدَّين ، ويفضَح الطارِقَ ، ويَدُلُّ السارِقَ . »

« ومن عيوبه أن الإنسانَ إذا نام في ضوئه حدثَ في بَدَنِه نوعٌ من الاستِرخاء والكسل ، ويَهيج عليه الزُّكام والصّداع ؛ وإذا وُضعت لحوم الحيوانات مكشوفة في ضوئه ، تغيَّرت طُعومها وروائحها . »

(٣) ذكر ما قيل في وصف الليل وتشبيهه :

قد أكْثَر الشعراء في وصف الليل بالطُّول والقِصر ، وذكروا سببَ الطولِ الهمومَ ، وسببَ القِصَرِ السرورَ .

ولهذا أشار بعضُ الشعراء في قوله :

إن اللَّيـالىَ للأنامِ مناهلٌ   تطوَى وتنشَرُ بينها الأعمارُ
فقِصَارُهُنَّ مع الهمومِ طويلةٌ   وطِوَالُهُنَّ مع السُّرورِ قِصارُ

وقال بَشّار :

خَليلىَّ ما بالُ الدُّجَى لا يُزَحْزَحُ؟   وما بالُ ضوءِ الصبحِ لا يَتَوضَّحُ؟
أضَلَّ النهارُ المستنيرُ طريقَه   أم الدهرُ ليلٌ كلُّه ليس يَبْرَحُ؟

(٤) ذكر ما جاء فى نَهر النيل :

قد وصفَ بعض الشعراء النيلَ في طلوعِه وهبوطه ، فقال :

واهاً لِهذا النّيلِ أىُّ عجيبةٍ ... بِكْرٍ بمثلِ حديثِها لا يُسْمَعُ
يَلْقَ الثّرى فى العامِ وهو مُسَلِّمٌ ... حتى إذا ما مُلَّ عَادَ يُوَدِّعُ
مُسْتَقْبَلٌ مثل الهلالِ فَدَهْرَهُ ... أبداً يَزِيد كما يَزِيد ويَرْجِعُ

وهذا النهر مخالفٌ فى جَريه لسائرِ الأنهار ؛ لأنه يجرى مما يَلِي الجنوبَ مُستقبِلَ الشمال ، وكذلك نهرُ مِهْرانَ بالسِّنْد ، ونهرُ الأُرُنْط وهو نهر حِمْصَ وحمَاةَ ، ويُسَمّى العاصىَ لمخالفته للأنهارِ فى جَريها . وما عداها من الأنهارِ جَرْيُها من الشمال إلى الجنوب ؛ لارتفاع الشمال عن الجنوب وكثرة مياهه .

وهو أخفُّ المياهِ وأحلاها ، وأعمها نفعاً ، وأكثرُها خَراجاً .

(٥) ومما جاء فيه عن فضل مصر وما وُصفت به :

حكى أن أميرَ مصر وهو موسى بن عيسى الهاشمى (والى مصر فى أيام الرشيد سنة ١٧٥ هجرية) وقف بالميدان عند البركة ، فالتفت يميناً وشمالاً ، وقال لمن كان معهُ : « أتَرونَ ما أرى ؟ » قالوا : « وما يَرى الأمير ؟ » قال : « أرَى عجباً ما فى الدنيا مثلُه . » فقالوا : « يقولُ الأميرُ ! » فقال :

« أرى مَيدانَ رهانٍ ، وحيطانَ نخلٍ ، وبستانَ شَجرٍ ، ومنازلَ سُكْنى ، وذِروةَ جبل ، وجَبّانَةَ أموات ، ونهرًا عجّاجًا ، وأرض زَرْعٍ ، ومراعىَ ماشية ، ومراتِعَ خيل ، وساحِلَ بحر ، وشاطِئَ نهر ، وقانِصَ وحش ، وصائدَ سَمَك ، وملّاحَ سفينة ، وحادىَ إبل ، ومفازةَ رمْلٍ وسَهْلًا ، وجبلًا . فهذه ثمانية عشر متنزّهًا فى أقل من ميل فى ميل .

ولو أطلعت أيها القارئ على هذه الموسوعة لأُعجبتَ بما فيها ، وودِدتَ لو تقتنيها ، فهى تحفة ثمينة ، وذَخيرة نفيسة .

ومن الموسوعات القيمة كتاب « رسائل إخوان الصفا » وهو يشتمل على اثنتين وخمسين رسالة فى فنون العلم ، وطرائف الآداب ، وأنواع الحكمة وضعها فى القرن الرابع الهجرى طائفة من العلماء المشتغلين بالسياسة والفلسفة فى بغداد والبصرة ، منهم — على ما يقال — أبو سليمان محمد بن معشر البيستى ويعرف بالمقدسى ، وأبو الحسن على بن هرون الزنجانى ، وأبو أحمد المِهرجانى ، والعَوْفى ، وزيد بن رِفاعة .

وهذه الرسائل مقسومة أربعة أقسام : منها رياضية تعليمية ، ومنها طبيعية ، ومنها نَفسانية عقلية ، ومنها ناموسية إلٰهية .

فالرسائل الرياضية تبلغ أربعَ عشرةَ رسالة ، فى العدد وماهيته وكمِّيته وخَواصه ، وفى الهندسة ومَوضوعاتها . وفى النجوم والأفلاك والبروج

والكواكب ومعرفة تأثيراتها فى هذا العالم ، وفى الموسيقى والنَّغم والألحان ، وما لها من تأثيرات مُشجية ، وفى الصنائع العِلمية النظرية والصنائع العملية المِهنية . وفى بيان اختلاف الأخلاق وأسباب اختلافها وأنواع عللها . وَفى المنطِق وأَقاويل الفلاسفة فى مخاطباتهم وكتبهم وحُججهم وبراهينهم إلى غير ذلك .

والرسائل الطبعية تبلغ سبع عشر رسالة : فى الكون وأصوله الأربعة وهى : النار والهواء والماء والأرض ، وفى الآثار العُلوية وحوادث الجو ، وتغييرات الهواء والنور والظلمة ، والحر والبرد وتصاريف الرياح وفى كيفية تكوين المعادن فى باطن الأرض ، وفى ماهية الطبيعة الحيوانية والنباتية والمعدنية . وفى بيان طاقَة الإنسان فى المعارف ومَبلغه فى العلوم . وفى ماهية الموت والحياة والِحكمة فى الوجود فى الدنيا والعمل للآخرة .

والرسائل النفسانية العقلية التى تبين المبادئ العقلية والطبائع البشرية .

والرسائل الإلهية ، وتوضّح الآراء والمذاهب فى الديانات الشرعية ، وبيان اختلاف العلماء فى أقاويلهم ، وما أدّى إليه اجتهادهم من البحث والنظر والكشف عن الحقائق والأصول . وفيها بيان بأفعال الرُّوحانيين والجِن والملائكة المقرّبين والمرَدَة والشياطين ، وماهية السِّحر والعزائم والزّجر والفَأل والوهم والرُّقَى .

هذه المعلومات قد حَفِلت بهـا هذه الرسائل ، وبيَّنت حقائقها ملخَّصة مُستوفاةً مهذبة مُستَقاة ببراهينَ يقينية ، وبيّنات علمية ، وحُجج عقلية ، وشواهدَ قياسية .

ومَثَلُ أصحاب هذه الرسائل مع طالبي العلم كمثل رجل حكيم ، جَواد كريم ، له حديقة نَضْرة بهيجة طيِّبة الثمرات ، عطِرة الرياحين ، فيها فواكهِ وأوراد ، وأزهار مختلفة الأشكال والألوان والمذاق ، من رَطْب ويابس وحلو وحامِض ، وفيها الطيور المُطربة الأصوات المستحسنة التَّغريد ، وبها أنهار جارية وجداول مُنسابة . وهى فَرْحة كلّ نفس ، ونُزهة كل عين .

فأراد لـكَرم نفسه وسخاء سجيّته أن يدخُلها كل مستَحِق ويتمتع بها . فنادى فى الناس أن هلمُّوا وادخلوا هذه الحديقة ، وكُلوا من ثمارها ما اشتَهَيتم ، وتمتّعوا من رَياحينها ما اختَرتم ، وتفرّجوا كيف شئتم ، وتنزّهوا أين هوِيتم ، وكلوا واشربوا وتنعّموا ، واستَروِحوا بِطيبها . فلم يُجيبوا دَعْوته ، ولا التفَتوا إليه استِبعاداً لوصفه ، واستِنكاراً لـكلامه ، واستِغراباً لقوله .

فرأى الحـكيم من الرأى أَنْ وقف على باب الحديقة ، وأخرج مما فيها تُحفاً وطُرَفاً من كل ثمرة طَيبة ، وفاكهة لذيذة ، ورَيْحان زكِىّ ،

وورْد جنِيّ ، وَطير غرِد ، وشراب عَذْب . فكل مَن مرّ به عرضها عليه ، وذوّقه منها ، وحَباه بها ، وأشمّه من فوائح الرياحين ، وأسمعه من بدائع التّلحين ؛ حتى إذا ذاق وشَم ، وفرِح بما شاهد وطرِب منه ، وعلِم أنه قد وقف على جميع ما فى البستان ، ومالت إليه نفسه ، واشتاق إلى دخوله وتَمنّاه ، وقلِق إليه ولم يصبِر عنه ، قال له عند ذلك : « ادخل البستان وكل ما شئتَ واختَر ما شئت ، وانظر كيف شئت ، وتنزّه أين شئت ، وتلذّذ وتتطيّب وتنسّم . »

فكذلك ينبغى لمن حصلَت عنده هذه الرسائل ألا يضيّعها بوضعها فى غير أهلها ، وبَذْلها لمن لم يَرْغب فيها . ولا يُعرّفها إلا لكل حر خيّر سديد مبصر : من طالبي العلم ، ومُؤْثرى الأدب ، ومُحبّى الحِكم ؛ لاشتمالها على أمور فلسفية ، ومسائلَ كثيرة مختلفة ، لا يُدركها إلا مَن كان ذا بصيرة نافِذة ، وعقل ثاقب . وهى جِلاء ونور وشفاء ، بل هى كالغِذاء والضياء والضّياء ، فإن بالغذاء القوة والزيادة ، وبالضياء الإبصار والهِداية .

ونورد هنا مِثالاً مما كتب فى إحدى الرسائل الطبَعيّة :

واعلم – يا أخى – بأن الشمس من بين الكواكب كالملك ، وسائرَها كالأعوان والجنود ، فالقمر كالوزير ووليّ العهد ، وعُطارد كالكاتب ،

والمَرِّيخ كصاحب الجيش ، والمُشترى كالقاضى ، وزُحل كصاحب الخزائن ، والزُّهَرة كالجوارى والحرَم ، والأفلاك كالأقاليم ، والبروج كالبلدان ، والمَنازل كالدكاكين فى الأسواق ، والكواكب فى البروج كالأرواحِ فى الأجساد .

ثم اعلم أن الكوكب فى بيته كالرّجل فى بلَده وعَشيرته ، والكوكب فى غير حَيِّزه كالرجل فى حال مُنكَرة ، والكوكب فى هبوطه كالرجل الذليل المَهين ، والكوكب فى حضيضه كالرجل الوضيع الحال الساقط عن مَرتبته ، والكوكب البطىء السَّير كالرجل الضعيف الذاهب القوّة ، والكوكب المحترق كالمريض ، والكوكب الواقف كالمتحيِّر فى أمره ، وَالكوكَب فى التشريق كالرجل النشيط ، والكوكب فى التغريب كالهرِم . الخ .

والكتاب طويل مُفصَّل ، ويجدُر بطالب العلم والِحكمة أن يقرأه ويتدبَّر ما فيه ويعىَ ما به .

١٨ — من أمثـال العرب

١ — عند جُهَيْنَةَ الخبرُ اليقينُ

يضرب هذا المثل لمن يعرفُ الشيء معرفة حقّة لا ريب فيها ولا شكّ .

وأصله أن الْحصينَ بن عَمرو بن كِلاب ، خرج ومعه رجل من جُهَيْنة يقال له الأخنس بن كعب ، وكان الأخنس قد أحدث فى قومه حدَثاً ، فخرج هارباً ، فلقيه الْحصَين فقال له : « مَن أنت ؟ ثَكِلَتْك أمك » فقال له الأخنس : « بل مَن أنت ؟ ثكلتك أمك ! » فردّد هذا القول كل منهما ، ثم تعارفا وتعاقدا على ألاّ يلقَيا أحداً فى الطريق إلا سَلَباه ما معه ، وكلاهما فاتِك يحذَر صاحبَه ، فلقِيا رجلا فسلباه . فقال لهما : « هل لكما أن تردّا علىّ بعض ما أخذتما منى وأدلّكما على مَغْنَم ؟ » قالا : « نعم . » فقال : « هذا رجل من لخم قد قدِم من عند بعض الملوك بمغنَم كثير ، وهو خلفى فى موضع كذا وكذا . » فردّا عليه بعض ماله . وطلبا اللّخْمِىّ فوجداه نازلاً فى ظلّ شجرة ، وقُدامه طعام وشراب ، فحيَّياه وحياهما ، وعرض عليهما الطعام ، فأكلا وشربا مع اللّخمى . ثم إن الأخنس ذهب لبعض شأنه ، فرجع واللخمىّ يتشحّط فى دمه . فقال الْجُهَنىّ وهو الأخنس — وسلّ سيفه لأن سيف صاحبه كان مسلولا — : « ويحَك ! فتكت برجل قد تحرّمنا

بطعامه وشرابه . » فقال : « اقعد يا أخا جهينةَ ؛ فلهذا وشِبهه خرجنا . » فشربا ساعة وتحدّثا ، ثم إن الحصين قال : « يا أخا جهينة ! هل أنت للطّير زاجِر ؟ » قال : « وما ذاك ؟ » قال : « ما تقول هذه العُقابُ الكاسر ؟ »

قال الجُهَنِيُّ : « وأين تراها ؟ » قال : « هى ذِه » ، فتطاول ورفع رأسه إلى السماء ، فوضع الجهنىّ بادِرة السيف فى نَحره ، وقال : « أنا الزّاجر والنّاحر . » واحتوى على مُتاعه ومتاع اللّخمى ، وانصرف راجعاً إلى قومه ، فمر ببَطْنين من قَيس يقال لهما مِرَاح وأنمار ، فإذا هو بامرأةٍ تنشُد الُحصَين ، فقال لها : « من أنتِ ؟ » قالت : « أنا صَخْرة امرأة الُحصين . » قال : « أنا قتلتُه . » فقالت : « كذبتَ . ما مِثلك يقتل مثله . أمَا لو لم يكن الحىّ خِلْوًا ما تكلمتَ بهذا . » فانصرف إلى قومه ووقف حيث يُسمِعُهم ، وقال قصيدة منها :

كصَخْرةَ إذ تسائل فى مَرَاحٍ ... وأنمارٍ وعلْمُهُمَا ظُنونُ
تسائل عن حُصين كلّ رَكْب ... وعند جُهينةَ الخبرُ اليقينُ

٢ — كلّ الصيد فى جوف الفَرَا

يضرب هذا المثل فى الشىء الثمين يساوى عدة أشياء مختلفة والفرا الحمار الوحشى .

وأصل المثل أن ثلاثة نفَر خرجوا متصيِّدين ، فاصطاد أحدهم أرنباً ، والآخر ظَبياً ، والثالث حماراً وحشيا ، فاستبشر صاحب الأرنب وصاحب الظبي بما نالا ، وتطاولا على صاحبهما ، فقال الثالث : « كلُّ الصيد فى جوف الفَرا . » أى هذا الذى رُزقت وظفِرت به يشتمل على ما عندكما ، وذلك أنه ليس مما يَصيده الناس أعظم من الحمار الوحشيّ .

وتألَّف النبي (صلعم) أَبا سفيان بهذا القول حين استأذَن على النبي ، فحُجِبَ قليلاً ، ثم أُذِن له فلما دخل قال : « ما كدتَ تأذَنُ لى حتى تأذن لحجارة الجَلْهَمتين — هما جانبا الوادى — فقال (صلعم) : « يا أبا سُفيان ! أنت كما قيل : كلّ الصيد فى جَوف الفَرا . » ليتألَّفَه على الإسلام .

٣ — أطمع من أشْعب

هو رجل من أهل المدينة ، يقال له أشعب الطّماع ، وهو أَشعَب ابن جُبَير مولى عبد الله بن الزبير ، وكُنيته أبو العلاء ، سأل أَبو السَّمراء أَبا عُبيدةَ عن طَمعه ، فقال : « اجتمع عليه يوماً غِلمة من غِلمان المدينة يعابثونه ، وكان مزّاحا ظريفاً مُغنيا ، فآذاه الغلمة فقال لهم : « إن فى دار بنى فلان عرساً ، فانطلِقوا إلى ثَمّ ، فهو

أنفع لكم . » فانطلقوا وتركوه ، فلما مضَوا قال : « لعل الذى قلتُ من ذلك حَق . » فمضى فى أثَرهم نحو الموضع ، فلم يجد شيئاً ، وظفر به الغلمان هناك فآذوه .

وكانت عائشة بنت عثمانَ كفَلته ، وكفلت معه ابن أبى الزّناد ، فكان يقول أشعب : « تربّيت أنا وابن أَبى الزناد فى مكان واحد ، فكنتُ أسفُل ويعلو حتى بلغنا إلى ما ترَون . » وقيل لعائشة : « هل آنستِ من أشعبَ رُشداً فقالت : « سمِعته يخاطب رجلاً وقد ساومه قوس بُندق فقال : « بدينار » . فقال : « والله لو كنتُ إذا رميتُ عنها طائراً وقع مشوِيًّا بين رغيفين ما اشتريتها بدينار . » فأىّ رُشد يُؤنس منه ؟

قال مصعب بن الزبير : « خرج سالم بن عبد الله بن عمر إلى ناحية من نواحى المدينة هو وحرمه وجَواريه ، وبلغ أشعب الخبر ، فوافى الموضع الذى هم به يريد التطفل ، فصادف الباب مُغلقا ، فتسوّر الحائط ، فقال له سالم : « ويلك يا أشعب من بناتى وحَرمى ! » فقال : « لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد . » فوجه إليه من الطعام ما أكل ، وحمل إلى منزله . »

وقال أشعب : « وُهِب لى غلام ، فجئت إلى أمى بحمار موقور من كل شيء والغلام ، فقالت أمى : « ما هذا الغلام ؟ » فأشفقت

عليها من أن أقول : « وهب لى فتموت فرحا » فقلت : « وهب لى غَين . » فقالت : « وما غيْن؟ » قلت : « لام . » قالت : « وما لام ؟ » قلت : « ألف » قالت : « وما ألف ؟ » قلت : « ميم » قالت : « وما ميم » قلت : « وهب لى غلام » فغشى عليها فرحا ، ولو لم أقطِّع الحروف لماتت »

وقال له سالم بن عبد الله : « ما بلغ من طمعك ؟ » قال : « ما نظرت قطُّ إلى اثنين فى جنازة يتساران ، إلا قدَّرت أن الميت قد أوصى لى من ماله بشىء ، وما أدْخَل أحد يده فى كمه إلا أظنه يعطينى شيئاً . » وبلغ من طمعه ، أنه مرّ برجل يعمل طبقاً فقال : « أحب أن تزيد فيه طوقاً . » قال : « ولم ؟ » قال : « عسى أن يُهدى إلىّ فيه شىء . »

٤ - أحلم من الأحنف

هو الأحنف بن قَيس ، وكُنيته أبو بحر ، واسمه صخر ، من بنى تميم ، وكان فى رجله حَنَفٌ وهو الاعوجاج ، وكانت أمه ترقِّصه وهو صغير وتقول :

« والله لولا ضعفه من هزله وحَنَفٌ أو دِقّة فى رجله »
« ما كان فى صِبيانكم من مثله »

وكان حليما موصوفاً بذلك ، حكيما معترفاً له به : فمن حلمه أنه أشرف عليه رجل وهو يعالج قِدراً له يطبخها ، فقال الرجل :

وقِدر ككف القرد لا مستعيرُها يُعار ولا من يأتِها يتدسّم

فقيل ذلك للأحنف ، فقال : « يرحمه الله ، لو شاء لقال أحسن من هذا . » وقال : « ما أحب أن يكون لى بنصيبي من الذل حُمر النَّعم . » فقيل له : « أنت أعزّ العرب . » فقال : « إن الناس يرون الحلم ذلا . » وكان يقول : « رُبَّ غَيْظٍ قد تجرَّعتهُ مخافَةَ ما هو أَشدُّ منه . » وكان يقول : « كثرة المزاح تذهب بالهيبة ، ومَن أكثر من شيء عُرف به . والسُّودَدُ كرم الأخلاق وحسن الفعل . » وقال : « ثلاث ما أقولهن إلا ليعتبر مُعتبر، لا أَخْلُفُ جَليسى بغير ما أَحْضُره به ، ولا أُدخل نفسى فيما لا مدخل لى فيه ، ولا آتى السلطان أو يرسلَ إلىّ » وقال له رجل : « يا أبا بحر ! دُلَّنى على مَحمدة بغير مَرْزِئة . » قال : « الخلق السَّجيح ، والكفُّ عن القبيح ، واعلم أن أدوأ الدواء اللسان البذِئ والخلق الردئ » وأبلغ رجل مُصعباً عن رجل شيئًا ، فأتاه الرجل يعتذر ، فقال مصعب : « الذى بلَّغنيه ثِقة . » فقال الأحنف : « كلا أيها الأمير ! فإن الثّقة لا يُبلِّغ . » وسئل : « هل رأيت أحلم منك ؟ » قال : « نعم ، وتعلَّمتُ منه الحلم . » قيل : « ومن هو ؟ » قال : « قيس بن عاصم المَنقرِىُّ ، حضَرته يوماً ، وهو مُحْتَبٍ يحدثنا . إذ جاءوا بابن له قتيلٍ ، وابن عم له كتيف . فقالوا : « إن هذا قتل ابنك هذا . » فلم يقطع حديثه ، ولا نقض حَبْوته حتى إذا فرغ من الحديث التفت إليهم فقال : « أين ابنى فلان ؟ »

فجاءه فقال : « يابنىّ ! قم إلى ابن عمك فاطلقه ، وإلى أخيك فادفنه ، وإلى أم القتيل فأعطها مائةَ ناقة ؛ فإنها غريبة ، لعلها تسلو عنه . » ثم اتكأ على شِقِّه الأيسر وأنشأ يقول :

إنى امرؤٌ لا يعترى خلُقى دنَس يُفنِّــــده ولا أُفَن
من مَنقرٍ من بيت مكْرُمَةٍ وَالغصن ينبُت حوله الغصن
خُطباء حين يقوم قائِلهم بيض الوجوه مصاقِع لُسن
لا يفطنون لعيب جارهم وهم لحسن جِواره فُطن . »

٥ — جوِّع كَلْبك يَتْبَعْك

هذا المثل يُضرب فى معاشرة اللئام ، وما ينبغى أن يُعاملوا به . وَأول من قال ذلك ملك من ملوك حِمْير ، كان عنيفاً على أهل مملكته يغصِبهم أموالهم ، ويسلُبهم ما فى أيديهم . وكانت الكَهنة تخبره أنهم سيقتلونه فلا يحفِل بذلك . ويُقال إن امرأته سمعت أصوات السُّؤّال فقالت : « إنى لأرحَم هؤلاء لما يَلقون من الجهد ونحن فى العيش الرغْدِ ، وإنى لأخاف عليك أن يصيروا سِباعاً وقد كانوا لنا أَتْباعاً. » فرد عليها : « جوِّعْ كلبك يتبعْك . » وأرسلها مثلا ، فلبِث بذلك زمانا ثم أغزاهم فغنِموا ولم يُعطهم شيئا ، فلما خرجوا من عنده قالوا لأخيه وهو أميرهم : « قد ترى ما نحن فيه من الجَهد ، ونحن نكره خروج

المُلك منكم — أهل البيت — إلى غيركم ، فساعدنا على قتل أخيك واجلس مكانه . » وكان قد عرَف بغيه واعتداءه عليهم ، فأجابهم إلى ذلك ، فوثبوا عليه فقتلوه ، فمر به عامر بن جَذيمة وهو مقتول وقد سمع بقوله : « جوِّع كلبك يتبعْك . » فقال : « ربّما أكل الكلبُ مُؤَدِّبَه إذا لم ينل شِبَعَه . » فأرسلها مثلا .

٦ — عِند الصباحِ يَحمَد القومُ السُّرَى

إن أول مَن قال ذلك خالد بن الوليد ، بعث إليه أبو بكرٍ رضى الله عنهما وهو بالعراق ، أن سِرْ إلى الشام ، فأراد سلوك المفازة ، فقال له رافع الطائىّ : « قد سلكتها فى الجاهلية وهى خَمْسٌ للإبل الواردة بعد شُربها ، ولا أظنك تقدِر عليها إلا أن تَحْمِل من الماء » فسلك المفازة حتى إذا مضى يومان ، وخاف العطش على الناس والخيل ، نحر الإبل التى كان روّاها ، واستخرج ما فى بطونها من الماء . فسقى الناس والخيل ومضى فلما كان فى الليلة الرابعة قال رافع : « انظروا هل ترَون على مدى البصر سِدْراً — والسدر شجرة النَّبْق — فإن رأيتُموها وإلا فهو الهلاكُ . » فنظر الناس فرأوا السِّدر ، فأخبروه فكبّر وكبّر الناس ، ثم هجموا على الماء وكان معهم فى الشوارف ، فقال خالد :

عند الصباح يَحْمَدُ القومُ السُّرى   وتنجلي عنهم غَيابات الكَرَى

ويُضْرَبُ للرجل يحتمِل المشقة رجاء الرّاحة ، والسُّرى السير ليلا .

٧ — مواعيدُ عُرقُوب

قال أَبو عُبيدةَ : « هُو رجل من العَماليق ، أتاه أَخ له يسأله ، فقال له عرقوب : « إذا أطلَعت هذه النَّخلة فلك طَلْعها . » فلما أطلعت أتاه كوعده فقال : « دعْها حتى تصير بلحاً . » فلما أبلحت قال : « دعها حتى تصير زَهْواً . » فلما زهت قال : « دعها حتى تصير رُطَباً . » فلما أرطَبت قال : « دعها حتى تصير تَمْراً . » فلما أتمرت عمَد إليها عُرقوب من الليل ، فقطعها ولم يُعط أخاه شيئاً ، فصار مثَلاً في الْخلف ، وفيه يقول الأَشجعيّ :

وعدتَ وكان الْخُلْف منك سجيّة   مواعيد عُرقوب أخاه بيثرِب

قال آخر :

وأكذب من عُرقوب يَثرِبَ لَهجةً   وأبْيَنُ شُؤْماً في الحوائج من زُحَل »



١٩ — قصـــة المُبرِقة

منذا الذى لم يسمع بمورس ، ومنذا الذى لم يسمع بالنقطة والشرطة اللتين اتخذهما مورس أساساً ، وجعل منهما رموزاً للحروف الأبجدية والأرقام وغيرها ؛ فرمز لحرف الألف مثلاً بنقطة وشرطة ، وللباء بشرطة وثلاث نقط ، كما رمز للرقم « خمسة » بخمس نقط وهلم جرا .

وكيف لا نسمع به وهذه طَرْقات مبرقته تهتف باسمه آناء الليل وأطراف النهار .

بدأ مورس حياته فنانا عظيما ، ويكفيه فخراً فى هذا المضمار أنه مؤسس معهد الرسم الأهلى فى نيويورك ، وقد تلقى أُصول دراسة هذا الفن فى أوربا . وبينما هو عائد إلى بلاده سنة ١٨٣٢ خطر له أول خاطر فى المبرقة ، فلم يكد يستقر به المقام فى وطنه حتى عزم على بناء أول مبرقة ، ولكنه — إذ ذاك — كان يعوزه المال لإنفاذ عمله ، وعرْضه على الناس . فاضطر إلى الانتظار ، وفى الوقت نفسه أخذ يعمل على دخال التحسينات فى تركيبه .

وفى سنة ١٨٣٧ تَسنَّى له أن يعرضه على الناس فى جامعة نيويورك، فأرسل أمامهم الإشارات البرقية إلى مسافة ١٧٠٠ قدم، ونجح فى ذلك نجاحا أثار الإعجاب، فمنحه مجلس الأمة الأمريكى ٣٠,٠٠٠ « ريال » .

وفى سنة ١٨٤٤ استطاع إنشاء أول خط برقى بين وشنجتن وبلتيمور ذاع صيت مورس، واشتهرت فكرته، فذاعت مبرقته فى إنجلترا وأوربا وأمريكا، وما زال يدخل عليها من ضروب التجديد والتحسين حتى استطاع فى سنة ١٨٥٠ أن يرسل الرسائل البرقية إلى مسافة مئات الأميال .

الخطوط البحـــرية

فكر العلماء فى مد أسلاك المبرقة إلى جميع أنحاء المعمورة، لكى ترتبط القارات والممالك بعضها بالبعض الآخر، ويسهل بذلك الاتصال بينها ولكن كيف يتسنى لهم ذلك، وهذه البحار والمحيطات لا تزال أمامهم تحول دون بغيتهم . وبينما هم فى تفكيرهم إذ قرع آذانهم قول نابليون الإمبراطور: «ليس فى قاموس الحياة كلمة : مستحيل»، فبدءوا فى محاولتهم للتغلب على هذه الصعوبة، وأجروا التجارب فى مسافات قصيرة لتذليلها، فأسفرت عن النجاح التام، فمُدّ خط بحرى ما بين ساحلى المانش سنة ١٨٤٥ . وفى سنة ١٨٥١ أنشىء خط بحرى دائم بين دوفر وكاليه .

ولما أثمرت هذه الجهود ثمرتها المرجُوّة ، تطلعت الشركات إلى مد خط بحرى بين أمريكا وأوربا تحت سطح المحيط الأطلسى ، وكان ذلك فى سنة ١٨٥٧ وهو مشروع عظيم ، يحتاج إلى تدبير محكم ، وأموال طائلة ، وناهيك بما يتطلبه وضع أسلاك غليظة فى قرار المحيط على عمق عدة أميال من السطح من جهد ، وما يحتاج إليه من مال وتفكير وتدبير . ولذلك تكونت شركة عظيمة للقيام بأعبائه، وما إن بدأت عملها حتى اعترضتها صعوبات فنية كثيرة اضطرتها إلى الالتجاء إلى العلماء ، والاستعانة بسديد آرائهم أملا فى تذليل تلك الصعاب

وكان ممن التجأت إليهم الشركة ، وقام بقسط وافر من هذا العمل وليم[1] توموسون الذى أطلق عليه فيما بعده لورد كلفن[2] «(١٨٢٤ — ١٩٠٧).

كان والد كلفن أستاذاً للرياضة فى جامعة جلاسجو ، وقد انتظم كلفن فى سلك تلك الجامعة أيضاً ، ودرس بها الرياضة ، ثم التحق بعد ذلك بجامعة كمبردج ، وأظهر فيها كفاية عظيمة ، ونبوغاً فائقاً فمنحته جائزة مالية اعترافاً بنبوغه وتفوقه . وقد عين استاذاً للفلسفة الطبيعية بجامعة جلاسجو ، فأظهر فيها نبوغاً فذاً ، وألمعية نادرة وشغف بأبحاث الكهربية والمبرقة حتى ذاع صيته فيها ، فرأت الشركة أن تستعين به فى تذليل الصعاب التى اعترضتها .

(1) William Thomson

عُرِفَ « كلفن » بنظره الثاقب ، وتمكنه من الطبيعة والرياضة ، وغير ذلك مما جعله دقيقاً بالغاً الغاية فى الدقة ، موفقاً إلى أعظم درجات التوفيق . وقد استطاع بمقدرته الفنية والرياضية التغلب على كثير من المعضلات الهندسية .

أخذ « كلفن » يدرس هذا المشروع دراسة نظرية عميقة ، فأشار بجعل السلك البحرى ثخيناً ، حتى تقل مقاومته للتيار الكهربى ، وأن يغطى بطبقة ثخينة أيضاً من مادة عازلة للغرض ذاته .

وفى سنة ١٨٥٧ بدأ فى تنفيذ المشروع ، فلم يكد يتم منه ثمانين وثلثمائة ميل حتى قُطع السلك فجأة ، وكان على ظهر الباخرة يراقب العمل ، فوضحت له بعض العيوب فى طريقة مدّ السلك ، فحفزه هذا إلى زيادة التعمق والبحث فى دراسة الموضوع ، والاستزادة من هذه الدراسة للتغلب على ما يجِدُّ من صعاب .

واصلت الشركة عملها فى مد الخط مسترشدة بآراء كلفن ، مهتدية بأفكاره ، وفى ٨ من أغسطس سنة ١٨٥٨ تم اتصال إنجلترا بأمريكا . وقد افتتح الخط رئيس الولايات المتحدة إذ ذاك ، وأرسل أول إشارة برقية ، وقال : « أرجو أن تكون المبرقة ببركة الله رابطة السلام والصداقة بين البلدين . »

وفى عام ١٨٦٥ تكونت الشركة الشرقية الكبرى، وحصلت على امتياز مد الخط البحرى بين إرلندا وكندا . وقد كانت أبحاث كلفن خير مساعد على إتمام المشروع بنجاح .

وما زال « كلفن » جاداً فى بحوثه حتى توصل إلى اختراع جهاز أعانه على زيادة سرعة الإشارات ؛ إذ استطاع به زيادة السرعة إلى خمس وعشرين كلمة فى الدقيقة بعد أن كانت كلمة أو كلمتين .

٢٠ — الغناء فى عهد الامويين

الغناء قديمٌ فى الفرس والروم ، ولم يَكُن للعرب فى جاهليّتها غير الُحداء والنَّشيد ، ولم يُعرَف عنها فى ذلك العهد أنها تُغنّى بغير الشعر ، وكان نشيدها يسمى الرُّكْبانىّ .

وأول من نَقَل الَّلحن العجمى إلى اللسان العربى من أهل مكة سعيدُ بن مِسْجَح ، مولى بنى جُمَح . وكان فى صباه فِطِناً ذَكيًّا يُعجَب به مولاه ، ويقول : « ليكُونن لهذا الغلام شأن ، وما يَمنَعُنى من عتقه إلا حسن فِراستى فيه ، ولئن عِشْتُ لأتَعرَّفنَّ ذلك ، وإن مت قبله فهو حُر . »

سمعه يوماً يُغَنّى بشعر عدىّ بن الرِّقاع العامِلىّ

أَلِمْ على طَلَلٍ عفا مُتَقَادِمٍ   بين الَّكيكِ وبين غَيْب النَّاعِمِ
لولا الحياء وأن رأسىَ قد عثا   فيه المشيبُ لزُرت أُمّ القاسم

فدعاه وقال له : « أعِدْ يا بنى ! » فأعاده فإذا هو أحسن مما ابْتدأ به . فقال له : « أنى لك هذا ؟ » قال :

« سمعت هذه الأَعاجم تُغنّى بالفارسيّة بنغم أعْجَبنى فغنَّيته فى هذا الشعر . » فقال له : « أنت حر لوجه الله . » فلزم مولاه ، وكثر أدبه ، واتّسع فى غنائه ، ومَهَر بمكة ، وأُعْجِب به كلُّ من سمعه ، فدفع إليه مولاه عُبيدَ بن سُرَيْجٍ وقال : « يا بنىّ علّمه . » . وكان ابن سُرَيج من أحسن الناس صوتاً فتعلَّم منه ثم برّز عليه .

ومن قديم غِناء ابن مِسْجَح الذى صنعه على الألحان الفارسية ما غنى به من شعر الأحْوَص وهو

أسَلامُ إنكِ قد مَلكْتِ فَأسْجِحِي ... قد يَمِلكُ الحرُّ الكَريمُ فيُسْجِحِ
مُنِّى على عانٍ أطَلْتِ عَناءه ... فى الغُلِّ عندك والعُناةُ تُسَرَّحُ
إنِّى لأنْصَحُكم وأعلمُ أنّه ... سيّانِ عندك من يغُشُّ ويَنْصَح
وإذا شكوْتُ إلى سلامَة حُبَّها ... قالت : « أجِدٌّ منك ذا أمْ تمْزَحُ ؟ »

وأول من نقل الألحان الفارسية إلى اللسان العربىّ من أهل المدينة سائبُ خاثر . وعنه أخذت جارية تُسمى جميلَة ، كانت تسكن بجوار داره ، فقتبست بعض ألحانه وبنَتْ عليها فأبْدعَت ، وأخذ عنها مَعْبد ، وابن عائشة ، وحَبابة ، وسلَامةُ القَسِّ ، وعقيلة العقيقية ، وكان معبد أحذق الجميع حتى صار إمام المغنين فى المدينة .

وفيه يقول الشاعر :

أجادَ طُوَيْسٌ والسُّرَيْجِيُّ بعده   وما قَصباتُ السَّبْق إلا لمَعبدَ

وعن مَعْبد أخذ كثير من المغنين أمثال مالك بن أبى السَّمح ، ويونس الكاتب وغيرهما . ثم جاءت الدولة العباسية بمدنِيَّتِها الراقية ، وحضارتها الواسِعة ، وكَثُرت مجالس الأُنس والطَّرب ، فعظُم شأن الغِناء ، وحذقَهُ كثير من الخلفاء والأمراء ، وافتن المغنون فى ألحانه . وتبارى الشعراء فى مدِّ المغَنّين بما يحتاجون من الشعر الرقيق ، حتى ضاقت أوْزانه المعروفة عن إشباع نهمهم والقيام بمطالبهم ، فاختُرعت أوزان جديدة تَخْضَعُ لنغماتهم ، وتُسايِر مدنيتهم وأذواقهم .

٢١ ـ جامع الحاكم

بجوار باب الفتوح بمدينة القاهرة جامع أَثَرِىٌّ عظيم يُعرَف بجامع الحاكم ، أول من أسَّسه أمير المؤمنين العزيز بالله الفاطمى سنة ثمانين وثلثمائة للهجرة النبوية ، وأتمّ بناءه وجهّزه بكل ما يحتاج إليه من حُصُر ومصابيح ابنه الحاكم بأمر الله سنة ثلاث وأربعمائة للهجرة ، فنسب إليه وعرف به ، وكان يعرف أولا بجامع الخطبة .



(منارة جامع الحاكم وبرجا باب الفتوح)

وذكر المقريزىّ أنّه حدث فى مصر سنة اثنتين وسبعمائة زَلْزَلة عظيمة اهْتَزّت لها المبانى على اختلاف أنواعها ، وسمِع لحيطانها قَعْقَعَةٌ ، ولسُقوطها قَرْقَعة ، ومارَت الأرض بما عليها . فترك الناس أماكنهم ، وخرجوا من منازلهم ، وبرزَت النساء حاسرات ، وكثُر الصُّراخ والعويل لكثرة ما سقط من الحيطان ، وخرَّ من السقوف ، وفاض النيل على غير عادته . وألقى ما عليه من المراكب بساحِله قدر رَمْية

سهم ، وانحسَر عنها . فبقِيَت على الأرض . واجتمع العالم فى الصحراء خارج القاهرة ، وباتوا ظاهر باب البحر بحرمهم وأولادهم فى الخيام ، وخلت المدينة من سكانها ، وتشعَّثت المنازل من هَوْل ما أصابها ، ولم يَسْلَمْ بناء من خَلل . فكان مما تهدَّم من هذه الزَّلْزَلة جامع الحاكم فإنه سقَطَت سقُوفُه ، واختلَّت حيطانه .

وفى سنة ثلاث وسبعمائة عزَم الأميرُ ركن الدين بيبرس على إصلاحه ، فركب إليه ومعه القضاة والأمراء ، وعمِل بنفسه فى كشفه ، وأمر بإصلاح ما تهدم منه ، واختل من جُدرانه ، وإعادَة ما سقَط من شُرفاته ومِئْذنَتَيْه ، وأقام سقوفه وبيَّضه وأعاده جديداً ، وحبَس عليه عِدَة حُبوس بناحِية الجيزة ، وفى الصَّعيد ، والإسكندرية تُغل كل عام شيئاً كثيراً ، ورتَّب فيه دروساً لدراسة المذاهب الأربعة على أجل العلماء فى عصره ، وجعل لكل درس عدداً كثيراً من الطلبة ، فكان يدرس للشافعية قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعى ، وللحنفية قاضى القضاة الشيخ الجليل شمس الدين أحمد السروجى الحنفى . وللمالكية قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكى ، وللحنابلة قاضى القضاة شرف الدين الجوَّانى . ورتب لدراسة الحديث النبوى الشيخ سعد الدين مسعوداً الحارثى ، ولدراسة النحو الشيخ أثير الدين أبا حيان . وعمل

فيه خزانة كُتُب جليلة ، وجعل عِدة متصَدِّرين لتَلْقين القرآن الكريم ، وعدة قُرّاء يتناوَبُون قراءة القرآن ، ومعلماً يُقرِئ أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل . وحَفَر فيه صِهرِيجاً يُمْلأُ فى كل سنة من مياه النيل ، وأَجْرى على كل من رتَّبه فيه أرْزاقاً ثابتة جعلها من الأوقاف التى حُبِستْ عليه .

ثم جُدِّد هذا الجامع ، وبُلط جميعه فى أيام الملك الناصر حسن بن محمد ابن قلاوون فى ولايته الثانية ، على يد الشيخ قُطب الدين محمد الهرماس فى سنة ستين وسبعمائة . ووقف قطعة أرض على الهرماس وأولاده ، وعلى زيادة فى معلوم الإمام بالجامع ، وعلى ما يحتاج إليه من زيت الوقود ومَرَمَّة فى سقفه وجدرانه .

وَبقى لهذا الجامع إجلاله واحترامه مدّة ، ثم عَدت عليه العوَادى ، ولَعِبَتْ الأيدى بما حُبِس عليه ، فأُهمِل شأنه وسقط كثير من شُرُفاته ، وهو الآن موضع عناية وزارة الأوقاف ومصلحة الآثار ؛ لما فيه من فنّ بديع ، وأثر جليل .

٢٢ — رِثاء بغــداد

الشيخ سعدى الشيرازى شاعِرٌ فارسى كبيرٌ، يعده قومه أحدَ أنبياء الشِّعر الثلاثة ، والآخران : الفردوسى والأنورى ، وهو طائر الصِّيت بكتابيه كُلْستان ، وبُسْتان ، وبديوانه وأشعاره الأخرى .

وقد أغار التَّتار على بَغداد فى حياته ، فرثَى حاضِرة الإسلام بقصيدتين فارسية ، وعربية ، وقصيدته العربية ليست على نَسَقِ شعرِه الفارسى بلاغة وإحْكاماً ، ولكنها قصيدة نادرة فى موضوعها . وهى :

حبست بعينىَّ المَدامع لا تجْرى — فلما طَغَى الماء استْطالَ على السَّكر
نَسيمُ صَبا بَغــدادَ بعد خَرابها — تمَنَّيْتُ لو كانت تمرُّ على قَبْرى
لأن هَلاكَ النَّفْس عند أُولى النُّهى — أحَبُّ لهم من عَيْشِ مُنْقَبِض الصَّدر
لزِمْتُ اصْطِباراً حيثُ كنتُ مُفارِقاً — وهذا فِراقٌ لا يُعالَجُ بالصَّبر
ولا تَسْألَن عمَّا جرَى يوم حَصْرِهم — فذلك مما ليْس يدْخُل فى الْحَصْر

* * *

بكَتْ جُـذُر المُسْتنْصرِيّة نُدْبَةً — على العلماء الرَّاسخين ذوى الحِجر
نوائبُ دَهْـرٍ ليْتَنى متُّ قبلها — ولم أرَ عُدْوانَ السَّفيه على الحـبر
محابِرُ تَبْـكى بَعْـدهم بسوادِها — وبعض قلوب الناس أحْلَكُ من حِبر

أيا ناصحى بالصَّبْر دعنى وزَفْرتى ... أموضعُ صَبْرٍ والكبود على الجَمْرِ
فجَرْتُ مياه العين فازْدَدْتُ حُرْقةً ... كما احْتَرقَت جوف الدماميل بالفَجْر

*
* *

فأين بَنو العباس مُفْتَخر الورى ... ذَوو الخُلُق المرضِىِّ والغُرَر الزُّهر
غدا سَمَراً بين الأنام حديثُهم ... وذا سمَرٌ يُدْمى المسامع كالسَّمر
وفى الخبر المروِىّ دينُ محمدٍ ... يعودُ غريباً مثل مُبْتَدَإِ الأمر
أأغربَ من هـذا يعودُ كما بدا ... وسبْىُ ديار السِّلْم فى بلد الكفر
فلا انْحَدَرت بعد الخلائفِ دِجْلة ... وحافاتها لا أعْشَبت ورق الخضر
أتُذْكَرُ فى أعلى المنابرِ خُطْبَةٌ ... ومُسْتَعْصِمٌ بالله لم يكُ فى الذِّكر

*
* *

تحيــةُ مُشْتاق وألف تَرَحُّمٍ ... على الشُّهداء الطّاهرين من الوِزر
هنيئاً لهم كأس المنيّــة مُتْرَعاً ... وما فيه عند الله من أعْظَمِ الأَجْـر
فلا تَحْسَبَنَّ الله مُخْلِفَ وَعْـــدِهِ ... بأنَّ لهم دارَ الكرامَة والبِشْر
إلامَ تصاريفُ الزّمان وجَـوْرُه ... يكلِّفُنا ما لا نُطيقُ من الأَمر
وســـائر ملك يقتضيه زوالُه ... سوَى الملكوت القائم الصَّمد الوِتر

٢٣ — بلاغة عبد الحميد

هو عبد الحميد بن يحيي بن سعيد ، مَوْلَى العلاء بن وهب العامِرِيّ ، وقد كان فارِسى الأصْل من الأَنْبار ، ونشأ بها ، ثم تحوّل إلى الكوفة ، واشتَغَل فيها بتعليم الصبيان مدة ، ثم أخَذ يَتَنَقَّل فى البلدان متكسّباً بحِرْفَتِهِ التى عرف بها إلى أن استقر به المطاف فى الرَّقَّة من بلاد الجزيرة ، فاسْتَوْطنها عِدَّة سنين ، ثم ارْتَحل إلى دمشق عاصمة الخلافة أيام بنى أُمية ، واتّصل بسالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه ، وتخَرّج على يديه فى كتابة الرسائل العربية ، ثم تَوجّه إلى أرمينية ، وانْتَظَم فى حاشِيَة مَرْوان بن محمد حينَما كان والياً عليها ، وبَقِى فى خِدْمته إلى أن تَقلّد الخلافة فأخذه معه مروان إلى دمشق ، وعهد إليه بكتابة الرسائل ، فأحسن القيام بها .

وقد بلغ عبد الحميد فى البلاغة مَبْلَغاً يُضْرَبُ به المثل ، فقال البحترى لمحمد بن عبد الملك :

وتفنَّنْت فى البلاغة حتى ... عطّل الناس فنّ عبد الحميد

وقال أبو اسحاق الصابى :

أنسيتُم كُتُباً شَحَنْتُ فُصولها ... بفُصُوص دُرّ عنْدَكُمْ مَنْضُودِ
ورسائِلا نفذَت إلى أطْرافِكم ... عبد الحميد بهنّ غير حَميدِ

ويقال إنه أول من نَهَج طرق الكتابَة ، وبَسَط من باع البلاغة ، وشقّق الرسائل وأطال فُصولها ، واستعمل التحميدات فيها . وكان مروان بن محمد يُكرِمه ويقدّمه ولا يَرى الدنيا إلا به . وكان عبد الحميد يقول : « أكرِموا الكُتّاب ؛ فإن الله تعالى أجرى أرْزاق الخلْق على أيديهم . » ومن غرر كلامه : « القلمُ شَجرةٌ ثمرها الألفاظ ، والفِكر بَحْرٌ لُؤلُؤُهُ الحِكمة . » وقيل له : « ما الذى خرَّجك فى الكتابة ؟ . » فقال : « حِفْظ كلام الأصْلَع . » يعنى على بن أبى طالب رضى الله عنه .

وكان إبراهيم بن العباس الصُّولى يقول : « ما تمنَّيْت أن يكون لى كلام أحد إلا كلام عبد الحميد حيث يقول فى رسالة له :

« النّاس أصنافٌ مختلفون ، وأطوارٌ متباينون ؛ فمنهم عِلْقُ مَضِنَّةٍ لا يباع ، ومنهم غُلٌّ مَظِنَّةٍ لا يبتاع . » ويروى أنه مر بإبراهيم بن جبلة وهو يكتب خطًّا رَديئًا فقال له : « أَتُحِبُّ أن يجودَ خطُّك ؟ . » قال : «نعم» قال : « أطِل جَلفة قلمك وأَسْمِنْهَا ، وحرّف قَطَّتَك وأَيْمِنْها . » قال إبراهيم : « ففعلت ذلك فجاد خطّى . »

وساير عبد الحميد يوماً مروان على دابة قد طالت مدتها فى مِلكه فقال له مروان : « قد طالت صحبة هذه الدابة لك . » فقال : « يا أمير المؤمنين من بَرَكة الدابة طول صحبتها وقلَّة علفها . » قال : « فكيف سيرها ؟ » قال : همها أمامها ، وسوطها عنانها ، وما ضُرِبت قط إلا ظالماً . »

وَيحكى أن عاملا لمروان أهدى إليه غلاماً أسود ، فقال لعبد الحميد « اُكتب إليه وذُمَّ فعله فى هديته وَأوجز . » فكتب إليه : « لو وَجدتَ لوناً شَرًّا من السواد وعدداً أقل من الواحد لأهْدَيْتَه . » وَكتب إلى أهله وَأقاربه عند هزيمة مروان كتاباً قال فى فصل منه — وَهو يشكو الدنيا : « باعدتنا عن الأوْطان ، وَفرَّقت بيننا وبين الإخوان . »

وَلما أيِس مروَان من مُلكه قال لعبد الحميد : « إن الأمر زائلٌ عنا وَهؤلاء القوم — يعنى بنى العباس — محتاجون إليك ، فصِرْ إليهم فإنى أرجو أن تتمكَّن منهم ، فتَنفَعَنى فى حياتى ، وَإلا لم تعجز عن نَفْع حرمى بعد وفاتى . » فقال له : « إن الذى أشرت به علىَّ أنفَع الأمرين لك ، وَأقبحهما بى ، فما يُعلِم الناسَ أن هـذا عن رأيك . وكلهم يقول إنى غدَرْت بك ، وَصِرْتُ إلى أعدائك . وما عندى إلا الصبر حتى يَفْتح الله عليك أو أقتل معك ، وَأنشد :

أسِرٌّ وَفاءٌ ثم أظْهِـــرُ غَدْرَةً ... فمَن لى بعذر يوسِع الناس ظاهِره »

وَروى أنه لما تَغلَّبَ العباسيون أتى المنصور بخوَاصِّ مروَان بن محمد وفيهم عبد الحميد وَالبعْلبَكِىُّ المؤذن ، وسلام الحادى ، فهَمَّ بقتْلهم جميعاً ، فقال سلام : « استَبْقنى يا أمير المؤمنين فإنى أحسن الحداء . » قال : « وما بلغ من حُدائك ؟ » قال : « تعمَد إلى إبل فتظمِئها ثلاثة أيام ، ثم توردها

الماء ، فإذا بدأت تَشربُ ، رفعتُ صوتى بالحداء فترفع رءوسها ، وتدع الشرب ثم لا تعود إليه حتى أسكت . » فأمر المنصور بإبل ، ففُعل بها ذلك ، فكان الأمر كما قال ، فاستبقاه ، وَأجازه ، وقال له البعلبكىّ : « استبقنى يا أمير المؤمنين فإنى موذّن منقطِع القرين . » قال : « وَما بلغ من أذانك ؟ » : قال : « تأمر جارية ، فتقدّم إليك طَسْتاً ، وتأخذ بيدها إبريقاً ، وتشرع تصُبّ الماء على يديك ، فأبْتدئ بالأذان ، فتَدْهَش ويذهب لبُّها إذا سمعت أذانى حتى تُلقى الإبريق من يدها ، وَهى لا تَشْعر بما يحدث منها . » فأمر المنصور جارية ، ففعلت ذلك ، وأخذ البعلبكى يؤذن ، فكانت حالها كما وصف .

وأما عبدالحميد فقال له المنصور : « ما أَغْرفنى بك ! » وأَمَر به فَقُطِعَت يداه ورجلاه ، وضربت عنقه .

وقيل إن عبد الحميد لازَم مروان فى فراره إلى مصر ، ولم يُفارِقه حتى قُتل معه ، وكان هذا القتل فى كنيسة قرية بوصير من قُرى الصَّعيد ، فى أواخر ذى الحجة من سنة اثنتين وثلاثين ومائة من الهجرة النبوية .

من رسالة لعبد الحميد الكاتب ينصح الكتاب

ليس أحد من أهل الصناعات كلها أَحْوَجَ إلى اجتماع خِلال الخير المحمودة ، وخصال الفَضْل المذكورة المعدودة منكم ؛ فإن الكاتب

يحتاج فى نفسه ، ويَحتاج منه صاحبه الذى يثقُ به فى مُهماتِ أموره — أن يكون حليما فى موضع الحلم ، فهيما فى موضع الحكم ، مقداماً فى موضع الإقدام ، مِحجاماً فى موضع الإحجام ، مُؤثِراً للعفاف ، والعدل والإنصاف ، كتوماً للأسرار ، وفيًّا عند الشّدائد ، عالماً بما يأتى من النّوازل ، يضع الأمور فى مواضعها ، والطوارِق فى أماكنها ، قد نظر فى كل فن من فنون العلم فأحْكمه ، وإن لم يُحكِمه أخذ منه بمقدار ما يُكتفى به . يعرف ، بغريزة عقله ، وحُسْن أدبه ، وفضل تجربته ، ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبةَ ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيُعِدُّ لكل أمر عُدّته وعَتاده ، ويُهَيِّئُ لكل وجه هيئَتَه وعادته .

فتنافسوا يا مَعشر الكتاب فى صنوف الآداب ، وتفقّهوا فى الدين ، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ، ثم العربية ؛ فإنها ثقاف ألسِنتكم . ثم أجيدوا الخط ، فإنه حلية كُتبكم ، وارْوُوا الأشْعار ، واعْرِفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ؛ فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم . ولا تضيعوا النظر فى الحساب ؛ فإنه قوام كتاب الخراج . وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيِّها ودنيِّها ، وسَفْساف الأمور ومحاقرها ؛ فإنها مَذَلّةٌ للرقاب ، مَفْسدة للكتاب . ونزهوا صناعتكم عن الدناءة ، واربئوا بأنفسكم عن السّعاية والنميمة ، وما فيه أهل الجهالات .

٢٤ — السموءل

السموءل بن عادياء، كان صاحب الحصن المعروف بالأبلق بتَيماء، وهو المشهور بالوفاء. وكان هذا الحصن لجده عادِياء، واحتفر فيه بئراً روِيّة عذبة. وقد ذكرته الشعراء فى أشعارها. قال السموءل:

فبالأبلق الفَـــرد بيتى به ويبتُ النّضير سِوى الأبلق

وقال السموءل يذكر بناء جده الحصين وبئره العذبة:

بنى لى عاديا حِصناً حَصينـا وماء كلما شِئْتُ اسْتَقَيْتُ

وكانت العرب تنزل به فيُضيفها، وتَمتار من حصنه، وتقيم هناك سُوقاً.

وبه يُضرب المثل فى الوفاء لإسلامه ابنَه حتى قُتل، ولم يخُن أمانته فى دروع أودِعَها. وكان السبب فى ذلك أن امرأ القَيس بن حُجر لمّا سار إلى الشام يريد قَيصر، نزل على السموءل بن عادياء بحصنه الأبلق، بعد إيقاعه ببنى كِنانةَ وتفرقهم عنه حتى بقىَ وحده، واحتاج إلى الهرب، فطلبه بن المنذر بن ماء السماء، ووجّه فى طلبه جيوشاً من إيادٍ وجيشاً من الأساوِرة، أمدّه بهم أنوشِرْوَان، وَخذَلته حِميَر، وتفرقوا عنه. وقد لجأ إلى السموءل ومعه أدرع كانت لأبيه خمسة هى: الفَضفاضة، والضّافية، والمُحْصِنة، والخِرّيق، وأم الذيول، كانت الملوك من

بنى آ كل المُرار يتوارثونها ملكا عن ملك . ومعه بنته هندٌ وابن عمه يزيد ابن الحرث بن معاوية بن الحرث ، وسلاح ومال كان بقى معه ، ورجل من بنى فَزارة يقال له الربيع بن ضبع ، وكان شاعراً . فقال له الفَزارىُّ : « قل فى السموءل شعراً تمدحُهُ به فإن الشعر يعجبه » وأنشده الربيع شعراً مدحه به وهو قوله :

ولقد أتيتُ بنى المُصاض مُفاخِراً وإلى السموءل زرتُه بالأَبْلَقِ
فأتيت أفضلَ من تحمّل حاجةً إن جئتَه فى غارم أو مُرهَق
عرفَت له الأقوامُ كل فضيلة وحوى المكارمَ سابقاً لم يُسْبَق

(قال) فقال امرؤ القيس فى قصيدته :

طرقَتك هندٌ بعد طول تجنُّبٍ وهْناً ولم تَكُ قبل ذلك تَطرُق

وقدم الفزارى بامرئ القيس على السموءل ، وعرّفه إياه ، وأنشداه الشعر ، فعَرَفَ لهما حقهما ، وضرب على هند قبة من أُدَمٍ ، وأنزل القوم فى مجلِسٍ له بَرَاحٍ ، فكانت عنده ما شاء الله . ثم إن امرأ القيس سأله أن يكتب له إلى الحرث بن أبى شَمِر الغَسانىّ أن يُوصّله إلى قيصر ؛ ففعل واستصحب معه رجلاً يدلُّهُ على الطريق ، وأودَع بنيه وماله وأدراعه السموءل ، ورحَل إلى الشام وخلّف ابن عمه يزيد بن الحرث مع ابنته هند . (قال) ووجّه المنذر بالحرث بن ظالم فى خَيل ، وأمره بأخذِ

مال امرئ القيس من السموءل . فلما نزل به تحصّن منه . وكان له ابن قد يَفَع ، وخرج إلى قَنْصٍ له . فلما رجع أخذه الحرث ابن ظالم ثم قال للسموءل :

« أتعرِف هذا ؟ » قال : « نعم ؛ هذا ابنِى » قال : « أفتُسلِّمُ ما قِبَلك أم أقتله ؟ »

قال : شأنك به فلستُ أُخفِرُ ذِمّتى ولا أسلِّمُ مال جارى . » فضرب الحرث وسَط الغلام ، فقطعه قطعتين وانصرف عنه ، فقال السموءل فى ذلك :

وَفَيْتُ بأدرعِ الكِندىِّ إنى ... إذا ما خان أقوام وفَيت
وأوصى عاديًا يومًا بأن لا ... تُهدِّمْ يا سموءل ما بنَيت
بنى لى عَاديا حِصنًا حَصينًا ... وماء كلما شئت استَقَيْتُ

الأعشى وشُريح بن السموءل

قال الأعشى يمدح السموءل ، ويستجير بابنه شُرَيح بن السموءل من رجل كلبيٍّ كان الأعشى هجاه ، ثم ظفِر به ، فأسره وهو لا يعرفه ، فنزل به شُرَيْحُ بن السموءل وأحسن ضِيافته، ومر بالأسرى فناداه الأعشى :

شُرَيحُ لا تُسْلِمَنِّى بعد ما عَلِقَتْ ... حِبالَكَ اليومَ بعد القيد أظفارى

قد سرتُ ما بين بلقاء إلى عَدَنٍ وطال فى العُجْم تَكْراري وتَسْيارى
فكان أكرمَهم عهداً وأوثقهم عَقداً أبوك بعُرفٍ غير إنكارِ
كالغيث ما استَمْطَرُوه جاد وابلُه وفى الشدائد كالمستأسِد الضّارى
كن كالسموءل إذ طاف الهُمامُ به فى جحفلٍ كسوادِ الليل جرّار
إذ سامه خُطتىْ خسفٍ فقال له قل ما تشاء فإنى سامعٌ حارِ
فقال غدرٌ وثُكلٌ أنت بينهما فاختَر وما فيهمــا حظٌّ لمختار
فشك غيرَ طويل ثم قال له أُقتــل أسيرك إنى مانعٌ جارى
هذا له خَلَفٌ إن كنتَ قاتِله وإن قتلتَ كريماً غير خوّارِ
وسوف يُعقِبُنيه إن ظفِرتَ به ربٌّ كريم وقومٌ أهلُ أطهار
فاختار أدراعه كى لا يُسبَّ بهـا ولم يكن وعدُه فيهـا بختّار

فجاء شُرَيحٌ إلى الكلبىّ فقال : « هذا الأسير المنصور » : فقال : هو لك . » فأطلقه وقال له : « أقم عندى حتى أكرِمَك وأحبُوَك . » فقال له الأعشى : « إنّ تَمام إحسانك إلىّ أن تعطيَنى ناقة ناجية وتخلّيَنى الساعة . » فأعطاه ناقة ناجية . فركبها ومضى من ساعته . وبلغ الكَلْبِىّ أن الذى وَهَب لشريح هو الأعشى ، فأرسل إلى شريح : « ابعث إلىّ الأسير الذى وهبت لك حتى أحبُوَه وأعطيَه . » فقال : « قد مضى . » فأرسل الكلبي فى أثَره فلم يلحَقه .

٢٥ — الكسائى

هو أبو الحسن على بن حَمْزة الكِسَائى ، أَحد الأئمّة فى القراءة والنحو واللغة . كان من أهل الكوفة ، واسْتَوْطَن بَغداد ، وروى الحديث ، وصنّف الكتب ، ومات بالرّىّ فى صُحْبة الرشيد سنة تسع وثمانين ومائة من الهجرة النبوية .

قال : « أُحْضَرنى الرّشيد سنة اثْنَتَيْن وثمانين ومائة فى السنة الثالثة من خلافته ، فأخرج إلىّ محمدا الأمين وعبد الله المأمون كأنهما بَدْران فقال : « امتحنْهما . » فما سألتهما عن شىء إلا أحْسَنا الجواب فيه ، فقال لى : كيف تَرَاهما ؟ قلت :

أرى قمَرَىْ أُفْق وفرْعَىْ بَشَامةٍ يَزِينُهما عِرق كريم ومَحْتِدُ
يَسُدّان آفاق السماء بهمّةٍ يُؤيّدها حزم ورأى وسؤدُد
سَليلَىْ أمير المؤمنين ، وحائزَىْ مواريث ما أبْقى النبي محمدُ
حياةٌ وخِصْب ، للوَلىّ ورَحمة وحَرْبٌ لأعْداء، وسَيْفٌ مُهَنّدُ »

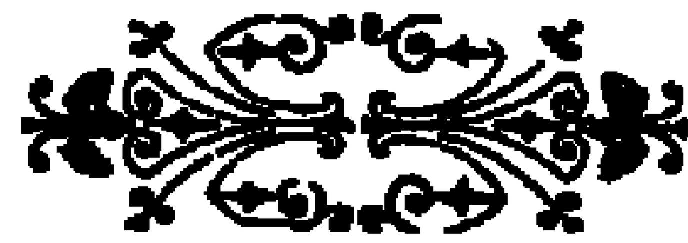
ثم قلت : « فَرْعٌ زَكَا أصْله ، وطاب مَغْرِسه ، وتمكّنت فروعه ، وعذبت مشارِبُه ، آواهما ملك أغرّ ، نافذُ الأمْر ، عظيم

الحِلْم ، أعلاهما فعَلَوَا ، وسما بهما فسَمَوْا ، فهما يتطاولان بطوله ، ويَسْتَضيئان بنُوره ، وينْطِقان بلسانه ، فأَمْتَع الله أمير المؤمنين بهما ، وبلَّغَه الأمل فيهما . »

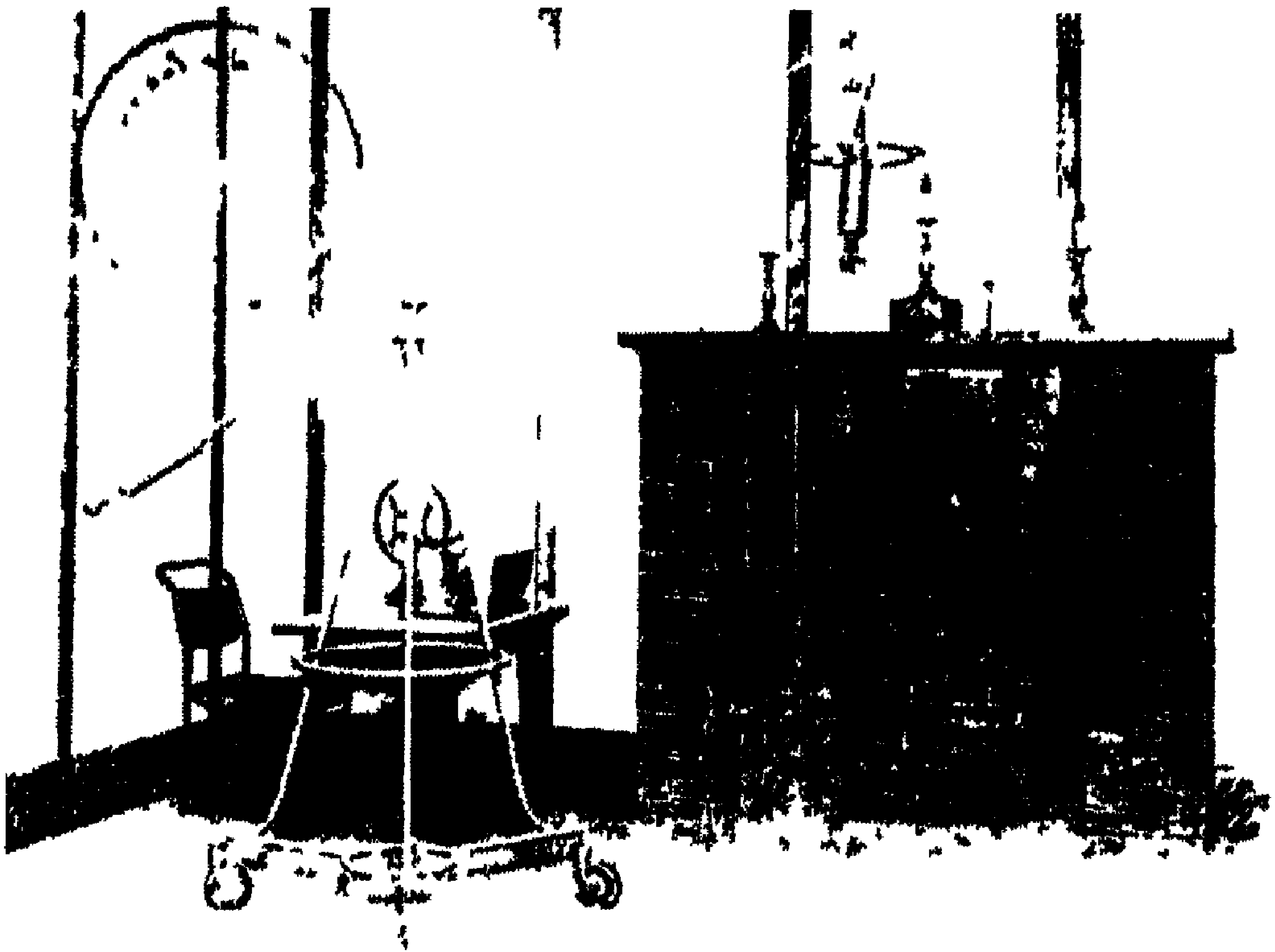
فقال : « تَفَقَّدْهما . » فكنت أختلِف إليهما فى الأسبوع طَرَفى نهارهما . » وأشْرف الرشيد على الكسائى وهو لا يَراه ، ووَقَف يسمع حديثَه لِوَلَدَيْه . وبعد مُدَيْدَة قام الكِسَائىّ ليلبَس نَعْله لحاجة يُريدها ، فابْتدَرها الأمين والمأمون فوضَعاها بين يديه ، فقبّل رءوسهما وأيْديهما ، ثم أقسم عليهما ألا يعاوِدا . فانصرف الرشيد مسرورًا بحديث الكسائى ، مُغْتَبِطًا بأدب نجْلَيه ومعرفتهما قَدْرَ مؤدِّبهما ، فلما جلس مَجْلِسَه ، قال لجلسائه : « أىُّ الناس أكرم خَدماً ؟ » فقالوا : « أمير المؤمنين أعزّه الله . » قال : « بل الكِسائى ؛ يخدُمه الأمين والمأمون . » وحدثهم الحَديث .

ومما يُؤْثر عن الكسائى أنه قالَ : « اجْتَمَعت أنا وأبو يوسف القاضى عند هرون الرشيد فجعل أبو يوسف يَذُمّ النَّحو ويقول : « ما النَّحو ؟ » فقلت — وأرَدْت أن أُعلمه فضل ما يذمه : « ما تقول يا أَبا يوسف فى رجل قال لرجل : « أَنا قاتلُ غلامِك » وقال له آخر : « أنا قاتلٌ غلامَك . أيُّهما كنت

تأْخُذ به ؟ » قالَ : « آخذهما جميعاً . » فقال له هرون : « أخْطأت . » وكَان له علم بالنحو . فاسْتَحيا أبو يوسف ، وقال : « كيف ذلك ؟ » قال : « الذى يُؤْخَـذ بقتل الغُلام هو الذى قال : « أنا قاتلُ غُلامِك بالإضافة ؛ لأنه فعل ماض ، وأما الذى قال : أنا قاتلٌ غلامَك بالنصب فلا يؤخذ ؛ لأنَّه مستقبل لم يكن بعـد ، كما قال الله عز وجل : « وَلا تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إنّى فاعِلٌ ذلك غـــداً إلَّا أنْ يَشَاءَ الله » فلَوْلا أن التَّنوين للمُسْتقبَل ما جاز فيـه غَدا » فـكان أبو يوسف بعـد ذلك يُـكْثِر فى مدح النَّحو . وأقبـل على كتبه حتى أجاد فهمه .



٢٦ ـ محطة الإذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية



كان للإذاعة فى مصر - أول ما نشأت — محطات أهلية كثيرة مما كان مثار الاختلاط والفوضى فى الإذاعة .

وقد رأت الحكومة المصرية بثاقب نظرها ضرورة القضاء على تلك الفوضى فعمَدت إلى احتكار الإذاعة . وأعطت امتيازها لشركة ماركونى ، فقصرتها على محطة واحدة من مايو سنة ١٩٣٤ هى المحطة الحالية ، ولقد أدخل عليها من التحسين والتجديد ما صارت به تضَارع خير محطات الإذاعة فى العالم قدرة واستمداداً .

تشغل هذه المحطة بناءين نخمين ، أحدهما فى شارع علوى بجوار المصرف الأهلى بالقاهرة ، والآخر فى أبى زعبل على بعد عدة أميال من القاهرة . ويحوى البناء الأول الإدارة والموظفين ، وعدة غرف تلقى بها المحاضرات ، وغرفاً أخرى أوسع من تلك لإذاعة الأغانى والأناشيد ، وتسمى كل غرفة من هذه الغرف « بالاستوديو » .

وأما البناء الثانى فاقتضت شئون الإذاعة أن يكون حيث الفضاء واسع ، والهواء طلق ؛ لذلك اختير له منطقة أبى زعبل ، وهو يشمل عدة غرف فيها المحرك الكهربى ، والمولدات الكهربية ، والصمامات الخاصة بالإذاعة والمكثفات ، والملفات . وخارج هذا البناء نصبت الهوائيات الضخمة الكبيرة المتصلة بها اتصالاً كهربياً .

« الإستوديو » أو غرفة الإذاعة : —

هو غرفة بنيت على نظام خاص يلائم الغرض منها ، وهو وصول الكلام المذاع إلى أجهزة الاستقبال بشكل واضح ، ونظام لا يلتبس منه شىء على السامع . ولما كان أقل همس أو حركة تؤثر فى المذياع « الميكروفون » الحساس ، وتحدث اضطراباً فى الصوت المُذاع رأى أولو الأمر مقاومة كل همس ، ولا سيما رنين نبرات الخطيب أو المتكلم وصدى صوته ؛ لذلك غطيت جدران هذه الغرفة

بمادة خاصة تجمع بين الليونة والخشونة ، مثل « الفلين » ، وهى بهذا الشكل لا تعكس الصوت ، أو تحدث له صدى ، وإنما يحدثه ملاسة الجدران وصلابتها .

كذلك روعى فى بنائها ألا يكون لها نوافذ ؛ حتى لا تصل إليها الضوضاء من الخارج فتؤثر فى المذياع الحساس . ولزيادة دقة النظام جعل الدخول إليها من بابين متعاقبين حتى إذا تكلم أحد ما خارج الغرفة لا يصل صوته إليها فى أثناء العمل .

ويوجد عادة فى غرفة الإذاعة « المذيع » الذى يقـدّم المحاضر أو المغنى إلى السامعين ، وأمامه المذياع على نضد ؛ فإذا أعلن للناس اسم المحاضر ، زحزح المذياع ليقربه من المحاضر أو المغنى ، وهذا لا يبدأ فى إذاعته إلا بعد أن يضاء أمامه الضوء الأخضر ، وما دام المحاضر أو المغنى لم ينته من إذاعته ، يبقى الباب الخارجى مضاء بضوء أحمر ؛ حتى لا يحاول أحد دخول تلك الغرفة .

وهكذا يتم فى هذه الغرفة وسائل الإذاعة التى تحمل إلى المستمعين من عذب الحديث وشجِىّ الموسيقى ما تطرب به قلوبهم ، وتبتهج به نفوسهم ، وتتفتح به أذهانهم .

٢٧ — الصَّــقر

العربُ تُسمِّى كل طائر يصيد صَقْراً — ماخلا النَّسْر والعُقاب — وتُسمِّيه الأكدر والأجْدل . وهو من الجوارِح بمنزلة البِغال من الدَّوَابّ ؛ لأنه أصْبَرُ على الشدة ، وأشَدُّ إقداماً على جِلة الطير كالكَراكِى والْحبارج . ويُضرَّى على الغزال والأرنب ولا يُضرَّى على الطير ؛ لأنه يفوته . وفعله فى صَيْده الانقِضاض والصَّدم ، وهو غير صافٍّ بجناحه ، ولا خافِق به . ومتى خَفَق بجناحه كانت حركته بخلاف البازى .

ويقال إنه أهدأُ نَفَساً من البازى ، وأسرع أنساً بالناس ، وأكثر رِضاً وقَناعَةً ؛ يَغْتذى بلُحوم ذوات الأرْبع ، ويعاف المِياه ولا يقرَبها . ومن طبعه أنه لا يَرْكَب الأشْجار ، ولا الشَّوامِخ من الجبال ، ولا يأوِى إلى المقابر والكهوف وصُدوع المرتفعات ، ويَنْتَى بالتَّمَعّك فى الرمل والتراب .

ومن صفاته الدَّالة على نجابَتِه وفراهَته : أن يكون أَحمَرَ اللَّون ، عظيم الهامة واسع العيْنين ، طويل العُنُق والْجناحَين ، رَحْب الصدر ، مُمْتَلِئْ الزَّور ، عريض الوسط ، جليل الفَخذين ، قصير السَّاقين والذَّنَب ، سِبْطَ الكَفّ ، غليظ الأصابع فَيْرُوزَجيَّها .

ويقال إن أول من صادَ بالصَّقْر وضرَّاه الحارث بن معاوية بن ثور من كِنْدة . وسبب ذلك أنه وقف فى بعض الأيام على صيّاد قد نصب شبكةً للعصافير ، فانْقَضَّ أَكدرٌ على عُصفور قد عَلق بالشبكة ، فجعل يأكله ، وقد علِق الأكدر وانْدَق جناحاه ، والحارث يَنْظُر إليـه ، ويَعْجَبُ من فِعله . فأمر به فَحُمِلَ فَرُمِىَ به فى كِسر بيت . ووكّل به من يُطْعمه . وأَنِسَ الصقر بالموكل به ، حتى صار إذا جاءه باللحم ودعاه أجاب ، ثم صار يُطْعِمه عَلَى يده ويحمله ، فبينما هو يوماً حامله إذ رأى حمامةً فطار عن يده إليها ، فأخذها وأكلها . وفى يوم آخر لاحَت أرنبٌ فطار إليها ، وأمْسَك بهـا . فلما رآه يصِيدُ الطير والأرانب ازْداد به إعْجاباً واغْتباطاً . عند ذلك أمر الحارث باتّخاذ الصقور وتدريبها والصيد بهـا ، واتخذَتْها العرب بعـده . وأكْثَرَ الشعراء من وَصْفها : فمن ذلك قول كُشاجم :

غَدَوْنا وطَرْفُ النَّجْم وسْنان غائر ... وقد نَزَل الإِصْباح والَّليل سـائر
بأجدلَ فى حمر الصُّقور مُؤَدَّبٍ ... وأكرمُ ما قَرَّبت منها الأحامر
جرىء عَلَى قَتْـل الظِّباء وإنَّنى ... ليُعْجِبُنى أن يكسر الوَحْشَ طـائر
قصير الذُّنابى والقُـــدامى كأَنها ... قوادِم نسْرٍ أو سُيوفٌ بوَاتِر
ورُقِّش منــه جُؤْجُؤٌ فـكأَنَّه ... أعارَتْه إعْجامَ الحروف الدَّفاتر

فما زِلتُ بالإضمار حتى صنَفْته ... وليس يَحوز السَّبْقَ إلا الضَّوامر
وتَحْمِلهُ منَّا أكفٌّ كريمة ... كما زُهِيَتْ بالخاطبينَ المنابر
وعنَّ لنا من جانب السَّفح رَبْرَبٌ ... عَلَى سَنَنٍ تستنُّ فيه الجآذِر
فجَلَّى وحُلَّتْ عقدةُ السير فانثَمى ... لأوّلها إذ أمكنته الأواخِر
يحثّ جناحيه على حرف وجهها ... كما فُصِّلتْ فوق الخدود المعاجر
وما تم رجْعُ الطَّرْف حتى رأيتُها ... مُصرّعةً تَهْوى إليها الخَناجِر

وقول ابن المعتز :

وأجدلٍ لم يَخلُ من تأديب ... يرى بعيد الشّيء كالقريب
يَهْوِي هُوِيَّ الدَّلو فى القَليب ... بناظرٍ مُسْتَغْجِم مَقْلوب
كناظر الأقْبَل ذى التَّقْطيب ... رأى أوزًّا فى ثَرًى رَطيب
فطار كالمُسْتَوْهل المَرْعوب ... ينفُذ فى الشَّمال والجنوب



٢٨ — فى البيان والنقد الأدبى(١)

قال أبو عامر :

وقد كُنا أطعمنا من هذا الطعام بعض التلاميذ ، فاستَطابه وعلم مقداره ولكن البَطالة على الفتيان غالِبة ، والسآمة عليهم مُستَولية ، فمن بنى على تعليم هذا الشأن فلا يُعَلِّم إلا أهل النَّجاة والمثابَرة على التعليم ، لأنه لم يَنْجُبْ تلميذ حُمل عليه هذا النقص ، وظُن به العَجْز »

جلس إلىَّ يوماً يوسف بن إسحق الإسرائيلى — وكان أفهمَ تلميذ مَرَّ بى — وأنا أُوصِى رجلاً عزيزاً عَلَىَّ من أهل قُرْطُبَة ، وأقول له : « إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو فى الكلمات ؛ فإذا جاوَرَ النَّسيبُ النَّسيبَ ، ومازَجَ القريبُ القريبَ ، طابت الأُلفة ، وحسُنَت الصُّحْبة ؛ وإذا رُكبت صور الكلام من تلك ، حسنت المناظر ، وطابَت المخابِر . أفَهِمْتَ ؟ » قال لى : « إى والله . » قلت له : « وللعذوبة إذا طُلبت ، والفَصاحة إذا التُمِستْ ، قوانينُ من الكلام ، من طلب بها أدرك ، ومن نَكَبَ عنها قصَّر . أفَهِمت ؟ » قال لى : « نعم . » قلت : « وكما تَختار مليح اللَّفظ ، ورَشيق الكلام . فكذلك يجب أن تَختار

---

(١) من كتاب الذخيرة لابن بسام

مليح النحو ، وفصيح الغَريب ، وتَهرُب من قَبيحه . » قال : « أجل . »
قلت : أتفهم شيئاً من عيون كلام القائل :

لعمركَ إنى – يوم بانوا فلم أمُت   خُفاتاً على آثارهم – لصَبور
غداة الْتقَيْنا إذ رميت بنَظْرة   ونحن على مَتْن الطّريق نَسير
ففاضَت دُموع العَيْن حتى كأنّها   لِناظِرِها غُصنٌ يُراح مَطيرُ

فقال : « إى والله وقعت « خُفاتاً » موقعاً لذيذاً ، ووُضِعَت « رميت » و « متن الطريق » موضِعاً مليحاً . وسرى « غصن يُراح مَطير » مسرًى لطيفاً . فقلت له : أرجو أنك تنسَّمْتَ شيْئاً من نَسيم الفهم ، فاغدُ علىّ بشىء تصنعه . »

قال أبو عامر : « وكان ذلك اليَهودِىُّ سا كِتاً يَعى ما أقول . فغدا ذلك القُرطُبِي فأنشدنى :

حَلَفْتُ بربّ مكّة والجمال   لقد وُزنت كروبى بالجبال

فى أبيات تشبهه . وجاء اليهودى فأنشدنى :

أيَمّمَ رُكْبانُهُم مَنْعِجًا   وقد ضَمّنوا قلبك الهودجا

واسْتَمَرّ إلى آخر قَصيدته ، فأتى بكل حسن . فقال لى ذلك القرطبي : « شِعْرُ اليهودىّ أحسن من شِعْرى . » قلت : « ولا بأس بفهمك إذ عرفت هذا . » ولم يَزَلْ يتدرّبُ باخْتِلافه إلىّ حتى نَدِىَ تُربه ،

وطلع عُشْبه ، ثم تَفَتَّح زَهْره ، وضاع عَبِقُه . ورآنى أستَعْمِل وحشىّ الـكلام فى مواضعه ، ولم يَشْعُر بحسن الوَضْع ، فاسْتَعمل شيئاً منه ، وعرضَه علىّ . فقلت : « استره » فقال : « تَبْخَل علىّ به ؟ » وعرضَه على ابن الإفليلى ، فقال له : « تنكَّب هذا الـكلام . » فقال له : « إن أبا عامرٍ يَسْتَعْمِله . » فقال : « يَضَعه فى موضعه ، وهو أدرب منك فى استعماله . »

٢٩ — الرفق بالخدم والضعفاء

إن الخدم هم المساعدون على الأعمال ، والمذللون لطرقها ، والمعاونون على إنجازها . ولولاهم لَأُرْتِجَ دون الناس باب من الرحمة كبير ، وانسدَّ عنهم طريق من النعمة فسيح ، واضطروا إلى مواصلة القيام والقعود ، ومداومة الإقبال والإدبار ، وإلى القيام بأعمال كثيرة تشغلهم عن واجباتهم الهامّة الأساسية . ومَثل الخدم من الإنسان مَثل الجوارح من الجسد ؛ فهم اليد التى تنفع ، والساعد الذى يُعين . ونفعهم جزيل عظيم فينبغى للمرء أن يحمد الله عز وجل على ما سخر له منهم ، وأن يحوطهم ، ويتفقدهم ، ويرفق بهم ، ولا يهملهم ، فإنهم بشَر يمسهم من الكلال واللُّغوب ، ومن السآمة والفتور ، ما يمس سائر البشر .

والخدم لا ينصحون مخدوميهم ، ولا يخلصون لهم إلا إذا تحققوا من أنهم شركاء لهم فى النعمة ، وأنهم فى مأمن من العزل والصرف .

ومن أجل هذا وجب أن تكون معاملتهم مبنية على أساس من العطف والرحمة ؛ بأن يكون العمل الذى يكلِّفه الخدمُ محدوداً ،

وفى طاقتهم القيام به ، مع إرشادهم إلى طريقة العمل المرضية ، وشكرهم عند الإحسان ، وتقدم الأجر كاملاً فى زمنه المحدود ، وإعطائهم من حين إلى آخر ما يتيسر زائداً على أجْرِهم ؛ تشجيعاً لهم على الإخلاص فى العمل .

وتجب مواساتهم فى الشدة ، وعيادتهم عند المرض ، ودعاء الطبيب لهم إذا ساءت حالهم ، وعلى المخدوم أن يرشد خدمه إلى مواقع الصواب وما ينبغى أن يتصفوا به ، وأن يربّيهم باللطف والحزم ، ولا يُهينهم ببذىء الكلام ، وجافى اللفظ ، مما يجرح قلبهم ، ويذل نفوسهم ؛ إذ ليس للسيد أن يتسلط على خادمه بذلك لا شرعاً ولا عرفاً . وعليه كذلك أن يسمح للخادم بساعة من النهار يتروح فيها ، ويتمتع بشئونه ، وأن يجرى عليه رزقاً يكفه عن التشوُّف لما قد يسرقه ويختلسه ؛ فإن ما ينقصه السيد من مرتبه ربما اختلس من ماله ، وأن يزيد فى أجْره كلما رآه يزيد فى صدق الخدمة وحسن المعاملة .

ومظاهر الرحمة بالضعفاء تختلف باختلاف هؤلاء الضعفاء ، وتنوع أسباب ضعفهم وحاجتهم ؛ فنهم الخدم ، وقد شرحنا ما يجب لهم قِبَلَ مخدوميهم ؛ ومنهم الأجراء فى البيوت ، والعَمَلة المستأجَرون لأغراض

أخر . وهؤلاء خصمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « أعطوا الأجيرَ أجره قبل أن يَجفّ عرقه . »

ومن الضعفاء : الأطفال الصغار ، سواء أكانوا أبناء المرء أم أجانب عنه ، وتجب عليه الرحمة بهم . ومن أجمل ما ورد فى ذلك قوله صلى الله عَليه وسلم : « ليس منّا مَن لم يرحم صغيرنا . ويُوقّرْ كبيرنا ، ويَأمُرْ بالمعروف ، وينْهَ عن المنكر »

ومن الضعفاء : اليتيم والمسكين والبائس والفقير ، ويجب العطف عليهم ، والإشفاق بحالهم والرحمة بهم قال تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهرْ . وأما السائل فلا تنهرْ . »

وصفوة القول أنه يجب على الإنسان أن يقوم للعجزة والضعفاء والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان بأوفر نصيب من المساعدة والرحمة والرأفة ، وألاّ يكون فظا غليظ القلب قاسياً عليهم ، بل يكون رءوفاً عطوفاً ليّن الجانب متواضعاً محباً الخير لهم . قال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة إلا رحيم . » وقال : « خاب عبد وخَسِرَ لم يجعل الله فى قلبه رحمة للبشر . » وقال : « اللهم أمتنى مسكيناً ، وأحينى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين . » تطييباً لقلوبهم ، وصيانة لهم من صولة الظالمين .

وقد نبه الشارع إلى الرحمة بالخدم ، فقال صلى الله عليه وسلم :

« ما خفَّفْتَ عن خادمك فى عمله فهو أجر لك فى موازينك يوم القيامة . » وقال : « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم : أطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون . ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فما أحببْتم فأمسكوا ، وما كرهتم فبيعوا ، ولا تُعذِّبوا خلق الله ؛ فإن الله ملككم إياهم ، ولو شاء لملكهم إياكم . »

واغتاظت عائشة رضى الله عنها من خادمٍ لها ، ثم رجعت إلى نفسها فقالت : « لله درُّ التَّقوى ؛ ما تركت لذى غيظٍ شفاء . » تريد أن التقوى ومخافة الله وطاعته ، تحول بين المغتاظ وشفاء غيظه ممن غاظه .

وقيل للأحنف بن قيس : « ممن تعلمت الحلم ؟ » قال : « من قيس بن عاصم . » قيل : « فما مبلغ حلمه ؟ » قال : « بينما هو جالس فى داره إذ أتته خادم له بسَفُّودٍ عليه شِواء ، فسقط السَّفود من يدها على ابن له فعقره فمات . فَدُهشَت الجارية وكادت تموت فَرَقاً وخوفاً . فقال : ليس يُسَكِّنُ روع هذه الجارية إلا العتق ، فقال لها : « أنت حرة . لا بأس عليك . »

وكان عند ميمون بن مهران ضيف فاستعجل على جاريته العشاء فجاءت مسرعة ، ومعها قصعة مملوءة ، فعثرت ، وأراقتها على رأس

سيدها ميمون . فقال : « يا جارية : أحرقتِني . » قالت : « يا معلم الخير ، ومؤدب الناس ! اِرجع إلى ما قال الله تعالى . » قال : « وما قال الله تعالى ؟ » قالت : قال : « والكاظمين الغيظ . » قال : « قد كظمتُ غيظى . » قالت : « والعافين عن الناس . » قال : « قد عفوتُ عنك . » قالت : « زد ؛ فإن الله تعالى يقول : « والله يحب المحسنين . » قال : « أنت حرة لوجه الله . »

وعن المعرور بن سويد قال : « رأيت أبا ذر الغِفارى رضى الله عنه وعليه حُلَّة ، وعلى غلامه حلة ، فسألته عن ذلك ، فقال : « إنى سابيت رجلا ، فشكانى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية » ثم قال : « إن إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل ، ولْيُلْبِسْهُ مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم . »

فهذه وصية قيمة رفعت من شأن الخدم إلى درجة المخدومين والسادة ؛ فالخدم ومن فى حكمهم إخوان فى الدين والإنسانية ؛ فيجب الرفق بهم ، والأخذ بأيديهم ، ومعاملتهم بالعدل والحسنى .

٣٠ — فتح عمورِّية فى عهد المعتصم

كانت عَمُّورِيَّة مدينة للروم شهيرَة ، حاصَرها المعتَصِم الخليفة العباسِى فى حرب طويلة ثم هَدَمها ، وسبى أَهْلها انْتقاماً من تيوفيلُس إمبراطور الروم ، ومكانها مدينة سورى حصار فى آسيا الصغرى .

قال صاحب كتاب الفخرى فى سبب فتحها : —

كان السبب فى غَزْو المعتصم عَمورِّية أن ملك الروم خرجَ إلى بلاد المسلمين ، فنَهَب حِصْناً من حصونهم يُقال له زِبَطْرَة ، وقتل مَن به من الرِّجال ، وسبى الذُّرِّيَّة والنِّساء ، فيقال إنه كان فى جملة السَّبْى امرأة هاشِمِية فسُمِعَت وهى تقول : « وامُعْتَصِماه ! » فبلغ المعتصم ما فعله ملك الروم بالمسلمين فاسْتَعْظَمه ، وكَبُر عليه ، وبلَغَه ما قالت الهاشميَّة ، فقال ، وهو فى مجلسه : « لبَّيْك ! لبَّيْك ! » ونهضَ من ساعته ، وصاحَ وهو فى قَصْره : « الرَّحيل ! الرَّحيل ! » ثم رَكِبَ دابَّته ، ومَّطَ خلفه شكالاً وسكة حديد ، وحقيبَة فيها زاده ، ثم برَّزَ وأَمَر العساكر بالتَّبرِيز ، وتجهَّزَ تجهُّزاً لم يَتَجَهَّز بمثله خليفة . فلما اجْتَمَعَت عساكره ، وفَرَغ من تجهيزه ، وعزَم على المسير ، أحضر القضاة والشُّهود ، وأشهدهم أنه قد وقَف أملاكه وأَمْواله على ثلاثة أثلاث : ثُلُثٌ لله تعالى ، وثُلُثٌ لولده وأقاربه ، وثُلُثٌ لمواليه .

ثم سار فظَفِر ببعض أهل الروم ، فسأله عن أحسن مُدنهم وأعْظَمِها وأعزها عندهم ، فقال له الرومى : إن عَمورِيّة هى عين بلادهم . » فتوجّه المعتصم إليها ، وجمع عساكره عليها وحاصَرها ، ثم فتحها ودخَل إليها ، وقتَل فيها وفى بلادهم ، وسبَى وأَسَر ، وبالَغ فى ذلك حتى هدَم عَمورِيّة ، وعَفّى آثارها ، وأُخَذ باباً من أبْوابها ، وهو باب حديد عظيم الحجم ، فأحْضَره إلى بَغـداد ، وهو الآن[1] على أحد أبواب دار الخِلْافة يُسمّى باب العامة .

وكان قد صَحِبه أبو تمام الطّائى ، فمدحه بقصيدته البائية التى أَولها : —

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكُتُب ۝ فى حده الحدُّ بين الجِدِّ واللّعِبِ

وفيها يقول : —

بيض الصّفائِحِ لاسودالصّحائف فى ۝ مُتونِهنّ جَلاء الشّكِّ والرِّيَب

والعِلْم فى شُهُب الأرْماح لامعة ۝ بين الخميسَيْن لا فى السّبْعَة الشُهب

أين الروايةُ ، بل أين النُّجوم وما ۝ صاغوه من زُخْرُف فيها ومن كَذب

تخرُّصًـــا وأَحاديثًا ملفقــــةً ۝ ليست بنَبْع إذا عُدّت ولا غَرَب

فتح الفتوح تعالى أن يُحيط به ۝ نَظْمٌ من الشّعر أو نَثْرٌ من الخُطَب

فتــح تُفَتّحُ أبوابُ السماء له ۝ وتبرز الأرض فى أَثْوابها القُشُب

---

(١) أى فى سنة إحدى وسبعمائة بعد الهجرة ، وهى السنة التى ألف فيها المؤلف كتابه .

يا يوم وَقْعَة عمورية انْصرفت — عنك المنى حُفَّلا معسولة الحلب
أبقيتَ جَد بنى الإسلام فى صُعُدٍ — والمشركين ودار الشِّرك فى صَبب
لما رأت أُخْتها بالأمس قد خَربت — كان الخراب لها أعْدى من الجرب
كم بين حِيطانِها من فارسٍ بَطَلٍ — قانِى الذّوائب من آنى دمٍ سَرِبِ
ما رَبْعُ ميَّة مَعْموراً يُطيفُ به — غَيلان أبْهى رُبًا من رَبْعها الخرب
تدبير مُعْتَصِم بالله ، مُنْتَقِم — لله ، مُرْتَقِبٍ فى الله ، مُرْتَهِبِ

***

لو لم يَقُدْ جَحْفلاً يوم الوغى لَغَدَا — من نفسه وحدها فى جَحْفلٍ لجِبِ
رَمَى بك اللهُ بُرْجَيْها فهدمها — ولو رمى بك غيرُ الله لم تُصب
تسعون ألفا كآسادِ الشَّرَى نَضِجَت — جلودهم قبل نضج التين والعنب
والحرب قائمة فى مأزِقٍ لَجِجٍ — تجثو الكُماةُ به صُغْرًا على الرُّكَب

***

خليفةَ الله ! جازى الله سعيك عن — جرثومة الدين والإسلام والحَسب !
بَصُرْتَ بالرّاحة الكبرى فلم تَرها — تُنالُ إلّا على جِسْرٍ من التَّعَب
إن كان بين صُرُوف الدَّهْرمن رحم — مَوْصولة أو زمام غير مُنْقَضِب
فبين أيامك اللاتى نُصِرت بها — وبين أيام بدر أقربُ النَّسَب
أبْقَتْ بنى الأصْفر المِرَاضِ كاسمهم — صفرَ الوُجوه وجَلَّت أوجهَ العربِ

٣١ — فخر الأمة العربية

رُوى أن ثابت بن قُرّة قال : « ما أَحْسُد هذه الأمة العربية إلا عَلَى ثلاثة أنفس

عَقِمَ النِّساء فلا يَلِدْن شَبِيهها إن النِّساء بمثلها عُقمُ

فقيل له : « أَحْصِ لنا هؤلاء الثلاثة . » قال : « أولهم عمر بن الخطاب فى سياسته وَيَقَظَته وحذره ، وتحفُّظه ودينه وتقيته ، وجَزَالَته وبذَالَته ، وصَرامَته وشهامَته ، وقيامته فى صغير أمره وكبيره بنفسه ، مع قريحة صافِية ، وعَقْلٍ وافِرٍ ، ولسان عَضْب ، وقلب شديد ، وطوِيّة مأمونة ، وعزِيمة مأمُومة ، وصدر مُنْشَرِح ، وبال مُنْفَسِح ، وبديهة نضوخ ، ورويّة لَقوح ، وسرٍّ طاهر ، وتوفيق حاضر ، ورأيٍ مُصِيب ، وأمر عَجِيب . دَعَم الدين وشَيَّدَ بُنْيانه ، وأَحْكم أساسه ، ورفَع أَرْكانه ، وأَوْضَح حُجَّتَه ، وأنار برهانه . مَلِكٌ فى زىّ مِسْكين . ما جَنَح فى أمر إلى وَنًى ، ولا غَضّ طَرْفَه عَلَى خنًا ، طِهارته كالبِطانَة ، وبِطانَته كالظّهارة ، جرح وأسا ، ولان وقَسا ، ومنع وأَعْطى — كل ذلك فى الله ولِلهِ ، لقد كان من نَوادِر الرجال .

والثانى الحسن بن أبى الحسن البصرى ؛ فلقد كان من دراريّ النُّجُوم عِلْماً وتقوى وزُهْداً وَورَعًا وعِفَّةً ورقَّة وتَنزُّهاً

وفِقْهاً ومعرِفَةً وفصاحَة . مواعظه تَصِــلُ إلى القُلوب ، وألفاظه تلتَبِس بالعقول . كان منْظَرُه وَفق مَخْبَره ، وعلانيَته فى وزن سريرته . عاش سبعين سنة لم يُقْرِف بمقالَةٍ شَنْعاء ، ولم يُزَنَّ بريبة ولا فَحْشاء ، سليم الدين ، نقىّ الأَديم ، يجمع مَجْلسه ضروب الناس لما يوسعهم من بَيانه ، ويفيض عليهم بافْتِنانه ؛ هذا يأْخُذ عنه الحديث ، وهذا يَلْقَنُ منه التَّأْويل ، وهذا يسمَع الحلال والحرام ، وهــذا يَتْبَعُ فى كلامه العربيّة ، وهذا يُجَرِّدُ له المقالَة ، وهذا يسمع الموعِظَة . وهو فى كل ذلك كالبحر العَجَّاج تدفُّقاً ، وكالسِّراج الوهَّاج تأَلُّقاً . ولا تَنْس مواقفه ومشاهِده بالأمر بالمعروف والنَّهى عن المنكر — عند الأمراء وأشباه الأُمراء — بالـكلام الفَصْل ، واللَّفْظ الجزل ، كالحجاج وفلان وفلان مع شارة الدين ، وبَهجَة العلم ، لا تَثْنيه لائمةٌ فى الله ، ولا تُذْهِله رائحة عن الله . يَجْلِسُ تحت كُرْسِيِّه قتادة صاحب التَّفسير ، وعمرو وواصل صاحبا الـكلام ، وابن أبى إسحق صاحب النحو ، وأَشْباه هؤلاء ونُظَراؤهم ؛ فمن ذا مثله ؟ ومن يجرى مجراه ؟

والثالث : أبو عثمان الجاحِظ ، خَطيب المسلمين ، وشيخ المتَكلِّمين ، ومِدْرَه المتقدِّمين والمتأخِّرين ؛ إن تَـكلَّم حكى سَحْبان فى البلاغة ، وإن ناظَر ضارَعَ النَّظَّام فى الجـــدال ، وإن جدَّ خرج فى مَسْكِ

عامر بن عبد قيس ، وإن هَزَل زادَ على مُزَبِّد . حبيب القلوب ، ومزاج الأرواح ، وشيخ الأدب ، ولسان العرب .

كتبه رياض زاهرة ، ورسائله أَفْنان مُثمِرة ، ما نازَعَه منازِع إلا رشاه آنِفا ، ولا تعرض له منقوص إلا قدم له التَّواضُع استِبقاء . الخلفاء تعرِفُه ، والأُمراء تصافيه وتنادِمُه ، والعلماء تأْخذ عنه ، والخاصَّة تُسلِم له ، والعامَّة تُحبُّه . جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفِطْنة والعلم ، وبين الرأْى والأَدَب ، وبين النثر والنَّظْم ، وبين الذكاء والفَهْم . طال عمره ، وفَشَتْ حِكمته ، ووطِئ الرجال عَقِبَه ، وتهادَوْا أدبه ، وافْتَخروا بالانْتساب إليه ، ونَجَحوا بالاقتداء به . لقد أُوتِىَ الحكمةَ وفصل الخطاب.



٣٢ — الطيران بدون قائد

إننا لتأخُذُنا الدهشة حينما نسمَع بأنَّ طائرة تحلِّق فى عَنان السماء بدون قائد ، وتشُق أَجْواز الفَضاء بغير يدٍ بشريةٍ تحرِّكها وتهديها سواء السبيل ، اللهم إلا تلك الإشارات اللَّاسِلكِيَّة التى يبعَثها إليها القائد من على سطح الأرض . وإنه لعَجَبٌ أن ترى ذلك رأى العين ، ويقْطع اليقين به طريق الظَّنِّ . عجبٌ يَبْهَر العُقول ، ويُبيد المُسْتحيل . وصَل إليه العَقْلُ البَشَرِىّ فكان آية تَدُلُّ على ما وَصل إلَيه من رِفْعَة ، وما بَلَغَه الاختِراع من إحْكام وإبْداع .

إن أوّل تفكير فى هذا المخترع حدَث حينما اشْتَعَلت نار الحرب العُظمى ، وحَمِىَ وَطيسُها (١٩١٤ — ١٩١٨) بين الدول ؛ إذا رأَت كل دولة أنها فى أمَسِّ الحاجة إلى الانْتِصار السريع ، ولكنها فِكرة سَرعان ما أَخْفَقَت لحاجتها إلى الوقت الطويل للبحث ، والدراسة العميقة ، والتجارب العديدة ، وأنّى لهم ذلك فى هذا الوقت .

ولقد نَجَح الأمريكيون بعد الحرب فى تَنفيذ هذه الفِكْرة ، وهيَّئوا لها وسائلها ، ثم قامت طائرة من مَحَطَّة سِرِّيَّة بعد أن جَهَّزوها بالآلات اللاسلكية ، وأرْسلوها فى الجو بدون طائر ، فأخذت تحلِّقُ فى الفَضاء ارتفاعًا وانْخِفاضًا ، وتحومُ فى الهواء ذات اليمين وذات الشّمال . كل ذلك

تبعاً لمشيئة قائدها الذى اتّخذ مكانه على سطح الأرض ، إذ يُرْسِل إليها الإشارات اللاسلكية فتتحرّك أنّى شاء ، وهو لها بالمِرْصاد .

وأساس هـذه الفِكرة الموجات اللاسلكية التى تَمْـلأ الأثيرَ ، وهى الواسِطة بين الأرض والطائرة . وهذه الموجات تُرْسَل من المحطة التى على سطح الأرض ، وتسمّى محطة المراقَبة ، وتُوَجَّه إلى الطائرة التى تُعَدُّ بِعُدَّة وأُجْهِزَة لاسلكيَّة دقيقة ، لـكل منها عَمَلُه الخاص به ؛ فإذا تأثَّر أحدها بمَوْجات اللاسلـكى ذات الطّول المناسِب له ، تكوّن فيه تيّار كهربى لا يُنْتج الغِناء أو الصوت كما فى أجْهِزة الرَّدَّاد (الراديو) العـادية ، بل يحدث الحركة المطلوبة ؛ إذ تتَّصِل أجزاء اللّاسلكى بمُحَرِّكات من شأْنِها أن تدفَع الطائرة إلى الأمام ، أو تَتَقَهْقَر بها إلى الخلْف ، أو تُسَيِّرها ذات اليمين أو ذات الشِّمال . فإذا أراد القائِد من طائرته الاتجاه يميناً أو شمالاً ، أرسل إليها إشارة لاسلكية إلى المحرّك الخاص بهذا الاتجاه ، فيوجِّهُها كما شاء — على الرغم مما بينهما من بُعْدٍ وتَنَـاء .

ومن طريف ما يُحكى فى هذا المقام : أن طائرة مثل هذه طارت ذات يوم ، وصارت تَبْتَعِد عن محطة المُراقَبة ، وظلت سائرة على الرغم

من ضعف تأثُّرها بالموجات اللاسلكية المرسلة إليها ، ولولا نَفادُ مادة وقودها لاستَمرت سائرة إلى ما شاء الله ، ولكنها سَقَطَت توًّا بعد فراغ هذه المادة ، وأحدثت دوِيًّا هائِلاً ، فجاء الناس من كل حَدَب وصَوْب ليُنقِذوا قائِدها . وما كان أشد دَهْشَتهم حينما لم يَجِدوه فيها . وإن الجهود مُتَضافِرة ، والبُحوث متواصِلَة للوُصول بهذا الاختِراع إلى درجات الكمال .

وقد كانت الصُّعوبة الأولى التي وَقَفَت حجر عثْرة في سبيل تقدم هذا الاختراع تَنْحصر في توجيه مثل هذه الطائرة التَّوْجيه المطلوب إلى أبعد مدًى ؛ إذ أن مدى النَّظر محدود ، فالمراقب في غُرفة المراقبة عند ما تَخْتفي عنه الطائرة يعجز عن أن يُوَجِّه إليها إشاراته التوجيه الصَّحيح ؛ ولذلك حاول الأمريكيون التَّغَلُّب على هذه الصعوبة بِبناء عدَّة محطات للمراقبة على طول الطريق المرغوب توجيه الطائرة فيه .

لم يَقِف البحث عند هذا الحد ، بل فكَّروا في تجهيز الطائرة بجهاز إرسال لاسلكي حتى ترسل هي الأخرى إشاراتها ، فيعرف المراقب بالبوصلة اللاسلكية اتجاه الطائرة ، ولو كانت أبعد من مدى بصره ، فيوجِّهها الاتجاه المطلوب . ثم إنه بعد ثانية يمكنه أن

يختَبِر وِجْهتها الجديدة ، فيدرك بذلك ما إذا كانت قد استَقْبَلت إشاراته أم لا ؛ بل يمكن أىّ مراقب فى أية محطة أن يَعْرِف هو أيضاً موضِعَ الطائرة . وبالتّعاوُن المتبادل بين هذه المحطات يتمكن أولو الأمر من أن يوَجّهوا هذه الطائرات إلى أى بُعْدٍ مهما كان .

وبهذا يمكن استِغْلالها فى نَقْل البريد ، وفى الحروب حيثُ تحِمل القَنابِل وتَقْذِفها بأجْهِزة آلية على المراكز الصناعية وغيرها .

٣٣ — رثاء المغفور له سعد زغلول باشا

للمرحوم حافظ بك ابراهيم :



إِيه يا لَيْلُ هَلْ شَهِدْتَ المُصَابَا ... كيف يَنْصَبُّ فى النُّفُوسِ انصِبابا
بَلِّغِ المَشْرِقَيْنِ قَبْلَ انبِلاجِ الصُّـ ... ـبْحِ أَنَّ الرئِيسَ وَلَّى وغابا
وَانْعَ لِلنَّيِّراتِ (سَعْدًا) فَسَعْدٌ ... كان أَمْضَى فى الأرضِ منها شِهابا
قُدَّ يا لَيْلُ مِنْ سَوادِكَ ثَوْبًا ... للدَّرارى وللضُّحَى جِلْبَابا
اِنسِجِ الحالِكاتِ مِنكَ نِقابًا ... وأَحِبُّ شمسَ النَّهارِ ذاك النِّقابا

قل لها : غاب كوكبُ الأرض في الأر ض فغيبي عن السَّماء احتجابا
أين (سَعْدٌ) ؟ فذاكَ أوّلُ حَفْلٍ غابَ عَنْ صَدْرِه وعافَ الخِطابا
لم يُعَوِّدْ جُنُودَه يومَ خطبٍ أنْ يُنادَى فلا يَرُدّ الجَوابا
عَلَّ أمْرًا قد عاقَه ! عَلَّ سُقْمًا قد عَراهُ ! لقد أطالَ الغِيابا !

*
* *

أىْ جُنُودَ الرئيس نادُوا جهارًا فإذا لَمْ يجبْ فشُقُّوا الثِّيابا
إنَّها النَّكبةُ الّتى كنتُ أخشى إنَّها الساعةُ الّتى كنتُ آبى
ماتَ (سَعْدٌ) لا كنتِ يا (ماتَ سَعْدٌ) أسِهامًا مَسْمُومَةً أمْ حِرابا
كيف أقْصَرْتِ كلّ حَىٍّ على الأرْ ضِ وأحْدَثْتِ فى الوُجُودِ انقِلابا
قُل لِمَنْ بات فى (فلَسْطِينَ) يبْكِى إنّ زِلزالنا أجَلُّ مُصابا
قد دُهيتُمْ فى دُورِكُمْ ودُهِينا فى نُفُوسٍ أبَيْنَ إلّا احتِسابا
ففَقَدْتُمْ على الحَوادِثِ جفنا وفقَدْنَا المُهنَّدَ القِرْضابا
سَلّهُ رَبُّه زَمانًا فَأبْلَى ثُمّ نَادَاهُ رَبُّهُ فأجَابا

*
* *

قَدَرٌ شاءَ أنْ يُزَلْزِلَ (مِصراً) فتَغَالَى فزَلْزَلَ الألْبَابا
طاحَ بالرَّأسِ مِنْ رِجالاتِ (مِصْرٍ) وتَخَطَّى التُّحُوتَ والأوْشَابا
والمَقادِيرُ إنْ رَمَتْ لا تُبالِى أرُءوسًا تصِيبُ أمْ أذْنابا

خرَجَتْ أُمَّـــةٌ تُشيِّعُ نَعْشًا قد حوَى أُمَّةً وبَحْـراً عُبابا
حَمَلوه على المَـــدافِعِ لمَّا أَعْجَزَ الهـــامَ حَمْلُهُ والرِّقابا
حالَ لَوْنُ الأَصيلِ والدَّمعُ يَجْرِى شَفَقًا سائِلاً وصُبْحًا مُـــذابا
وسَهَا النِّيـــلُ عَنْ سُراهُ ذُهُولاً حِينَ أَلْفَى الجُموعَ تَبْكِى انتِحابا
ظَنَّ يا (سَعْدُ) أَنْ يَرَى مِهْرَجانًا فرَأَى مَأْتَمًا وحَشْـــداً عُجَابا
لَمْ تَسُقْ مِثْلَهُ فَرَاعِينُ (مِصْرٍ) يومَ كانوا لأَهْلِهـــا أَرْبَابا

* * *

ساقت (التَّيْمسُ) العَزاءَ إلَيْنا وتوَخَّتْ فِي مَدْحِكَ الإسْهابا
لَمْ يَنُحْ جازِعٌ عليـــكَ كما نا حَتْ ولا أَطْنَبَ المُحِبُّ وحابى
واعتِرافُ (التَّاميزِ) يا (سَعْدُ) مِقْيا سٌ لِما نالَ نِيلُنـــا وأَصابا

* * *

يا كبيرَ الفُـــؤادِ والنفسِ والآ مالِ أَينَ اعتزَمْتَ عنَّا الذَّهابا؟
كيفَ تَنْسَى مَواقِفًا لكَ فِينا كنتَ فيها المَهِيبَ لا الهَيَّابا؟
كنتَ فى مَيْعَةِ الشَّبابِ حُساماً زادَ صَقْلاً فِرِنْدُه حِينَ شَابا
لَمْ يُنازِلْكَ قارِحُ القَـوْمِ إلَّا كنتَ أَقْوَى يَداً وأَعْلَى جَنابا
عِظَمٌ لو حَواهُ (كِسرَى أنُوشر وانَ) يوماً لَضاقَ عنـــه إهابا

لم يُنهِنهْ مِنْ عَزْمِكَ السِّجْنُ والنَّفْـــيُ وساجَلْتَها (بمِصْرَ) الصِّرابا
عَزْمَةٌ لا يَصُدُّها عَنْ مَدَاها ما يَصُدُّ السُّيولَ تَغْشَى الهِضابا

*
* *

ليتَ (سَعْداً) أَقامَ حتى يَرانَا كيفَ نُعْلى على الأَساسِ القِبابا
قد كَشفْنا بهَدْيِهِ كلَّ خافٍ وحَسَبْنَا لكلِّ شيءٍ حِسابا
حُجَجُ المُبْطِلِينَ تمضى سِراعًا مِثلَما تُطْلِعُ الكُؤوسُ الحُبابا
حِينَ قالَ (انتهَيْتُ) قُلْنا بدأْنا نَحْمِلُ العِبْءَ وَحْدنا والصِّعابا
فاحْجُبوا الشَّمسَ واحبِسُوا الرَّوْحَ عنَّا وامنَعُونا طَعامَنا والشَّرابا
واستَشِفُّوا يَقِينَنا رَغْمَ ما نَلْـقَى فَهلْ تلمَحُون فيه ارْتِيابا ؟
لا تقولوا خَلا العَرينُ ففيه أَلْفُ لَيْثٍ إذا العَرِينُ أَهابا

*
* *

جَزِعَ الشَّرْقُ كلُّهُ لِعظيمٍ مَلأَ الشَّرْقَ كلَّه إعْجابا
عَلَّمَ (الشامَ) و (العِراقَ) و (نجْدًا) كَيفَ يُحْمَى الحِمى إذا الخَطْبُ نابا
جَمَعَ الحقَّ كلَّهُ فى كِتابٍ واستثارَ الأُسُودَ غابًا فَغابا
ومَشى يَحْمِلُ اللِّواءَ إلى الحقِّ ويَتْلو فى النَّاسِ ذاكَ الكِتابا
كلَّما أَسْدلوا عليه حِجابًا مِنْ ظَلامٍ أَزالَ ذاكَ الحِجابا

واقِفٌ في سَبيلِهم أينَ ساروا عالمٌ باحتيالِهم أينَ جابا
كلما أحكموا بأرضِـــك فخًّا مِنْ فِخاخِ الدهاء خابوا وخابا
أو أطاروا الحمامَ يوماً لِزَجْلٍ قابَلوا منـــكَ في السماء عُقابا

***

تَقْتُلُ الدَّسَّ بالصَّراحةِ قتــــلًا وتُسَقِّي مُنافِقَ القَوْمِ صــــابا
وترَى الصِّدقَ والصراحةَ ديناً لا يَراه المخالفونَ صَـوابا
تَعْشَقُ الجوَّ صافِيَ اللوْنِ صَحْواً والمُضِلُّونَ يَعْشَقونَ الضَّبابا
أنتَ أَوْرَدْتَنا مِنَ الماءِ عَذْباً وأراهم قد أوْرَدونا السَّــرابا
قد جَمعْتَ الأحزاب حَوْلَك صَفًّا ونَظَمْتَ الشُّيوخَ والنُّـــوَّابا
وَمَلَكتَ الزِّمامَ واحتَطْتَ للغَيْـــبِ وأدْرَكتَ بالأَناةِ الطِّلابا
ثم خَلَّفْتَ بالكنانةِ أبطا لًا كُهولاً أعِزَّةً وشَــــبابا
يَبتنونَ العُــلا يَشيدون مجداً يُسْمِدون البَنينَ والأعْقابا

***

قد بَلَوْناكَ قاضِياً ووزيراً ورئيساً ومِدْرَهاً خــلَّابا
فوَجدناكَ مِنْ جميع نواحِيـــكَ عَظيماً مُوَفَّقاً غــلَّابا
لم يَنل حاسِدوكَ منـــكَ مُناهم لا ولم يُلصِقوا بعَلْياكَ عابا

نمْ هَنيئاً فقد سَهِدْتَ طويلاً وسَئِمْتَ السَّقامَ والأَوْصابا
كم شَكَوْتَ السُّهادَ لى يومَ كنَّا بالبَساتِينِ نَسْتعيدُ الشَّبابا
نَنْهَبُ اللهْوَ غافِلَيْنِ وكُنَّا نَحْسَبُ الدَّهْرَ قد أنابَ وتابا
فإذا الرُّزْء كان مِنَّا بمرْمَى وإذا حائمُ الرَّدَى كان قابا

*
* *

حَرَمَتنا المنونُ ذَيَّالِكَ الوَجْهَ وذاكَ الِحمى وتلك الرِّحابا
وسَجايا لهُنَّ فى النفس رَوْحٌ يعْدِلُ الفَوْزَ والدُّعاء المجابا
كم وَرَدْنا مَوارِدَ الأنس منها ورَشَفنا سلافها والرُّضابا
ومَرِحْنا فى ساحِها فنسينا الْ أهْلَ والأصدقاء والأحبابا
ثم وَلَّتْ بشاشةُ العيْشِ عنَّا حينَ ساروا فوَسَّدوكَ الترابا
خِفْتَ فينا مَقامَ رَبِّكَ حَيًّا فتَنَظَّرْ بجَنَّتيْهِ الثَّوابا

٣٤ — المنذِر بن ماء السماء وعَبِيد بن الأبرص
(الأغانى)

كان من حديث عبيد بن الأبرص وقتلِه : أن المنذر بن ماء السماء بنى الغَرِيَّين . فقيل له : « ما تُريد إليهما ؟ » . وكان بناهما على قبْرى رجلين من بنى أسد كانا نديمَيه ، فغضب عليهما ، فأمر بقتلهما ، أحدهما خالد بن المضلَّل والآخَرُ عمرو بن مسعود . فقال : « ما أنا بِمَلِك إن خالف الناس أمرى ، لا يَمرّنّ أحد من وفود العرب إلّا بينهما . » وكان له يومان ؛ يوم يسميه يومَ النعيم ، ويوم يسميه يوم البؤس . فإذا كان فى يوم نعيمه أتى بأول من يطلُع عليه ، فحَباه وكساه ونادمه يومه وحَمَله . فإذا كان يوم بؤسه أتى بأول من يطلُع عليه ، فأعطاه رأس ظَرِبانٍ أسودَ ، ثم أمر به فذُبح وغُرّى بدمه الغريَّان . فبينا هو جالس فى يوم بؤسه إذ أشرف عليه عَبِيد بن الأبرص ، فقال لرجل كان معه : « مَن كان هذا الشقى ؟ » فقال له : « هذا عبيد بن الأبرص الأسدىّ الشاعر . » فأُتى به ، فقال له الرجل الذى كان معه : « أتركهُ أبيتَ اللَّعن — أظُنُّ أن عنده من حُسن القريض أفضلَ مما تُدركُ فى قتله ، فاسمع منه . فإن سمِعت حسناً استزَدْتَه ، وإن لم يُعجِبك فما أقدرَك على قتله . »

فنزل وطعم وشرب ، وبينه وبين الناس سِتْر يراهم منه ولا يَرَوْنه .
فدعا بعَبيد من وراء الستر فقال له رَديفه : « هلاّ كَانَ الذبح لغيرك يا عبيد ! » فقال : « أتتك بحائنٍ رِجلاه . » فأرسلها مثلاً . فقال : « ما ترى يا عبيد ؟ » فقال : « أرى الحوايا عليها المَنايا . » فقال : « فهل قلت شيئاً ؟ » فقال : « حال الجريض دون القريض وبلغ الحزام الطُّبْيَيْن . » فقال : « أَنْشِدْنى : أقفر من أهله مَلْحُوب . » فقـــال :

أَقْفَر من أهله عَبيدُ　　　أَصبَح يُبدى ولا يُعيد
عَنَّتْ له خطةٌ نَكودُ　　　وحانَ منهـــا له وُرود

فقـال أنشدنا :

هى الخمرُ تكنى بأمِّ الطّلا　　　كما الذئب يُدعى أبا جَعدة

فأبى أن يُنشِدهم شيئاً مما أرادوا . فأمرَ به فقُتِل .

ومما يُغَنّى به من شعر عبيد :

طافَ الخيال علينا ليلَة الوادى　　　من أمِّ عَمْرٍو ولم يُلمِم لميعادِ

وفى هذه القصيدة يقول يخاطب حُجر بن الحرث أبا امرئ القيس .
وكان حجر يتوعده فى شيء بلغه عنه ثم استَصلحه . فقال يخاطبه :

أبلِغ أبا كربٍ عنّي وأخوتَه ... قولاً سيذهَب غَوْراً بعد إنجاد

لا أعرفنّك بعد الموت تندبُنِي ... وفى حياتِيَ ما زوّدْتني زادى

ومن أمامك يومٌ أنت مُدركه ... لا حاضر مُفْلِتٌ منه ولا بادى

فانظر إلى ظلّ مُلك أنت تاركه ... هل تُرْسَيَنّ أَواخيهِ بأوتادِ

الخير يَبقى وإن طال الزمان به ... والشرُّ أخبث ما أوْعَيْتَ من زادِ

٣٥ - عمرو بن معديكربَ وعمر بن الخطاب

دخل عمرو بن معديكرِب على عمر بن الخطاب رضى الله عنـه ، فقال له عمر : « يا عمرو ، أخبرنى عن أجبن مَنْ رأيت ، وأحيل مَنْ شاهدت ، وأشجع مَنْ لَقِيت . » فقـال له : « نعم يا أمير المؤمنين !

خرجت مرة أريد الغارة . فبينا أنا أسـير إذا أنا بفرس مشدود ورُمح مَركوز ، وإذا رجل جالس ، وهو كأَعظمِ ما يكون من الرجال خَلقاً ، وهو مُحتَب بسيف . فقلت له : « خذ حذْركَ فإنى قاتلك . » فقال : « ومَنْ أنت ؟ » قلت : « أنا عمرو بن معديكربَ . » فَشهِقَ شهقة فمات .

فهذا أجبن مَنْ رأَيت يا أمير المؤمنين . »

« وخرجت يوماً حتّى انتهيت إلى حيّ . فإذا أنا بفرس مشدود ورمح مركوز ، وإذا صاحبه فى وَهدة يقضى حاجةً ، فقلت : « خذ حذْرك فإنى قاتلك . » قَال : « مَن أنت ؟ » قلت : « أنا عمرو بن معديكرب . » قَال : « أبا ثور ! ما أنصفتنى ، أنت على ظهر فرسكَ ، وأنا فى بئر ، فأعطنى عهداً أَنك لا تقتلنى

حتى أركب فرسى وآخذ حِذرى . فأعطيته عهداً ألا أقتله حتى يركب فرسه ويأخذ حِذره . فخرج من الموضع الذى كان فيه حتى احتَبي بسيفه وجلس . فقلت له : « ما هذا ؟ » فقال : « ما أنا براكب فرسى ولا بعقاتلك ، فإن نكثت عهدك فأنت أعلم . » فتركته ومضيت .

فهذا يا أمير المؤمنين أخْيل مَن رأيت . »

ثم إنى خرجت يوماً آخر حتّى انتهتُ إلى موضع كنت أقطع فيه ، فلم أر أحداً ، فأجريت فرسى يميناً وشمالاً ، فظهر لى فارس ، فلما دنا منى إذا هو غلام قد أقبل من نحو « اليمامة » ، فلما قَرُبَ منى سلّم ، فرددت عليه ، وقلت : « مَن الفتى ؟ » قال : « أنا الحارث بن سعد ، فارس الشّهباء . » فقلت له : « خذ حِذرك فإنى قاتلك . » فقال : « الويل لك ! مَن أنت ؟ » قلت : « أنا عمرو بن معد يكربَ . » قال : « الحقير الذليل ؟ والله ما يمنعنى من قَتْلك إلا استصغارُك . » فتصاغرتْ نفسى إلىّ وعظُم عندى ما استقبلنى . فقلت له : « خذ حِذْرك ، فوالله لا ينصرف إلا أحدنا . » قال : « اغرُبْ ثكِلتْك أُمّك ! فإنى من أهل بيت ما نَكَلْنا عن فارس قط . » فقلت : « هو الذى

تسمع . » قال : « اختَر لنفسك ؛ إما أن تُطْرِدَ لى ، وإما أن أطْرُدَ لك . » فاغتنمتها منه ، فقلت : « أطْرِدْ لى . » فأطرد وحملت عليه ، حتى إذا قلتُ : إنى وضعت الرمح بين كَتِفيه ، إذا هو قد صار حِزاماً لفرسه ، ثم اتبعنى فقرَع بالقناة رأسى ، وقال : « يا عمرو ! خذها إليك واحـدة ، فوالله لولا أنى أكره قتل مثلك لقتلتُك . » فتصاغرتْ إلىّ نفسى ، وكان الموت والله يا أمير المؤمنين أحبّ إلىّ مما رأيت ، فقلت : « والله لا ينصرف إلا أحدنا . » فقال : « اختر لنفسك . » فقلت : « أطْرِدْ لى . » فأطرد لى ، فظننت أنى قد تمكّنت منه وأتبعته ، حتى إذا ظننت أنى قد وضعت الرمح بين كتفيه ، فإذا هو قد صار لبَباً لفرسه ، ثم اتبعنى فقرع رأسى بالقناة ، وقال : « يا عمرو ! خذها إليك اثنتين . » فتصاغرتْ إلىّ نفسى ، فقلت : « والله لا ينصرف إلا أحدنا . » فقال : « اختر لنفسك . » فقلت : « أطرد لى . » فأَطرد حتّى إذا قلت : إنى وضعت الرمح بين كَتِفيه ، وثب عن فرسه فإذا هو على الأرض ، فأخطأته ومضَيت ، فاستوى على فرسه وأتبعنى فقرع بالقناة رأسى ، وقال : « يا عمرو ! خذها إليك ثالثة ، ولولا أنى أكره قتل مثلك لقتلتُك . » فقلت له : « اقتلنى ؛

فإن الموت أَحب إلىَّ مما أرى بنفسى ، وأن تسمع فِتيان العرب بهذا . » فقال « يا عمرو ! إنما العفو ثلاث ، وإنى إن استمكنتُ منك الرابعة قتلتك » وأنشأ يقول :

وكَّدتُ أغلاظًا من الأيمان إن عُدْتَ يا عمرو إلى الطِّعان

لَتُوجَدَنَّ لَهَبَ السِّنانِ أوْلا ، فلستُ من بنى شيبان

فلما قال هكذا ، كرهت الموت ، وهِبتُه هيبة شديدة ، وقلت : « إنَّ لى إليك حاجة . » قال : « وما هى ؟ » قلت : « أكون لك صاحبًا . » ورضيت بذلك يا أمير المؤمنين ، قال : « لست من أصحابى . » فكان ذلك والله أشدّ علىَّ وأعظم مما صنع ، فلم أزل أطلب إليه حتى قال : « ويحك ! وهل تدرى أين أريد ؟ » قلت : « لا » قال : « أريد الموت عِيانًا . » فقلت : « رضيت بالموت معك . » فقال : « امض بنا . » فسرنا جميع يومنا وليلتنا حتى جنَّنَا الليل وذهب شَطره ، فوردنا على حىّ من أحياء العرب ، فقال لى : « يا عمرو ! فى هذا الحى الموتُ . » ثم أومأ إلى قُبـة فى الحىّ فقال : « وفى تلك القبة الموت الأحمر ؛ فإما أن تُمسك علىّ فرسى فأنزِلَ فآتىَ بحاجتى وإما أن أُمسك عليك فرسك فتنزلَ فتأتِيَنى بحاجتى » فقلت : « لا ؛ بل انزل أنت ، فأنت أعرف بموضع حاجتك . » فرمى إلىّ بعِنان الفرس

ونزل ، فرضيتُ لنفسى يا أمير المؤمنين أن أكون له سائساً . ثم مضى حتى دخل القبة ، فاستخرج منها جارية لم تر عينان قط مثلها حُسناً وجمالاً ، فحملها على ناقة ، ثم قال : « يا عمر ! » قلت : « لبّيك ! » قال : « إما أن تحمينى وأقود أنا . » و إما أن نحميَك وتقود أنت . » قلت : « بل تحميني أنت وأقود أنا . » فرمى إلىَّ بزمام الناقة ، وسرنا بين يديه وهو خلفنا حتى أصبحنا ، فقال لى : « يا عمرو ! » قلت : « لبيك ! ما تشاء ؟ » قال : « التفِت فانظر هل ترى أحداً ؟ » فالتفت ، فقلت : « أرى جِمالاً » قال : « أغِذَّ السير ، » ثم قال لى : « يا عمرو ! » قلت : « لبيك ! » قال : « أُنظر فإن كان القوم قليلاً فالجَلَد والقوّة والموت ، وإن كانوا كثيراً فليسوا بشىء . » فالتفتُّ ، فقلت : « هم أربعة أو خمسة . » قال : « أغِذَّ السيرَ » ففعلت ، وسمع وقْع الخيل ، فقال لى : « يا عمرو ! » قلت : « لبيك ! قال : « كن عن يمين الطريق ، وقِف وحوّلْ وُجوهَ دوابنا إلى الطريق . » ففعلت ووقفت عن يمين الراحلة ، ووقف هو عن يسارها . ودنا القوم منا فإذا هم ثلاثة نفر فيهم شيخ ، وهو أبو الجارية وأخواها غلامان شابان ، فسلموا فرددنا السلام ، ووقفوا عن يسار الطريق ، فقال الشيخ : « خلِّ عن الجارية يا بن أخى » فقال : « ما كنت لأُخلّيها ، ولا لهذا أخذتها . » فقال

لأصغر ابنيه « أُخرج إليه . » فخرج إليه وهو يجرّ رمحه ، وحمل عليه الحارث وهو يقول :

مِنْ دُونِ ما تَرْجُوه خَضْب الذابِلِ مِن فارسٍ مُسْتَلْئِمٍ مقاتِلِ
يُنْمَى إلى شيْبان خير وائِلِ ما كان سيرى نحوها بباطِلِ

ثم شدّ عليه فطعنه طعنة دقّ منها صُلْبه . فسقط ميتاً . فقال الشيخ لابنه الآخر : « أُخرج عليه يا بُنَيّ ، فلا خير فى الحياة على الذلّ . » فخرج إليه وأقبل الحارث يقول :

لَقَدْ رأيتَ كَيْفَ كانَتْ طَعْنتى والطَّعن لِلقِرْن الشديد هِمَّتى
والموتُ خيْرٌ من فراق خِلّتى فقتْلتِى اليوم . ولا مذلَّتى

ثم شدَّ عليه فطعنه طعنة سقط منها ميتاً . فقال له الشيخ : « خلِّ عن الظعينة يا بن أخى ، فإنى لستُ كمن رأيت » قال : « ما كنت لأُخَلِّيَها ولا لهذا قصدت . » فقال له الشيخ : « إختر يا ابن أخى ، فإن شئت طاردتك ، وإن شئت نازلتك . » فاغتنَمها الفتى ونزل . ونزل الشيخ وهو يقول :

ما أرتجى بعد فناء عُمرى سأجعلُ السِّنينَ مثل الشَّهْرِ
شيخٌ يحامى دون بيض الخِدْرِ أنْ تُسْتَبَاحَ البيض قصم الظَّهر
سوف ترى كيف يكونْ صبْرى

فأقبل الحارث وهو يقول :

بَعْدَ ارتحالى وطويلِ سَفَرِى وقد ظَفِرتُ وشفَيْتُ صَدْرِى
والموتُ خيرٌ من لِباسِ الغَدْرِ والعارِ أُهْديه لحَىٍّ بكر

ثم دنا فقال له الشيخ : « يا بن أخى ، إن شئت نازلتك ، وإن بقيَت فيك قوّة ضربتَنى ، وإن شئت فاضربنى ، فإن بقيَت فىّ قوّةٌ ضربتك . » فاغتنَمها الفتى فقال : « وأنا أبدؤك . » قال : « هات . » فرفع الحارث السيفَ ، فلما نظر الشيخ أنه قد أهوى به إلى رأسه ، ضرب بطنه ضربة فقـدّ مِعاه ، ووقعت ضربة الحارث فى رأسه . فسقطا ميتين . فأخذت يا أمير المؤمنين أربعة أفراس وأربعة أسياف ، ثم أقبلتُ إلى الناقة فعقَدت أعِنّة الأفراس بعضها إلى بعض وجعلت أقودها . فقالت الجارية : « يا عمرو ! إلى أين ؟ ولستَ لى بصاحب ، ولستَ كمن رأيت ، ولو كنت صاحبي لسلكتَ سبيلهم . » فقلت : « أُسكتى . » قالت : « فإن كنت صادقاً فأعطنى سيفاً ورمحاً ، فإن غلبتَنى فأنا لكَ ، وإن غلبتُك قتلتك . » فقلت لها : « ما أنا بمُعطيك ذلك ، وقد عرفتُ أصْلك وجُرأة قومكِ وشجاعتهم . » فرمت بنفسها عن البعير وهى تقول :

أَبَعْدَ ما شَيْخى وبعد إخوتِى   أطلُبُ عيشاً بعْـدَهُم فى لذَّة

هَلْ لا تـكُونُ قبل ذا مَنِيَّتِى

وأهوت إلى الرُّمح فكادت تنتزعه من يدى ، فلما رأيتُ ذلك خِفْتُ إنْ هى ظفرت بى أن تقتلَنى ، فقتلتها .

فهذا أشدُّ ما رأيتـه يا أمير المؤمنين . »

فقال عمر بن الخطاب : « صدقت يا عمرو . »

٣٦ – حديث ليلى الأخيلية مع الحجاج

حَدَّثَ أَبو بكر الأنبارى قال حدَّثنى أبى قال : أَخبَرنا أحمد ابن عبيد عن أبى الحسن المدائنى عمن حدَّثه عن مولى لعَنْبَسَة ابن سعيد بن العاصى قال : « كُنت أدخل مع عنبسة بن سعيد ابن العاصى إذا دخل على الحجّاج ، فدخل يوماً فدخلت إليهما ، وليس عند الحجاج أحَد إلا عنبسة ، فأقعدنى فجىء الحجاج بطَبَق فيه رُطَب ، فأخذ الخادم منهُ شيئاً فجاءنى به ، ثم جىء بطبق آخر حَتى كَثُرت الأطباق ، وجعل لاَ يأتون بشىء إلا جاءنى منه بشىء حَتى ظننت أن ما بين يدىّ أكثر مما عندهما . ثم جاء الحاجب فقال : « امرأَة بالباب ؟ » فقال له الحجاج : أدخلها ، فدخلت . فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه حتى ظننت أَن ذقنَه قد أصاب الأرض ، فجاءت حتى قعدت بين يديه ، فنظرتُ فإذا امرأة قد أسَنَّت ، حَسَنَةُ الخَلْق ، ومعَها جاريتان لها . وإذا هى ليلى الأخيلية ؛ فسألها الحجاج عن نسبها فانتسبت له ؛ فقال لها : « يا ليلى ! ما أتى بك ؟ » فقالت : « إخلاف النجوم ، وقِلة الغُيوم ؛ وكَلَب البَرْد ، وشدة الجَهد ، وكُنتَ لنا بعد الله

الرِّفْد . فقال لها : صِفِى لنا الفِجَاج ؛ فقالت : الفِجَاج مُغْبَرَّة ، والأرضُ مُقْشَعِرَّة ، والمَبْرَكُ مُعْتَلّ ، وذو العيال مُخْتَلّ ، والهالك لِلْقُلّ ، والناسُ مُسْنِتُون ، رحمةَ الله يَرْجُون ، وأصابَتْنا سِنُون مُجْحِفة مُبْلِطة ، لم تَدَعْ لنا هُبَعاً ، ولا رُبَعاً ؛ ولا عافِطَةً ولا نافِطَة . أذْهَبَت الأموال ، ومزّقت الرجال ، وأهْلَكت العيَال . ثم قالت : « إنى قلت فى الأمير قولاً . » قال : هاتى ؛ فأنشأت تقول :

أحَجّاجُ لا يُفْلل سلاحُك إنّها الْـــمَنايا بكَفّ الله حيثُ تراها
أَحَجّاجُ لا تُعطِى العُصَاةَ مُناهمُ ولا اللهُ يُعطِى للعصاة مُناها
إذا هَبَطَ الحجّاجُ أرضاً مَرِيضةً تَتبّع أقصَى دائها فَشَفاها
شَفاها من الداء العُضَال الذى بها غلامٌ إذا هَزّ القَناة سقاها
سقاها فَرَوّاها بِشِرْب سِجالِهِ دماء رجال حيث مال حشاها
إذا سمِع الحجّاجُ رِزّ كَتيبةٍ أَعَدّ لها قبل النزول قِراها
أعَدّ لها مَسْمومةً فارسيّةً بأيدى رجال يَحْلُبون صَرَاها
فما وَلَدَ الأبكارُ والعُونُ مثلَه ببحر ولا أرْضٍ يجِفُّ ثَرَاها

قال : فلما قالت هذا البيت قال الحجاج : « قاتلها الله ! والله ما أصاب صفتى شاعرٌ مذ دخلتُ العراقَ غيرها . » ثم التفت إلى عنبسة ابن سعيد فقال : « والله إنى لأُعِدّ للأمر عسى ألا يكون أبدا . »

ثم التفت إليها فقال : « حَسْبُك ! » قالت : « إنى قد قلت أكثر من هذا . » قال : « حَسبُك ! وَيْحَكِ حَسبُك ! » ثم قال : « يا غلام ، اذهب إلى فلان فقل له : « اقطع لسانها . » فذهب بها فقال له : يقول لك الأمير : « اقطع لسانها . » قال : فأمر بإحضار الحجّام . فالتفتت إليه فقالت : « ثَكِلَتْكَ أُمُّك ! أما سمعت ما قال ، إنما أمرك أن تقطع لسانى بالصِّلة . » فبعث إليه يَسْتَثْبِتُهُ ؛ فاستشاط الحجّاج غضباً وهَمَّ بقطع لسانه وقال : « ارددها . » فلما دخلت عليه قالت : « كاد وأمانة الله يَقْطَع مِقْوَلِى . » ثم أنشأت تقول :

حَجَّاجُ أنت الذى ما فَوْقَهُ أحد   إلا الخليفةُ والمستَغْفَرُ الصَّمَد
حجّاج أنت شهابُ الحرب إن لَقِحت   وأنت للناس نورٌ فى الدُّجَى يَقِد

ثم أقبل الحجاج على جلسائه فقال : « أتدرون من هذه ؟ » قالوا : « لا والله أيُّها الأمير ، إلاَّ أنَّا لم نَرَ قَطُّ أفصحَ لساناً ، ولا أحسن محاورة ، ولا أملح وجهاً ، ولا أَرْصَنَ شِعْرًا منها ! » فقال : « هذه ليلى الأخيلية التى مات تَوْبَة الخفاجىُّ من حبها ! » ثم التفت إليها فقال : « أنشدينا يا ليلى بعض ما قال فيك توبة . » قالت : « نعم أيها الأمير هو الذى يقول » :

وهل تَبْكِيَنْ لَيْلَى إذا متُّ قبلها   وقام على قبرى النساء النوائح ؟

كما لو أصاب الموتُ لَيلى بَكَيتُها وجاد لها دمع من العين سافح
وأُغْبَطُ من لَيلى بما لا أناله بلى كل ما قرّت به العين طائح
ولو أنَّ لَيلى الأَخْيَلِيَّةَ سلّمت عَلَيَّ ودونى جَنْدَلٌ وصفائح
لَسَلَّمتُ تسليم البَشاشة أَو زقَا إليها صَدًى من جانب القبر صائح

فقال : « زيدينا من شعره يا ليلى . » قالت : « هو الذى يقول » :

حَمامَةَ بَطْنِ الوادِيَيْنِ ترنَّمى سقاكِ من الغُرِّ الغَوادِى مَطيرُها
أبينى لنا لا زال ريشُك ناعماً ولا زلتِ فى خَضْراء غَضٍ نَضيرُها
وكنتُ إذا ما زُرْتُ ليلى تبرقعت فقد رابنى منها الغَداةَ سُفورُها
وقد رابنى منها صدودٌ رأيته وإعراضُها عن حاجتى وبُسُورها
وأُشْرِف بالقُورِ اليَفَاعِ لَعلَّنى أرى نار ليلى أو يرانى بصيرُها
يقول رجال لا يَضيرك نَأْيُها بَلَى كلُّ ما شَفَّ النفوسَ يَضيرها
بلى قد يَضير العينَ أن تُكثِر البكا ويُمْنَعَ منها نَوْمُها وسرورها
وقد زعمت لَيلى بأنِّىَ فاجرٌ لنفسى تُقاها أو عليها فُجُورها

فقال الحجاج : « يا ليلى ! ما الذى رابه من سُفورك ؟ » قالت : « أيها الأمير ! كان يُلِمُّ بى كثيراً ، فأرسل إلىّ يوماً أنى آتيك ؛ وفَطِنَ الحَىُّ فأرصدوا له . فلما أتانى سَفَرْتُ عن وجهى ، فعلم أن ذلك

لشرٍّ فلم يزِدْ على التسليم والرجوع . » فقال: « لله دَرُّكِ ! فهل رأيت منه شيئاً تكرهينه ؟ » فقالت : « لا والله الذى أسأله أن يُصلحك ، غيرَ أنه قال مرة قولاً ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر ، فقلت :

وذى حاجةٍ قلنا له لا تَبُحْ بها　　فليس إليها ما حَييت سَبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغى أن نخونه　　وأنت لأخرى صاحبٌ وخليلُ

فلا والله الذى أسأله أن يصلحك ، ما رأيت منه شيئاً حتى فرّق الموت بينى وبينه » ، قال : « ثم مه ؟ » قالت : « ثم لم يلبَث أن خرج فى غزاة له فأوصى ابن عمّ له : إذا أتيتَ الحاضر من بنى عبادة فنادِ بأعلى صوتك :

عفا الله عنها هل أبيتَنَّ ليلةً　　من الدّهر لا يَسْرِى إلىَّ خيالُها

وأنا أقول :

وعنه عفا ربى وأحسن حاله　　فعَزَّتْ علينا حاجةٌ لا ينالها

قال : « ثم مه ؟ » قالت : « ثم لم يلبث أن مات فأتانا نَعِيُه » فقال : « أنشدينا بعض مراثيك فيه . » فأنشدتْ :

لِتَبْكِ عليه من خَفاجةَ نِسوةٌ　　بماء شؤون العَبْرة المتحدّر

قال لها : « فأنشدينا . » فأنشدته :

كأن فتى الفِتيانِ تَوْبةَ لم يُنِخْ　　قلائصَ يَفْحَصْنَ الحصى بالكراكر

فلما فرغت من القصيدة قال محصن الفَقْعَسِىّ — وكان من جلساء الحجاج — : « من الذى تقول هذه هذا فيه ؟ فوالله إنى لأظنها كاذبة . » فنظرت إليه ثم قالت : « أيها الأمير ! إن هذا القائل لو رأى توبة لسرّه ألا تكون فى داره عذراء إلاّ هى حامل منه . » فقال الحجاج : « هذا وأبيك الجواب ! وقد كنتَ عنه غنيّا . » ثم قال لها : « سَلى يا ليلى تُعْطَىْ . » قالت : « أعْطِ فمثلك أعطى فأحسن » قال : « لك عشرون . » قالت : « زد فمثلك زاد فأجمل . » قال : « لك أربعون . » قالت : « زد فمثلك زاد فأكمل . » قال : « لك ثمانون . » قالت : « زد فمثلك زاد فتمّم . » قال : « لك مائة ، واعلمى أنها غَنَم » قالت : « معاذ الله أيها الأمير ! أنت أجودُ جوداً ، وأمجد مجداً ، وأوْرَى زَنْداً ، من أن تجعلها غنما . » قال : « فما هى ويحك يا ليلى ؟ » قالت : « مائة من الإبل برُعاتها . » فأمر لها بها ، ثم قال : « ألك حاجة بعدها ؟ » قالت : « تدفع إلىّ النابغة الجعْدِىّ . » قال : « قد فعلت . » وقد كانت تهجوه ويهجوها ؛ فبلغ النابغة ذلك ، فخرج هاربا عائذاً بعبد الملك ، فاتّبعته إلى الشام ؛ فهرب إلى قُتَيْبة بن مسلم بخراسان ، فاتبعته على البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة ، فماتت بقُومَس ويقال : بحُلْوان .

٣٧ — سامرّا

سامرّا مدينة قديمة على الشّاطئ الشرقى لنهر دِجْلَة ، إلى الشمال من بَغداد ، وبينهما نحو ستين ميلاً . وكانت تُسمّى قديماً سُومير ، ويقال لها : سُرَّ مَنْ رَأَى . جَدّد بناءها المعتصم بالله ، واتخذها دار خلافته ، وأضاف إليها الواثق بالله الهارونية ، والمتوكل على الله الْجعفَرِيّة ، فازْدَهَرت وعَظُم قدرها ، وبَقِيَتْ دار الخلافة العباسية نحو سبع وخمسين سنة ؛ أى من سنة إحدى وعشرين ومائتين إلى عهد الخليفة المعْتضِد سنة تسع وسبعين بعد الهجرة . قال صاحب كتاب الفخرى فى سبب بنائها : —

كانت بغدادُ دارَ الملك ، وبها سرير الخلافة من بعد المنصور . إلاّ أن هرون الرشيد أحَبَّ الرّقة[1] بالشام فأقام بها ، ومع ذلك فكانت الرّقّة كالمتَنَزَّه ، وقُصوره وخزائنه ونساؤه وأولاده ببغداد ؛ بقصر الْخُلْد . ومن ولى بعده من الخلفاء كان سرير ملكهم ببغداد .

فلما كانت أيام المعتصم ، خاف مَنْ بها من العسكر ، ولم يَثق بهم ، فقال : « اطلبوا لى مَوْضِعاً أَخْرج إليه ، وأبنى فيه مدينة ، وأعسكر به ؛ فإن رابنى من عساكر بغداد حادِث كنتُ بنجْوَةٍ ،

(١) الرقة : مدينة مشهوره على الجانب الأيسر للفرات بولاية حلب ، وتسمى الرقة البيضاء . كانت بقربها على الجانب الأيمن وقعة صفين سنة ٣٧ هـ .

وكنتُ قادراً على أن آتيهم فى البر وفى الماء . » فوقع اختياره على سامرا ، فبناها ، وخرج إليها .

وقال إن المعتصم استكثَر من المماليك ، فضاقت بهم بغداد ، وتأذّى بهم الناس ، وزَاحموهم فى دورِهم ، وتعرّضوا بالنّساء ، فكان فى كل يوم ربما قتل منهم جماعة ، فركب المعتصم يوماً فلقيه رجل شيخ ، فقال للمعتصم : « يا أبا إسحق ! » فأراد الجند ضرْبه ، فمنعهم المعتصم ، وقال له : « مالك يا شيخ ؟ » فقال : « لا جَزاك الله خيرا عن الجِوار ، جاوَرْناك مدة فرأيْناك شرّ جار ، جِئتنا بهؤلاء العُلوج من غلمانك الأَتْراك ، فأسكَنْتهم بيننا ، فأيْتَمْت بهم صِبْيانَنا ، وأَرْمَلْت نساءنا . والله لنُقاتِلنّك بسهام السَّحَر . » يعنى الدّعاء .

فدخل المعتصم منزله ، ولم يُرَ راكباً إلا فى مثل ذلك اليوم ؛ فركِب وصلى بالناس العيد ، وسار إلى موضِع سامرا ، فبناها . وكان ذلك فى سنة إحدى وعشرين ومائتين . وقد ظلّت سامرا مزدَهِرة عامرة حتى هجَرها الخلفاء ، فأخَذَت تتدَهْوَر ، ويضْعُف شأنها ، ويَحُلّ بها الخراب .

وقد كتب عبد الله بن المعتز إلى بعض إخوانه يصفها ، ويذكر خرابها

كتبتُ إليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها ، وأقعد جُدرانها ، فشاهِد اليأس فيها ينطِق . وحَبْل الرجاء فيها يقصر ، فكأن عُمرانها يُطوى ، وكأن خَرابها ينشر . وقد وُكلت إلى الهجر نواحيها ، واستُحثّ باقيها إلى فانيها . وقد تمزّقت بأهلها الديار ، فما يجب فيها حق جوار ؛ فالظّاعن مِنها مَمْحو الأثر ، والمقيم بها على طرف سفر ، نهاره أرجاف ، وسروره أحْلام . ليس له زاد فيرحل ، ولا مَرْعى فيرْتع ، فحالها تصف للعيون الشّكوى ، وتشير إلى ذَمِّ الدنيا بعد ما كانت بالمَرْأى القريب جَنّةَ الأرض ، وقرارَ الملك : تفيضُ بالجنود أقطارُها ، عليهم أَرْدِية السيوف ، وغلائل الحديد ، كأن رِماحهم قرون الوُعول ، ودروعهم زبد السيول ، على خَيل تأكل الأرض بحوافرها ، وتمد بالنّقْع سائرها . قد نشرت فى وجوهها غررا كأنها صحائف البرق ، وأمْسكها تحجيل كأسورة اللُّجيْن ، فى جيش يتلقّفُ الأعداء أوائله ، ولم ينْهض أواخِره ، وقد صُبّ عليه وقار الصبر ، وهَبّت له روائح النصر ، يُصَرّفُه ملك يَملأ العين جَمالا ، والقُلوب جَلالا . لا تُخْلَفُ مَخيلتُه ، ولا تُنقض مريرته ، ولا يُخْطئ بسهم الرأى غرض الصواب . ولا يقطعُ بمطايا اللّهو سفر الشباب ، قابضاً بيد السّياسة على قطار ملك لا يَنْتشِرُ حَبْله ، ولا يتَشظّى عصاه ،

ولا تُطْفِي جَمْرَته . فى سِنّ شباب لم يجن مَأْثماً ، وشيب لم يراهق هَرَما . قد فَرَشَ مهاد عدله ، وخفض جناح رحمته ، راجِماً بالعواقب الظُّنون ، ساعياً على الحق يعمل به ، عارِفاً بالله يَقْصد إليه ، مقراً للحلم ويبذله ، قادِراً على العقاب ويَعدِل فيه . إذ الناس فى دهر غافل ، قد اطمأنّت بهم سيرة ليِّنة الحواشى ، خَشِنة المرام ، تطيرُ بها أَجْنحة السرور ، ويهب فيها نسيم الحبور ، فالأَطراف على مسرة ، والنظر إلى مبرة ، قبل أن تَخِبَّ مطايا الغير ، وتَسْفِر وجوه الحذر ، وما زال الدهرُ مَلِيًّا بالنَّوائب ، طارقاً بالعجائب ، يؤمن يومه ، ويَغْدِرُ غده .

على أنها — وإن جَفَت — معشوقة السكن ، وحبيبة النوى ، كوكَبها يَقْظان ، وجَوُّها عريان ، وحَصاها جوهر ، ونَسيمها معطر ، وترابها مِسكٌ أَذْفَر ، ويومها غَداة ، وليلها سَحَر ، وطعامها هَنِيء ، وشرابها مرىء وللبقاع دُول ، والدهر يسير بالمقيم ، ويَمْزِج البُؤس بالنعيم ، وبعد اللجاجة انتهاء ، والهم إلى فرجة ، ولكل سابِلة قرار ، وبالله أَسْتَعين وهو المحمود على كل حال .

غدت سُرٌ من رَا فى العَفاء فيا لها ... قِفا نَبْكِ من ذِكرى حَبيبٍ ومَنْزِل
وأَصْبح أَهْلوها شَبِيهاً بحالها ... لما نَسَجَتْها من جنوب وشَمْأَل
إذا ما امْرُؤٌ منهم شكا سُوء حاله ... يقولون لا تَهْلِك أَسًى وتَجَمَّل

٣٨ — الهـــوائى

إن أول ما يجذب النظر من أجهزة الإذاعة تلك العمد الطويلة المثبتة فى أعالى المنازل ، وهى المسماة « بالهوائيات » ؛ لشدة الاتصال بينها وبين الهواء .

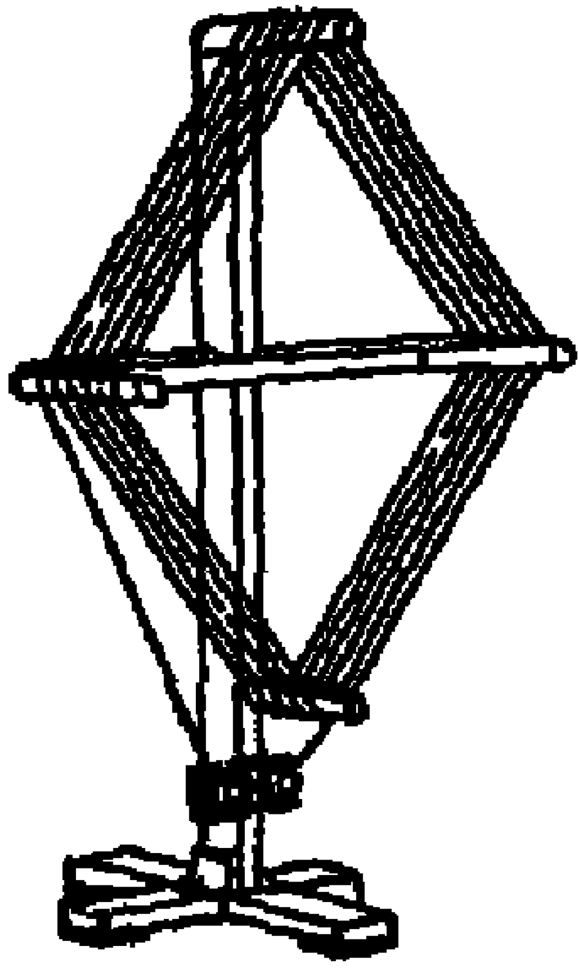
والهوائى يتكون من عمودين من الخشب مثبتين من أسفل بسطح المنزل ، أو الســـفينة ، ومتصلين من أعلى بسلك نحاسى معزول عنهما بقِطَعٍ من الصينى ، وهى موضوعة بشكل ونظام خاص . ويمتد منه سلك آخر إلى جهاز الاستقبال « المذياع » ، وهذا الشكل من الهوائيات هو أحد أنواعها المختلفة باختلاف جهاز الاستقبال ، أو أمكنته ؛ من سطح منزل ، أو من سفينة أو طائرة .

ولعل الهوائى هو أهم جزء من أجزاء أجهزة اللاسلكى ؛ إذ به يمكننا أن نزيد من شدة الصوت أو نخفف من حدته .

الهواء والأذن :

لقد فَطَر الله الإنسان على التفكير فى الكائنات ، وحثه على التدبر والتأمل فى كل شىء ، حتى فى نفسه التى بين جنبيه ، فهداه البحث إلى أن يتخذ من أجزاء جسمه مثالا يحتذيه فى مخترعاته .

فهذا الهوائى نجد بينه وبين الأذن شبهاً قوياً ، واتصالا متيناً ، ولا سيما ذلكم الجزء الناتئ منها المعروف بالصوان . فهو حاجز طبيعى يحول دون تشتت الموجات الصوتية . وهو يجمعها ويعكسها نحو طبلة الأذن فينشأ عنها اهتزازات تُتَرجم بعدُ إلى أصوات وكلمات — وإننا لنتبين جليل فائدته عند سماعنا الأصوات الخافتة ، إذ نضع أيدينا خلف آذاننا لتحجز أكبر ما يمكن حجزه من الموجات الصوتية ، فيزداد بها الصوت شدة ووضوحاً .



هوائى اطـارى

ولقد فطن الناس إلى هذه الفكرة القيمة — لا سيما من كان منهم ضعيف السمع ، فوضعوا على آذانهم صُوانات مصطنعة أو أبواقاً صغيرة لتجمع تلك الموجات الصوتية التى يكسب بها الصوت الشدة والوضوح .

وهذا هو عمل صِوَان الأذن ، وتلك قيمته ، وهو نفسه عمل الهوائى ؛ إذ أنه يجمع الموجات الصوتية الخاصة باللاسلكى ، ويأتى بها إلى جهاز الاستقبال فيترجمها إلى أصوات وكلمات . وإن كان من

الممكن استعمال جهاز الاستقبال بدون هوائى ، فالصوت حين ذاك يكون ضعيفاً خافتاً .

هذه المشابهة بين الأذن والهوائى ليست تامة مستوعبة من كل الوجوه ؛ فالأذن قادرة على التقاط الأصوات المختلفة — على الرغم من اختلاف أبعاد موجاتها ؛ ولذلك نجد أننا نسمع الأصوات المختلفة الصادرة من الباعة ، وجلبة السيارات ، وغيرها فى الوقت الواحد ، مع أن موجات أصواتها بعضها أطول أو أقصر من موجات البعض الآخر ، وإننا لنسمع جميع النغمات الموسيقية الصادرة من « البيانو» على التتابع أو فى وقت واحد ، مع اختـــلاف أطوال موجاتها الناشئة عن حدة صوت بعضها أو ارتفاعه ، أو ضعفه وخفوته . ولو كان الأمر كذلك مع الهوائى ، لاختلطت هذه الموجات اللاسلكية الصادرة عن محطات الأذاعة المنبثة فى أنحاء العالم ، ولتعذر علينا عزل موجات كل محطة على حدة

من هنا كانت مهمة الهوائى وميزته ، فالموجات اللاسلكية تملأ الأثير ، مع تنوعها واختلافها ، ولـكن الهوائى ، أو المذياع ، بمساعدة بعض أجزاء فى دائرة « التوليف » ، يَنْتَخِب ويختارُ الموجات ذات الطول الخاص فى الوقت الواحد ؛ فالمستمع لمحطة الأذاعة المصرية

يلتقط جهازه الموجات الخاصة بهذه المحطة ، والتي طولها ٤٨٣,٩ متر ، هذا مع أن معها كثيرا من الموجات الأُخرى التي تذيعها مئات المحطات المختلفة ، والتي تختلف أطوالها من خمسين مترا إلى ألفين من الأمتار.

وزيادة في التوضيح : نتصور أن شخصاً وسط مئات من أمثاله يتكلمون في وقت واحد ، فأنه يسمع ضجيجاً ناشئاً عن اختلاط الموجات المختلفة ، وتأثيرها جميعها في الأذن في وقت واحد ، فلا يمكنه – والحال هذه – أن يميز كلام شخص من كلام الآخر . ولكنّ الهوائي له القدرة على اختيار موجات محطة واحدة ، وترك ما عداها من موجات المحطات الأخرى . وهي ميزة كبيرة ، ذات شأن خطير؛ إذ لولا ذلك لاختلطت علينا أصوات الموجات المختلفة ، وما سمعنا إلا ضجيجاً وضوضاء . على أن ذلك يحدث أحياناً عند ما تماكس إحدى المحطات محطة أخرى ، فتجعل طول موجاتها مساوياً لطول موجة المحطة الأخرى ، فنسمع ما يذاع من المحطتين في وقت واحد ، فيختلط ما يذاع من الأولى بما يذاع من الأخرى . فلا يتميز أحدهما – إلا إذا كانت إحدى المحطتين أقوى من الأخرى ، فنسمع عند ئذ صوتاً قوياً من المحطة القريبة أو القوية ، يختلط به صوت ضعيف هو صوت المحطة البعيدة أو الضعيفة .

٣٩ — مختارات فى الوصف

(١) قال رجل من بنى الحرث بن كعب يصف الشمس :

مُخَبَّأَة أما إذا اللَّيـــل جَنَّها فَتخفى وأما بالنهار فَتَظْهَرُ
إذا انْشَقَّ عنها ساطِع الفجر وانْجَلَى دُجَا الليل وانْجابَ الحجاب المسَتَّرُ
وأُلبِسَ عرضُ الأرض لوناً كأَنَّهُ على الأُفُق الشَّرقىّ ثوب مُعَصْفَرُ
تجلَّتْ وفيها حين يَبْدو شعاعها ولم يَحْلُ للعين البَصيرة مَنظَرُ
عليها كدِرْعِ الزَّعْفران يَشِبُّهُ شُعاعُ تلالا فهو أبيض أَصْفَر

* * *

فلما عَلَتْ وابْيضَّ منها اصْفِرارُها وجالَتْ كما جالَ البَهِيج المسيَّرُ
وجلَّت الأفاق ضوءا بنُورِها نخرَّ لها وجه الضُّحا يتسَعَّر
ترى الظِّل يُطْوى حين تبدو وتارَةً تراه إذا زَالت عن الأرض يُنشر
كما بدأت إذ أشْرقَت فى مغيبها تعودُ كما عَادَ الـكبير المعمَّر
وقد شفَّ حتى ما يكاد شُعاعها يَبين إذا وَلَّت لمن يَتَبَصَّر
فأَفْنَت قُرونا وهى ذاك ولَم تزَلْ تموتُ وتَحْيا كل يوم وتُنْشَرُ

(٢) وقال عبد الملك بن مروان لبعض جُلَسائه يوماً:

« ما أحكمُ أربعة أبيات قالتها العرب فى الجاهلية ؟ » فأنشده :

منع البقاء تقلب الشمس　　وطلوعها من حيث لا تُمْسى
وطلوعُها بَيْضاء صافِيَة　　وغُروبها صَفْراء كالوَرْس
تَجْرى على كَبِدِ السَّماء كما　　يَجْرى حِمام الموت فى النَّفْس
اليومُ يُعلم ما يَجِيء به　　ومضى بِفَصْل قَضائه أمْس

قال : « أَحْسَنْت ! فأَخْبِرنى بأَمْدَح بيت قالته العرب فى الشجاعة. » قال : « قول كعب بن مالك الأنصارى :

نَصل السُّيوف إذا قَصُرن بخَطْوِنا　　قُدُماً ونُلْحِقها إذا لم تَلحَق

قال : « فأخبرنى بأفضل بيت قيل فى الجود . » فأنشده لحاتم طيء :

أماوىّ ما يُغْنِى الثَّراء عن الفَتى　　إذاحَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بهاالصَّدْرُ
أماوىّ إن يصح صداى بقَفْرَةٍ　　من الأرض لا ماء لدىّ ولا خمر
تَرى أنَّ ما أَبْقَيْتُ لم أكُ ربه　　وأن يَدى مما بخلتُ به صِفر
ألم تر أن المالَ غادٍ ورائحٌ　　ويَبْقى من المال الأحاديثُ والذكرُ
غَنِينا زماناً بالتَّصَعْلُك والغِنى　　فكُلاًّ سَقاناه بكأسَيْهما الدهر
فما زادَنا بَغْياً على ذى قَرَابة　　غنانا ولا أزرى بأحْسابِنا الفقر

قال : « فأخبرنى عن أحسن الناس وصفاً . » قال : الذى يقول :

كأَنَّ قُلوبَ الطَّيْرِ رَطْباً ويابِساً لَدى وَكْرِها العُنَّاب والحَشَفُ البَالى

والذى يقول :

كأَنَّ عُيونَ الوَحْشِ حَوْلَ خِبائِنا وأَرْجلِنا الجَزْعِ الذى لم يُثَقَّبِ

والذى يقول :

وتعرِف فيه من أبيه شَمائِلا ومن خَاله أومن يزيد ومن حجر
سماحةَ ذا مع برّ ذا ووفاء ذا ونائل ذا إذا صحا وإذا سكر

يريد امرأ القيس .

(٣) وصْف الشُّروق والغُروب

ألفاظ لبعض الأدباء فى طلوع الشَّمس وغُروبها وممنوع النَّهار وانْصِرافه، وابتدائه وانْتِهائه:

— بدا حاجِبُ الشَّمس ، وَلَمَعَت فى أَجْنِحة الطير .

— كشفت الشمس قِناعَها ، وَنَشَرَت شُعاعها ، وارْتَفع سُرادِقُها ، وأضاءت مَشارِقُها .

— انْتشر جناحُ الضَّوء فى أفق الجو .

— استوى شباب النهار ، وعلا رَونَق الضُّحا ، وبلغت الشمس كبد السماء .

— اشتعل كل شيء ظله ، وقام قائِم الهاجرة ، ورمَت الشمس بجمرات الظهر .

— اصفرت غِلالة الشمس ، وصارَت كأنّها الدينـار يَلْمَعُ فى قرارِ الماء ، ونَفَضَت تِبْراً على الأصيل ، وشَدَّت رَحْلها للرّحيل .

— شابَ النّهار ، وأقبلَ شَباب اللَّيل ، ووقَفَت الشمس للغيار ، وشافَه الليل لسان النهار .

— الجو فى أَطمار مُنهَجة من أَصائِله ، وشفوف مورّسة من غلائله .

— استتر وجه الشمس بالنِّقاب ، وتوارت بالْحِجاب .

— كان هذا الأمر من مَطلَع الفَلَق ، إلى مَجْمع الغَسَق .

— فلان يركب فى مقدمة الصّبح ، ويرجع فى ساقة الغَسق ، ومن حين تفتح الشمس جفنها ، إلى أن تُغمض طرفها ، ومن حين تسكن الطير فى أوكارها ، إلى حين تنزل المرأة من أكوارها .

٤٠ — المتحف العسكرى
فى إسطنبـــــول

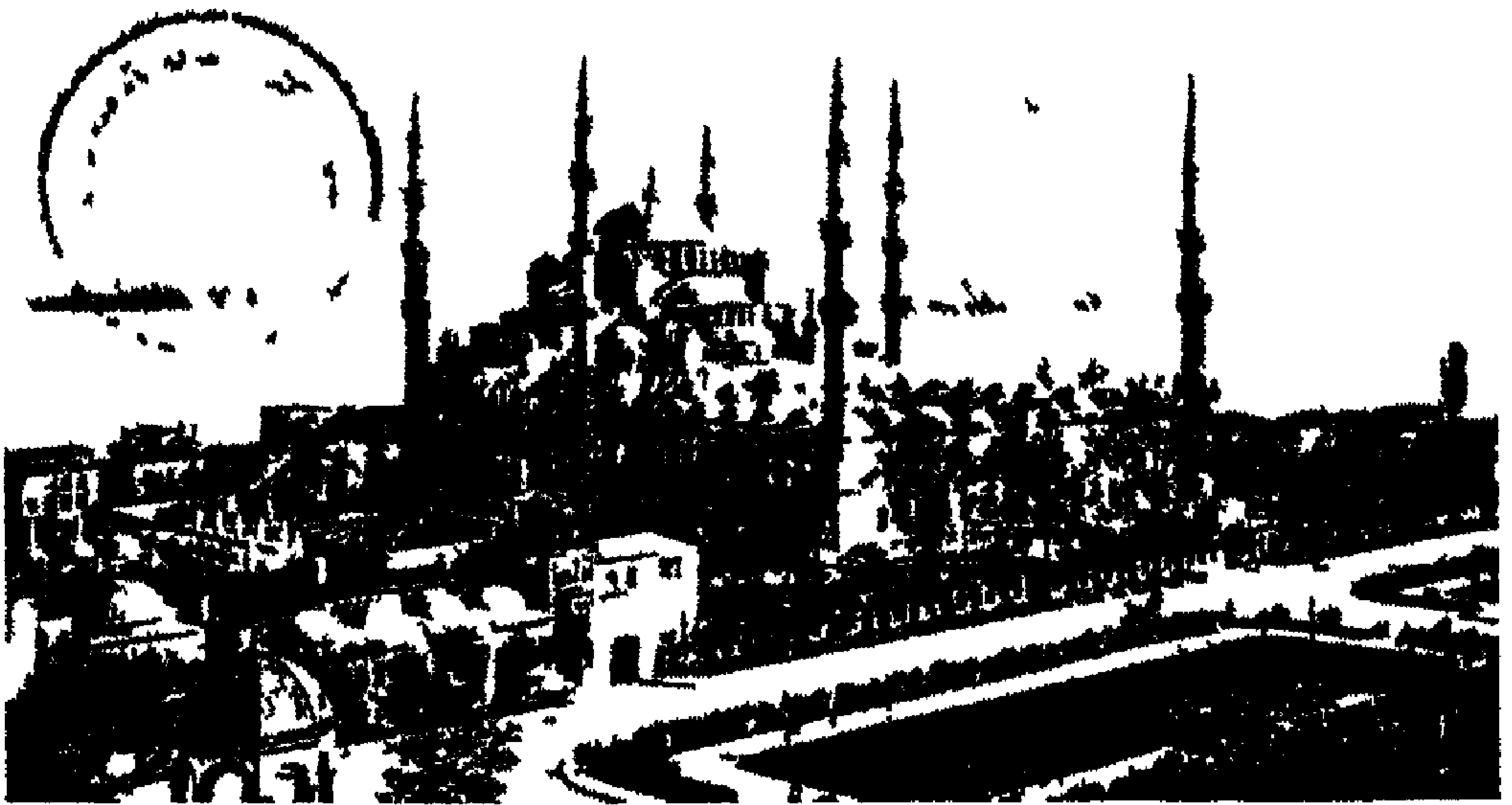


جسر غلطة فى اسطنبول

من رسالة إلى صديق

خرجْتُ من مَسْكَنى فى (تقسيم) أَؤُمُّ المتحف العسكرى . فلما أجَزْنا الجِسْرَ — جسر غلطة . شرعت السماء تُرذِّنا ، حتى إذا بلَغْنا ساحة أَيا صُوفيا ، وملْنا شَطْر قصر « طوب قبو » انْهمَرَ المطر فأوينا إلى الباب ، وهو باب شاهِق واسِع عليه الطغراء السلطانية ، يمتد على جانبه سورٌ عال كأسْوار القِلاع . أوينْا إليه مع من ألجأهم المطر ، وازدادَ المطر انْهِماراً فطال بنا الوُقوف . ولست أنسى مَشْهداً رائِعاً شهدته

هنالك : إلى اليسار سبيل السلطانُ أحمد ، فى جمال هندستهِ وحُسنِ نقْشهِ ، وحِلًى تَتَجلى فيها أبيات من الشعر أطافَتْ به ، وإلى اليمين جامع أيا صوفيا يبدو جانب من قبته ، ومِئْذنتان من مآذنه الأربع . وأمامى على بعد جامعُ السلطان أحمد ، فى جلال قبابه وَجمال بنائه ، قد عَلتْ قُبَّتَه ومآذنَهُ السّتَ أَهِلَّةٌ ذهبيَّة يزيدها المطر اشتِمالاً . وهيهات أن تَذْهب بنور التَّوحيد سُدَف الدَّجْن أو شآبيب المطر .



جامع السلطان أحمد

وجامع السّلطان أحمد أجمل جوامِع إسْطَنْبول فى رأيى ، وأكثرها إضاءة فى قلب الداخل وعينه ما يزال الطرف يَتقلب بين جُدرانه وأساطينه وقبابه حتى إذا بَهَره الجمال والجَلال استَرَاح إلى مرأى البحر

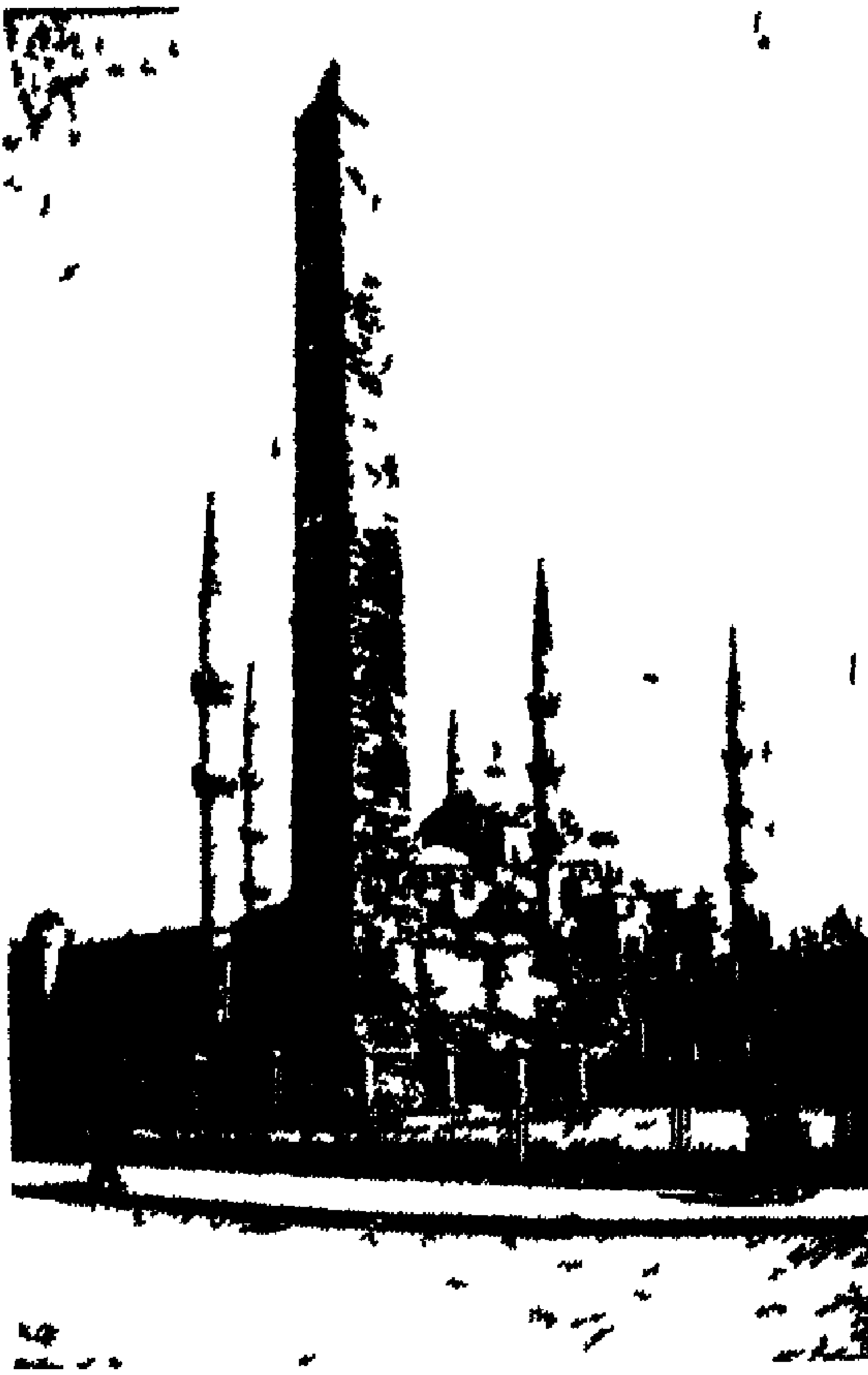
من خِلال النّوافذ الزُجاجِيّة الجميلة . وقد دخَلتُه قبل ثمانى سنين ، فلما رأيت هذه الأساطين الأربع الماثلة قلت : « يا لك ! أربعة أساطين حَمَلت الدنيا والدين . »

خَفّ المطر فأسرعْنا صوْبَ المتحف العسكَرِى فإذا هو مقفل إلى الظهر ، فأوَيْنا إلى باب « الضربخانه » .

ولما أذِن المطر بالمسير انْصَرَفنا نسير فى أرجاء المدينة . ثم عُدنا إلى المتحف ، وهو فى كنيسة قديمةٍ اسمها « سنت أرينا » ، رُصّت خارجه مدافع كثيرة جاهَدْت فى عصور مختلفة . فيها مِدْفع كبير بجانبه قذائف مكوّرة من الحجر ، وفد نُقِش عليه بالعربية بَيْتان يَدُلّان على أنه من مدافِع السلطان سليمان ، وأنه صُنِع سنة ٩٢٨ ﻫ . وهنالك مدافع أخرى نُقِش عليها أسماء صانِعيها ، وأمام المدفع قُنبلة سوداء مخروطيّة طويلة ، هى بعض ما ألقاه الأسطول الإنكليزى على الجيوش العثمانية ، حينما سَدّت طريق الدّرْدَنيل بأبْدانها وإيمانها .

وَلَجْنا الباب فإذا دِهْليز على جانِبَيْه تِمالان لجنديّين دارعين من انكشاريّه القرنين الثامن والتاسع من الهجرة . ثم سَلَكْنا الدّهْليز بين بنادِق كثيره من صُنْع القرن الماضى والقرن الحاضر .

ولست أستطيعُ ولا أستَحْسِن أن أُصوِّر لك كل ما رأيت فى هذا المعرِض العظيم من تاريخ الصِّناعات ومَجْـد العثمانيين وعبر التاريخ ؛ أكداس من الوقائع والعبر ، يضيق عنها الفكر والنظر — وإنما أصف لك ما غلب على الذاكرة من بينها :


المسلة المصرية عند جامع السلطان أحمد

المتحف كنيسة قديمة تقوم على ساحتهـا قُبَّة كبيرة عالية ويدورُ بها طبقتـان من الأرْوِقَة — سِرْنا فى الرِّواق إلى اليمين ودُرْنا معه ، فإذا بَنادِق ومَدافِع وآلات حربية كثيرة ، ومناظِر لبعض الحروب — حتى انْتهَيْنا إلى سيارة فى نوافذِها ثقُوب ، فهذه السيارة التى قتل فيها المرحوم محمود شَوْكَت باشا ، وهو صدرٌ أعْظم فى عهد السلطان محمد الخامس . وبعدها صور وآثار كثيرة لمتأخِّرى القُوَّاد العثمانيين : مصطفى باشا ومختار الغازى وأنور وغيرهم . ثم خرجنا إلى وسط الكنيسة فرأينا فى صدْرِها صورة الغازى مصطفى كمال باشا ، بجانِبها أنواعٌ من الأسلحة القديمة

والحديثة . وسِرْنا قليلاً فإذا دِرْعٌ قديمة تتخطّاها العين غيرَ حافِلة ، حتى إذا أوقفها التّطَلّع قرأتْ عليها : « دِرْع الفاتح » ، فأخذها جلالُ الذّكرى ، وأدْرَكَت فرق ما بين المظاهر والحقائق . وبجانب الدرع سيوف من ذلك العهد ، وتروس مُحْكَمَة الصُّنع ، منها ترس محمود باشا أحد الصُّدور فى عهد الفاتح ، وترس يعقوب جلبي ابن السلطان مراد الأول . ويقال إن السلطان بايزيد أمرَ بقتْله وهو يتعقّب العدو فى موقعة قوصوه الأولى سنة ٧٩١ . ثم سيوف لسليمان القانونى فيها سيف كُتِبَ عليه :

« على الله فى كل الأمور تَوَكّلى ، وبالخمس أصحاب العباء توسّلى »

ورأينا بعد هذه خُوذات أهداها نابليون إلى السلطان سليم الثالث ، وعلَماً رفَعه العثمانيون فى موقعة قوصوه الأولى ، ثم مُخَلّفات السلطان عبد الحميد . وهكذا تُطوى العصور فى لَمَحات ، فالفاتح وبايزيد وسليم وعبد الحميد طَوامِ التاريخ فى سجِلّه ، وجمعهم الزمان فى مَعرِضه ، فدارَ بهم الزّائر فى خَطوات ، وحواهم الطرف فى نَظَرات ، وقبض الدهر هذه العصور المتطاولة فى كلمة واحدة هى : « الماضى » .

وفى الدّهْليز الذى إلى اليمين سِنان رُمْح كان للإمبراطور جُسْتِنْيان ، وبركارٌ كان للمعمار سنان . قلت لنفسى : « شتان ما بين السّنانين ؛ هذا للحرب والفَناء ، وهذا للعُمران والبقاء ، قد فَنِيَت آثارُ سِنان

جُسْتِنْيان وللفناء كان طِمانه ، وبَقِيَتْ آثار بركار سنان وللبَقاء كان بُنْيانه ، وحسب سنان خلوداً هذا الجامع الرّائع ، والأثر العظيم الذى يَدُلُّ على الصانع : جامع السلطان سليمان . على أن هـذه اليد الماهِرَة المُعمِّرة شيَّدت فى أرجاء المملكة أربعمائة بناء (عمر المعمار سنان أكثر من مائة عام وتُوُفِّى سنة ٩٩٦ هـ ، ودُفِنَ فى الجامع الذى يُنْسَبُ إليه فى إسْطَنْبول) . وبعد هذين صورة تُمَثِّل الأمير البطل عبد القادر الجزائِرىّ ، وهو يُقابل القائد الفرنسى بعد معاهدة سنة ١٨٣٨ م .

وفى الطبقة الثانية تماثيل كثيرة تمثل رِجال الدولة وخدم الملوك فى أزْيائهم القديمة ؛ فهذا شَيْخُ الإسلام على أريكة قد جَلَس أمامه أعوانه ، وهذا قاضى العَسْكر بجانبه قاضى مكة وآخرون ، وهذا أغا دار السعادة ، وهذا قزم كان يُضْحِك السلاطين . وهذه صور الإنْكِشاريّة فى أزيائِهم العَجيبة ، وهذا الجلّاد واقفاً كالقضاء يُنَفِّذُ أمر السلطان — صور من التاريخ مُبْكية مُضْحِكة .

وفى هذه الطبقة خرائط مجسمة تمثِّل القسطنطينية وما يُحيط بها ، وألواح فيها آيات من القرآن أو كلمات مأثورة

وبعد فحسبي اليوم هذه السُّطور . ولعلَّ الرسالة الآتية تبلغك عمّا قليل ، والله يَرْعاك والسلام عليك .

٤١ ــ القاضى المهـــذب

أبو محمد المِصرِىّ الحسن بن على الملقب بالقاضى المهذَّب — كان من أهل أسوان ، وتأدَّب فى مصر ، ونبغ فى الأدب حتى صار من أعلام الكُتّاب ، واتّصل بطلائِع بن رُزّيك الملقَّب بالملك الصالح وزير مصر فى أيام الفائز الفاطِمىّ والعاضد من بعده ، ونفقَت بضاعته عنـده ، وسمَت منزلته لديه . صنَّف كتاب الأنساب فى عشر مجلدات ، وهو كتاب نَفيسٌ يدل على جودة قريحة مؤلفه ، وكثرة اطِّلاعِه . وتُوفِّىَ فى ربيع الآخر سـنة إحدى وستين وخمسمائة بمصر .

وكان له أخ يُسمى الرّشيد ، كثير المطامع ، مضى إلى اليمن ، وادَّعى الخِلافة فيها ، فنَمى خبره إلى المعروف بالدَّاعى هناك ، فقبض عليه ، وهمّ بِقَتْله ، فكتب المهذّب إلى الداعى بقصيدة يمدحه ويستَعْطِفُه حتى أطْلَقه . ومن هذه القصيدة قوله :

ما كان بعدَ أخى الذى فارَقْته — ليَبوحَ إلا بالشّـكايةِ لى فمُ
أقوَتْ مغانيه ، وعُطِّل ربْعُه — ولربَّما هجَر العرينَ الضَّيْغَمُ
ورمَت به الأهْوالَ همَّة ماجد — كالسَّيف يُمْضى عَزْمَهُ ويُصَمِّمُ

يا راحِلاً بالمجـد عنّا والعُلا — أتُرَى يكون لـكم إلينا مَقْدَم
يَفديك قوم كنت واسِطَ عِقْدِهم — ما إن لهم مُذْ غِبْتَ شمْل يَنْظَم
لك فى رِقا بِهم وإنهم أنـكروا — مِنَنٌ كأطْواق الحمام وأنْعُمُ
واعْتَضْتَ بعدهم بأكْرم معشر — بدءوا لك الفِعل الجميل وتمّموا
فلعَمْرُ مجدِكَ إن كرمت عليهم — إن الكريم على الكريم مُكَرّمُ

*
* *

أقْيَالُ بأسٍ خير من حَملوا القَنا — وملوك قَحطان الذين هُمُ هُمُ
متواضعون ولو ترى نادِيهم — ما اسْطَعْتَ من إجلالهم تتكلم
وكَفاهُم تشرفاً ومَجْداً أنّهم — قد أصْبَحَ الداعى المتوَّج منهم
هو بدر تِمّ فى سماء عُلاهم — وبنوْ أبيه ، بنو رُوَيْع ، أنجم
ملك حِماه جنـــة لعُفاته — لـكنه للحاسِدين جَهَنّمُ
أُثْنى عليك بما مَنَنْتَ وأنت من — أوصاف مَجْدِكَ –يا مليكا– أعظم
فاغْفِر لى التقْصير فيه وعُدَّهُ — مع ما تجود به علىّ وتُنعِمُ



٤٢ — المقامة الوعظية

لبديع الزمان الهمذانى

حدثنا عيسى بن هِشام قال : « بَيْنا أنا بالبَصْرة أميسُ، حتى أدّانى السير إلى فُرضة ، قد كَثُر فيها قوم على قائم يعظهم وهو يقول : « أيها الناس ! إنكم لم تُتركوا سُدًى ، وإن مع اليوم غَداً . وإنكم وارِدو هوّة ، فأعِدّوا لها ما استطَعْتم من قُوّة . وإن بعد المعاش مَعادا ، فأعِدّوا له زاداً . ألا لا عُذر فقد بُيّنت لكم المَحَجّة، وأُخذت عليكم الْحُجّة : من السماء بالْخَبَر، ومن الأرض بالعِبَر . ألا وإن الذى بدَأ الخلق علياً ، يُحيي العظام رَميما . ألا وإن الدنيا دار جَهاز، وقنطرة جِواز ، من عبرها سَلِم ، ومن عمَرها ندم . ألا وقد نَصبت لكم الفَخّ . ونثَرت لكم الْحَبّ ، فمن يرتَع يقع ، ومَن يلقُط يَسْقُط ، ألا وإن الفقر حِلية نبيكم فاكتسوها ، والغنى حُلة الطغيان فلا تلبَسُوها . كَذبت ظنون المُلحِدين ، الذين جَحَدوا الدين ، وجعلوا القرآن عِضِين . إن بعد الحدَث جدَثا ، وإنكم لم تُخلَقوا عبثاً ، فحَذارِ حَرّ النار ، وبَدَارِ عُقبَى الدار . ألا وإن العلم أحسن على عِلاّته ، والجهل أقبح على حالاته . وإنكم أشقَى من أظلّته السماء ، إن شقِىَ بكم العلماء . الناس بأئمتهم ، فإن انقادوا بأزِمّتهم ، نجَوْا بذِمتهم ، والناس رَجُلان :

عالم يرعَى ، ومتعلِّمٍ يسعَى ، والباقون هامِل نمام ، وراتِع أنعام . وَيلُ عالٍ أُمِرَ من سافله ، وعالِمٍ شيء من جاهله ، وقد سمعت أن على بن الحسين كان قائمًا يعظ الناس ويقول :

يا نفسى ! حتّام إلى الحياة رُكونُك ؟ وإلى الدنيا وعمارتها سكونك ؟ أما اعتبَرتِ بمن مضى من أَسلافك ؟ وبمن وارَته الأرض من أُلاّفك ؟ ومن فُجِعتِ به من إخوانك ؟ ونقل إلى دار البِلى من أَقرانك ؟

فهم فى بطون الأرض بعد ظهورها محاسنُهم فيهـــا بَوالٍ دواثرُ
خلَت دورهم منهم وأَقوتْ عِراصُهم وساقتهم نحو المنـــايا المقادِر
وخلّوا عن الدنيا وما جمعوا لها وضمّتهم تحت التراب الحفائرُ

كم اختلست أيدى المَنون ، من قرون بعد قرون ، وكم غيّرت بِبِلاها ، وغيّبت أكثر الرجال فى ثَراها .

وأنت على الدنيا مُكِبٌّ مُنافس لخُطّابها فيها حريصٌ مُكاثِرُ
على خطَر تمشى وتُصبح لاهيا أتدرى بماذا لو عقَلْت تُخامِرُ
وإنّ امرأً يسعى لدنياه جاهداً ويَذهَلُ عن أُخراه -لاشك- خاسِرُ

اُنظر إلى الأمم الخالية ، والملوك الفانية ، انتسفَتْهم الأيام ، وأفناهم الحِمام ، فامّحت آثارهم ، وبقِيَت أخبارهم :

فأضْحوا رميما فى التراب وأقفرَت مجالِسُ منهم عُطِّلت ومقاصِرُ
وخلّوا عن الدنيا وما جمعوا بها وما فاز منهم غيرُ مَن هو صابر

وحَلُّوا بدار لا تَزاوُرَ بينهم وأَنَّى لسُكَّان القبور التَّزَاور
فما إِنْ ترى إلا رُموساً ثوَوْا بها مُسطَّحة تَسفِي عليها الأعاصِرُ

كم عاينتَ من ذى عِزَّة وسلطان ، وجنود وأعوان ، قد تمكَّن من دُنياه ، ونال منها مُناه ، فبنى الحصون والدَّساكر ، وجمع الأعلاقَ والعساكر .

فما صرَفت كفَّ المنيَّة إذ أتت مُبادرة تهوِى إليــه الذَّخائرُ
ولا دفعَت عنه الحصونُ التى بنَى وحَفَّت بها أنهارها والدَّساكر
ولا قارَعتْ عنـه المنيَّةَ حيلَةٌ ولا طمِعت فى الذَّب عنه العساكر

يا قومُ الحذَرَ الحذر ! والبِدَار البدار ! من الدنيا ومكائدها ، وما نصبَت لكم من مَصائدها ، وتجلَّت لكم من زينتها ، واستشرفت لكم من بَهجتها :

وفى دونِ ما عاينتَ من فَجَماتِها إلى رَفضِها داعٍ وبالزُّهد آمِرُ
فجِدَّ ولا تَغفُل فعيشك بائِدٌ وأنت إلى دار المَنيَّة صائِرُ
ولا تطلُب الدنيـا فإن طِلابها -وإنْ نلتَ منها رغبةً- لك ضائر

وكيف يحرِص عليهـا لبيب ، أو يُسر بها أَريب ، وهو على ثقة من فنائها ؟ ألا تَعجبون ممّن ينام وهو يخشى الموت ، ولا يرجو الفَوْت ؟

ألا لا ولـكنَّا تُغَرُّ نفوسنا وتشغلها اللَّذَّات عمـا تُحاذِر

وكيف يلذ العيشَ مَن هو موقِنٌ بموقف عَدل حيثُ تُبلى السَّرائر
كأنّا نرى أن لا نُشور وأنّنا سُدًى ما لنا بعد الفناء مصائر

كم غرّت الدنيا من مُخلِد إليها ، وصرَعت من مُكبٍّ عليها ! فلم تُنعشه من عَثرته ، ولم تُقِله من صَرعته ، ولم تُداوه من سَقَمه ، ولم تَشْفه من ألمه :

بلى أوردَته بعد عز ورفعة مواردَ سوء مالهنّ مصادر
فلما رأى أن لا نجاةَ وأنّه هو الموت لا يُنجيه منه المؤازرُ
تندّم لو أغناه طولُ نَدامة عليه وأبكته الذُّنوب الكبائر

بكى على ما سلَف من خَطاياه ، وتحسّر على ما خلّف من دنياه ، حيث لم ينفعه الاستِعبار ، ولم يُنجه الاعتِذار :

أحاطت به أحزانُه وهُمومه وأبلَسَ لمّا أعجزَته المعاذِر
فليس له من كُربة الموت فارجٌ وليس له ممّا يحاذر ناصر
وقد خسِئت فوق المنية نفسُه تُردِّدها منه اللَّهى والحناجر

فإلى متى تُرقِّع بآخرتك دنياك ، وتركَب فى ذاك هَواك . إنى أراك ضعيف اليقين ، يا راقع الدنيا بالدِّين . أبهذا أمرك الرحمن ؟ أم على هذا دلّك القرآن ؟

تُخرِّب ما يبقى وتعمرُ فانيا فلا ذاك مَوفور ولا ذاك عامر

فهل لك إن وافاك حَتفُك بغتةَ ولم تكتسب خيراً لدى الله عاذِرُ ؟
أترضَى بأن تُقْضَى الحياة وتنقضى ودِينُك منقوص ومالُك وافر ؟

قال عيسى بن هشام : « فقلت لبعض الحاضرين : من هذا ؟ » قال : « غريب قد طرأ لا أُعرف شخصه ، فاصبر عليه إلى آخر مَقامته ؛ لعله يُنبئ بعَلامته . » فصبرَت ، فقال : « زَيِّنوا العلم بالعمل ، واشكروا القُدرة بالعفو ، وخُذُوا الصَّفْو ، ودعوا الكَدر ، يغفر الله لى ولكم . » ثم أراد الذَّهاب ، فمضَيتُ على أثَره ، فقلت : « مَن أنتَ يا شيخ ؟ » فقال : « سبحان الله ! لم ترض بالحِلية فغيَّرتها ، حتى عمَدت إلى المعرفة فأنكرتها ، أنا أبو الفتح الإسكندرِى . » فقلت : « حفِظك الله ، فما هذا الشَّيب ؟ » فقال :

نذيرٌ ولكنه سا كِت وصيف ولكنّه شامتُ
وإشخاصُ موت ولكنّه إلى أن أُشيِّعه ثابت

٤٣ — الهاتِف « التليفون »

كان طبيعيًا بعد أن تمّ اختِراع المُبْرِقَة ، وكُلِّلت بحُوثها بالنجاح أن يأتى التفكير فى الهاتِف « التليفون » ؛ إذ أن سُنَّة الوجود التدرج فى الارتقاء .

وأول فكرة خطَرت عن الهاتف طرَأَت لأحد عُمَّال المُبْرِقة « التلغراف » وهو « شارل بورسيه[1] » الذى كان جُندِيًّا فرنسيًا بالجزائر ، ثم اعْتزَل الجندية ، واشْتَغل عاملا فى المبرقة « التلغراف » ، وقد كتب سنة ١٨٥٤ — فى صحيفة باريسيَّة مصورة — مقالاً تحت عنون : « الهاتف الـكهربى » شرح فيه فكرته وضمَّنه آراءه فى هذا الصدد ، ولـكنه لم يحاول إخراجها إلى حيِّز العمل .

وفى سنة ١٨٦٠ وفِّق الأستاذ « رايس[2] » أحد علماء الطبيعة الألمان إلى إختراع أول هاتف « تليفون » بعد أن أَجْرى عِدَّة تجارب ، وبنى عِدَّة أجهزة ، محتذِيًا فيها تركيب الأُذُن . وقد عُرِضَت أجهزته هذه بألمانيا ، وإنجلترا ، ولـكنها كانت غير وافية بالغرض المقصود منها ؛ إذ كانت تسمَح بإرسال النَّغَمات الموسيقية ، وتعجِز أحيانًا عن

---

(1) Charles Bourseul (2) Professor Philipp Resiss

إرسال كل الكلمات . ولو أنه أُعطِي الفرصة فمنحته أمته بعض التشجيع لاستطاع تلافى هذا النقّص ، ولكنه لم ينل كلمة استحسان حتى طُوِيت صحيفة حياته ، ومات سنة ١٨٧٤ فقيراً معدماً خامل الذكر ، إلى أن تَنبّهت الحكومة الألمانية بعد ذلك إلى خطئها ، وأدْرَكت فضل الرجل ، فأقامت له نصباً تذكاريًا فى مقابر « فريد ريكسدورف[1] » تخليداً لذكره ، واعْتِرافاً بأنه أول مُخْترع للهاتف « التليفون » ونقِش عليه ما يتضمّن ذلك .

جراهام بل :

وفى سنة ١٨٦٨ أحضر أحد علماء الطبيعة نموذجاً من هاتف « رايس » إلى أمريكا ، وعرضه على بعض علماء الطبيعة فى نيويورك ، ووصفَه فى إحدى الصحف العِلْمِية ، فأثار بذلك اهتمام العلماء ، ومنهم « جراهام بل » الذى سجّل اختراعه للهاتف الشائع استعماله الآن بوصفه مستقبِلا سنة ١٨٧٦ .

وُلِدَ « جراهام بل » فى بلدة « إدِنْبرَه » بإسكُتْلَندا مع أخوين له ، وكان والده يحتَرِف مِهنة التّدريس للبُكْم — أخذها عن أبيه ، وما إن تقدّمت الأيام بأخويه حتى اغتالهما مرض السّلّ ، وفى سنة ١٨٧٠

---

(١) Friedericksdorf

تسرَّبت عدوى هـذا المرض الخبيث إلى « جراهام بل » نفسه ، فارْتحل إلى أمريكا سنة ١٨٧٢ ، وقضى بها عاماً يستمتِع بالهواء الطلق ، وأشعّة الشمس الدافئة ، حتى تم شفاؤه وبرئ من هذا المرض الوبيل ، واستطاع أن يُباشِر عمله فى بلدة « بوستـــون » ، فاحْترف مهنة والده وجده لأبيه ، وحاوَل أن يرتفع بهـا إلى درجات الـكمال ويُدخِلَ على طرقها ما شاء من ضروب التحسين ، ويبنيها على دعائم علمية متينة ؛ فدرس علم الصوت ، وشُغِفَ ببحوث تأثير الصوت فى اللّهب الحساس ، وكان يَهْوَى علم الـكهربية ، حتى إنه كان يتملّـكه العجب من طريقة « أديسون » فى إرسال عدة إشارات برقيّة على سلك واحد . وقد كانت مشاهدته لهاتف « رايس » بَصيص نُور هـداه إلى اخْتراع هاتفه ، بعد أن أجرى لذلك عدة تجـارب وبحوث فى المغناطيس الـكهربىّ ، والأُذُن وَطبْلتها ، حتى وُفِّق أخيراً إلى فـكرته سنة ١٨٧٤ ، وحقّقها بعمل أول جهاز من أجهزته فى يونيو سنة ١٨٧٥ .

وقد أجرى أول تجربة فى حانوت أحد أصدِقائه ، الذى كان يهوى الـكهربية ويُتاجِر فى أجهزتها ، فوضَع « جراهام بل » المرسِل فى الطبقة الأولى ، ووضع المُسْتَقبِل فى السّرْداب ، وأرسل أحد مساعديه إلى السّرداب ، وتـكلّم هو أمام الجهـــار المرسل قائلا : » هل تسمع

ما أقول . ؟ » » وبعد لحظة وجد مساعده يَصْعَد فى السُّلَّم ليخبِره بالنَّبأ السار ، ألا وهو أنه قد سمع ما قال . فيا لها من فرحة عظيمة تهلَّل لها وجه « جراهام بل » ، وامتلأ قلبه فرحاً وبشراً !

أُخذت انتصاراته تتوالى ، ونجاحه يَطَّرِد ، وفى اليوم الحادى عشر من شهر فبراير سنة ١٨٧٦ سجَّل « جراهام بل » ، جهازه الذى بنى فكرة اختراعه على المغناطيس الكهربى ، وفى مارس سنة ١٨٧٦ اعترف له به ، وفى مايو من العام ذاته أَلْقَى فى بلدة « بوستون » محاضرة عظيمة عن موضوع اختراعه أمام أعضاء المجمع الأمريكى للفنون والعلوم .

فى المعرض :

ولكن هاتِف « بل » لم يذع صيته ولم يشتهر أمره إلا فى مَعرِض فيلادلفيا المئوى فى العام نفسه الذى سجّل فيه الاختراع . وقد وضع جهازه فى جهة نائِية من المَعرِض ، فمر عليه القُضاة والمحكّمون قرب غروب الشمس ، وقد كاد التّعب ينسيهم الالتفات إليه ، لولا أن قيّض الله له ما جَدَّد نشاطَهم ، وأثار انتِباههم نحوه ؛ وذلك أن امبراطور البرازيل كان من زائرى المَعرِض ، وكان قد زار الولايات المتحدةَ من قبل ، وتعرّف إلى

« بل » عند ما كان مدرساً ، وقُبَيْل الغروب رأى القضاة الإمبراطور تحيط به حاشيته يتوجه نحو « بل » ، وَيُحيِّيه أحسن تحيَّة ، ويتأمّل جهازه ، وأخذ السماعة وأصْغى إلىٰ ما يقوله « جراهام بل » وينطِق به جهازه ، فصاح قائلاً : « يا إلهى ! إنه يتكلم ! » وما أتمّ الإمبراطور محادثته حتى اقترب القضاة واحداً بعد الآخر يريدون أن يُجَرِّبوا الجهاز ، وكان بين القضاة « السير وليم تومسون » [لورد كلفن] الذى قال عند ما رجع إلى بلاده عن هذا الجهاز : « إنه أعجب ما رأيت فى أمريكا . »

اشْتهر أمر الهاتف ، وذاع اسم « جراهام بل » ما بين عَشِيَّة أو ضُحاها ، وفى صباح اليوم التالى لزيارة الإمبراطور نقل هاتف « جراهام بل » من مكانه النائى الذى كان به إلى أظهر مكان من المعرض .



٤٤ – الإسكندر يندم على قتل صديقه

إسكندر العظيم يثبِّت عرشه وسلطانه وهيبته وكبرياءه فى مقدونيةَ واليونان ، ثم يتوجه تِلقاء آسيا .

الفريقان من اليونان والفرس يلتقيان على نهر « كرانيكوس » الصغير عام أربع وثلاثين وثلثمائة قبل الميلاد ، فيُتاحُ للإسكندر أول فتح فى آسيا ، وتخضع له المدائن حتى « سرديس » فقد دانت له آسيا الصغرى كلها .

ثم يتقدم صَوب الجنوب ، فيجتاز « طوروس » ويسير تلقاء الشام ، وإذا جيش « دارا » – الجيش اللّهام الذى لا يُغلب من قلة – رابض فى طريقه ، وفى سهل « إسوسَ » الضيق – بين الجبال والبحر – تزدحم مئات الألوف فى المعترك ، ويسقط فى البحار مائة ألف من الفرس . ويفر « دارا » ويُنهَب مُعسكره ، وتُؤسر أمه وزوجه وابنتاه . فانظر ! إسكندر قد قهر « الملك الأعظم » ملك الفرس ، الذين طالما نخر اليونان بأنهم احتملوا صَدمتهم ، وردُّوهم عن بلادهم .

يتقدم الفاتح العظيم فيقهر مدن الشام ، وتقاومه « صورُ » ، وتتحدى جبروته وسلطانه ، ثم تخِرُّ أمامه بعد حصار سبعة أشهر ، فيقتل منهم ثمانية آلاف ويُؤسَر ثلاثون ألفاً فيُباعون عبيداً ، ويُصلب على

القلاع ألفان عِبرةً ونكالا ، ذلكم إسكندر الفاتح العظيم ، وذلكم جزاء من يقف فى سبيله .

ويفتتح إسكندر مصر عام اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، ويرفع نسبه إلى أمونَ ، ثم يجمع جنده ويسير إلى العدو الأكبر الملك الأعظم ، يجتاز الفرات ودِجلة إلى حيث يعسكر « دارا » ، وهنالكم على مَقربة من أطلال « نِينَوى » العظيمة التى تندُب مجد آشور الغابر ، وعلى سبعين « ميلاً » إلى الشمال والغرب من مدينة « إرْبِل » ، ليس بعيداً من ملتقى عبد الله بن على العباسى ، ومروان بن محمد خاتمة الخلفاء الأمويين ، حيث سقطت دولة وقامت دولة . هنالكم تراءى الجمعان ، وَعسكر إسكندر تِجاه « دارا » ويشير « برمينيو » على الفاتح المقدونى أن يهاجم عدوه ليلاً ، فيأبى مَجد إسكندر وكبرياؤه فيقول له : « أنا لا أسرق النَّصْر . » ثم يلتقى الجمعان ، وتدور الدائرة على « دارا » وجنوده ، فيفر صوب المشرق .

أرأيت « بابل » العظيمة مدينة السحر والعلم ؟ ها هى ذى تفتح أبوابها لإسكندر ويباركه كَهنتها ، ويطوى الملك الشاب المراحل إلى « سوس » و « إصطَخر » حاضرتى الفرس ، ولا يصمُد لمدينة إلا فتحها ، ولا يعمِد لجيش إلا مزقه .

تمتد الفتوح وَالآمال والنّشوة والكبرياء بإسكندر إلى ما وراء النهر فى طريقه شَطْر الهند ، بعد أن طارد « دارا » حتى عثر به فى الطريق قتيلاً .

إسكندر العظيم فى مدينة « سَمَرقَنْد » عام سبع وعشرين وثلثمائة ، قد طوى المراحل والممالك ما بين « مَقْدُونية » ونهر « سَيحونَ » . هنالك يَنْعَم بالشباب والظَّفَر والمُلك الفسيح ، والكنوز التى لا تُحصى ، والجندَ الذى لا يُعد . إسكندر الآن أعظم ملك فى العالَم كله .

ويدعو أصحابه وقواده إلى مأدُبة فى « سمرقند » . فيأكلون ثم تدور الكأس حتى يثمَل القوم أو يكادوا ، ثم تُتْرَع للملك المظفّر كئوس من الإطراء والإعجاب ، والإجلال والإكبار ، ويغلو المتملِّقون المعَبون فيرفعونه فوق الأبطال جميعاً ، ويدّعون أن أعماله المعجزة لا تكون إلا عن نَسَب إلهى ؛ بل يرفعونه إلى مستوى الآلهة « كهرقل » ، ويشارك الملكُ الشاب فى إعظام مآثره والإعجاب بها ، ثم لا يقنع بما فعل ، فيحمل لنفسه ما نال أبوه من ظَفَر فى آخر عهده ، وينُض من « فيليب » وإن كان أباه . ويَسْخَط المقدونيون من الزراية ببطلهم القديم ، ولكنهم لا ينبِسون و « كليتوس » رابض ينظر إلى إسكندر ومادحيه ساخطاً محماِقاً « كليتوس » أحد قائدى الفرسان ؛ « كليتوس »

الصديق القديم أخو « لانيس » حاضِنة إسكندر التى قُتل اثنان من أبنائها تحت رايتـه . « كليتوس » الذى نجى إسكندر فى معركة « كرانيكوس » حين أبصر أحد الفرس يهوى بسيفه إلى الملك من خلفه ، فسارع كالبرق فضربه بالسيف فقَـدَّه دون رأس الملك . « كليتوس » هذا لم يستطع صبراً على الغَض من « فيليب » ، قال : « ما لهؤلاء المادحين يضعون أقدار الغابرين ؛ ليرفعوا عليهـا مجد الحاضرين ؟ إن « فيليب » كان عظيما . » ثم تأخذه الِحدة فيقول : « ليست مآثره دون مآثر ابنه ، لا ! إن مآثره لأعظم . فقد خلق الرجل لنفسه مُلكاً وجيشاً . وإنمـــا صُلْتَ أيها الملك بما أورثك « فيليب » من ملك ممهّد وجند مدرَّب . إنما ظفِرت بفضل هؤلاء المقدونيين الذين تَحْقِرهم اليـــوم ، وتُقدّم غيرهم عليهم . ألم تقتل « برمينون » العظيم ؟ »

هاج الحاضرون وقذفوا « كليتوس » بالجدل والتوبيخ . وثار ثائر إسكندر الفتى الفاتح الذى سخَّر ملك مصر وبابل وأشور وفارس ، إذ قَرعت أذنه لأول مرة نَبأة ناقد يعترض كلامه ويرد عليـه دَعواه . غضب إسكندر وصاح « بكليتوس » يزجرُه ويجادله . وانحاز الحاضرون للملك المعجَب بنفسه ، و « كليتوس » كالأسد يُزمجر ويرد الـكلمة

بمثلها ، ثم ينتفض قائمًا ، ويصيح مادًّا يده إلى الملك « أُذكر أن حياتك دَين لهذه اليد التى نجتك يوم « كرانيكوس » وأصغِ لصوت الحق الصُّراح ، أو تجنب دعوة الأحرار إلى مأدبتك ، واختَص العبيد بصحبتك . »

اِهتاج إسكندر لموقف « كليتوس » ولذِكرى « كرانيكوس » و « برمينون » ، فنهض يتحسس خِنجره ، فإذا الخنجر بعيد قد نحَّاه أحد الحاضرين .

فينادى الحرس مُغضباً هائجًا ، ويأمر أن يُنفخ فى الصور إيذاناً للجند ، فما أطاع أحد أمر الملك الهائج النَّشوان ، وتقدم نحوه « بطليموس » و « بردكاس » القائدان الكبيران ، فأحاطا به ، وأمسكا يده برفق يُسكنان ثورته ، ويكسِران حدته . ويحيط آخرون « بكليتوس » يُخرجونه من البَهو ، فيأبى أن يخرج ، فيعترف بأنه أساء واعتدى . ويقول إسكندر : « واأسفاً ! إن قوادى قد غلونى كما فعل « بَسّوس » « بدارا » . وإنما لى من الملك اسمه . » وينقدم إسكندر تِلقاء « كليتوس » ولا يجرؤ القواد أن يقفوه قسْرا ، ثم ينقضّ كالصاعقة فينتزع حَربة من أحد الجند ، فيُغمدها فى صدر « كليتوس » الصديق القديم .

يَرتاع الحاضرون ، ويُفيق إسكندر من نشوته وثورته وعُنْجُهِيَّته ، فيفتح عينيه فإذا « كليتوس » طريح يضطرب فى دمه .

خرج إسكندر من البهْو يَعْدو إلى فراشه ، فارتمى عليه ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب ، يبكى بدموع عزَّت على الخطوب الشّداد ، وغلت فى الحوادث السود . ويتمادى به البكاء ، وكلما كَفْكَف دمعه تمثل له صديقه طعيناً بيده . ويلعن نفسه نادماً ، ويَهْتف باسم « كليتوس » وأخته « لانيس » ، ثم يقول : « ويلى ! أنا الغادر الكَنود ! لقد جزيتُ « كليتوس » و « لانيس » شراً بما أحسنا إلىّ لست بعد اليوم جديراً بالحياة . »

ويجتمع عليه صَحبه يُعَزُّونه ؛ ويُسوِّغون ما عمل . فلا يزداد إلا حزناً واكتئاباً وندماً وسفهاً .

ويجتمع الجند المقدونيون ، فيُجمعون على أن « كليتوس » قُتل بحقه ، وأنه ينبغى ألا يُدفن . فيغضب إسكندر ويقول : « كلا إنه سيُدفَن بأمرى . » ويأتى الكهنة فيقولون : « إن الملك لم يقتل صديقه بيده ، ولكنها نِقمة من الإله « ديوسوس » أجراها على يد الملك ؛ انتقاماً لنفسه بما حُرِمَ القربان فى هذه المأدبة » ثم يأتى الفيلسوف « انكسرخوس » فيقول :

« أيها الملك ! إن الذى أنت فيه لعَجز . وإنك أيها الملك العظيم الفاتح القاهر لجدير بأن تُحِلّ وتُحَرِّم ، وتُحِق وَتُبطل بإرادتك ، لا أن تخضع للقوانين التى سنها الناس . » ثم يأتى « كلستنوس » الفيلسوف فيجهَد أن يُهوِّن على الإسكندر ما فعل .

فارق إسكندر مَضجعه بقلب كليم إجابةً لنُصحائه ، وإجابة لواجبه فى هذه البلاد النائية ، ولكنى أحسِب الجرح قد ذهب مع إسكندر إلى قبره .

إسكندر العظيم لم يعظُم عليه مَطلب ، ولا بعُدت على همته غاية ، ولا ثبتت فى طريقه دولة ، ولا وهَن قلبه فى سِلم ولا حرب ، ولكن إسكندر الفاتح القاهر ، والملك المُتَسَلِّط ، لم يحتمل وَخزة واحدة من وخَزات الضمير ، فخر كالطفل يبكى ويتململ ، وكاد يَبْخَع نفسه فِرارًا من الندم .

إن عذاب الضمير هو العذاب الأكبر ، ولكن لا يعرفه إلا ذوو الضمائر ، وقليل ماهم . لله دَرُّ « كليتوس » ! لقد ذهب مثلاً فى الوفاء ! وأين فى الدنيا الأوفياء ؟ ولله در « كليتوس » صريع الوفاء ! ولله دَرّ إسكندر صريع الوُجدان .

٤٥ — قال مالك بن الريب التميمي يرثي نفسه — :

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً　　بجنب الغضى أُزْجي القِلاصَ النَّواجِيا
فليت الغضى لم يقطع الركب عَرْضَه　　وليت الغضى مَاشَى الرُّكاب لياليا
لقد كان في أهل الغضى لو دنا الغضى　　مزار ولكن الغضى ليس دانيا
ألم ترني بعتُ الضلالة بالهدى　　وأصبحتُ في جيش ابن عفان غازيا
دعاني الهوى من أهل أُودَ وصحبتي　　بذي الطَّبَسَيْنِ فالتفتُّ ورائيا
أجبت الهوى لمَّا دعاني بزفرة　　تَقَنَّعْتُ منها أن ألام ردائيا

* * *

أقول وقد حالت قُرى الكُردِ بيننا　　جزى الله عمراً خير ما كان جازيا
إنِ اللهُ يُرجعني من الغزو لا أُرى　　وإن قلَّ مالي طالباً ما ورائيا
تقول ابنتي لما رأت طولَ رحلتي　　سِفارُكَ هذا تاركي لا أبَا ليَا
لعمري لئن غالتْ خراسانُ هامتي　　لقد كنت عن بابَيْ خراسانَ نائيا
فإن أنجُ من بابَي خراسان لا أعُد　　إليها وإن منَّيْتُمُوني الأمانيا

* * *

فلله درِّي يوم أترُكُ طائعاً　　بَنِيَّ بأعلى الرَّقْمَتَين وماليا
ودرُّ الظباء السانحات عشيةً　　يُخَبِّرْنَ أني هالك مَن ورائيا
تذكرت من يبكي عليّ فلم أجد　　سوى السيف والرمح الرُّدَيْنيِّ باكيا

وأشقرَ مَحْبُوكاً يجر عِنانه إلى الماء لم يترك له الموتُ ساقيا
ولكن بأطراف السُّمَيْنَة نسوةٌ عزيز عليهن العشيّة ما بيا
صريع على أيدى الرجال بقفرة يسوُّون لحدى حيث حُمّ قضائيا

*
* *

ولما تراءت عند مروٍ منيتى وخلّ بها جسمى وحانت وفاتيا
أقول لأصحابى ارفعونى لأننى يَقَرُّ بعينى أنْ سهيلٌ بدا لِيا
فياصاحبىْ رحلى دنا الموت فانزلا برابيـــة إنى مقيم لياليا
أقيما علىّ اليومَ أو بعضَ ليلة ولا تُعجلانى قد تبيّن شانيا
وقُوما إذا ما استُلَّ روحى وهيّئا لى السّدر والأكفان ثم ابكيا ليا
وخُطّا بأطراف الأسنة مَضْجَعى وردّا عَلَى عينىّ فضل ردائيا
ولا تحسدانى — بارك الله فيكما — من الأرض ذات العرض أن توسِعا ليا

*
* *

خذانى فجُرّانى بثوبى إليكما فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا
وقد كنت عَطّافاً إذا الخيلُ أدبرت سريعاً لدى الهيجا إلى من دعانيا
وقد كنت صباراً على القِرن فى الوغى وعن شَتمىَ ابن العم والجارَ وانيا
ولا تنسيا عهدى خليلىّ بعد ما تقطّعُ أوصالى وتبلَى عظاميا

يقولون لا تَبْعَد وهم يدفنوننى ... وأين مكانُ البعدِ إلاَّ مكانيا
غداة غدٍ يا لهف نفسى عَلَى غدٍ ... إذا أَدْلجوا عنى وأُصبحت ثاويا
وأُصبِحَ مالى من طريف وتالد ... لغيرى وكان المال بالأمس ماليا

***

فياليت شعرى هل بكت أمُّ مالك ... كما كنت لو عَالَوْا نَعِيَّكِ باكيا
إذا مُتُّ فاعتادى القبور فسلِّمى ... على الرَّمْسِ أُسقيتِ السحابَ الغواديا
على جدثٍ قد جرت الريح فوقه ... ترابًا كسَحْق الْمَرْنَبَانِيِّ هابيا
رهينة أحجار وتُرْب تَضَمَّنَتْ ... قَرَارَتُها منى العظام البواليا

***

أُقَلِّب طرفى فوق رحلى فلا أرى ... به من عيون المؤنسات مُراعيا
وبالرمل منا نسوة لو شَهِدْننى ... بكيْنَ وفدَّين الطبيب المداويا
فمنهن أمى وابنتاىَ وخالتى ... وباكية أخرى تَهِيج البواكيا
وما كان عهد الرمل عندى وأهلِه ... ذميما ولا بالرمـل ودَّعْتُ قاليا



٤٦ — الإنشاء[1]

قال لى أحد الوزراء الأذكياء ذات يوم : « إنى لتأتينى أحياناً رِقاع الاستعطاف فأكاد أُهمِلُها ؛ لما تشتمل عليه من الأساليب المنفرة؛ لولا أن الله تعالى يلهمنى نِيّات كاتبيها وأَين يذهبون . ولولا ذلك لكنت من الظالمين . »

ذلك ما يراه القارئ فى أكثر المخطوطات التى يخطها كاتبوها فى رسائل الصحف، ورقاع الشكوى، والكتب الخاصة، والمؤلفات العامة .

هزْل فى موضع الجِد، وجِد فى موضع الهزل ، وإسهاب فى مكان الإيجاز ، وإيجاز فى مكان الإسهاب ، وجهل بِفرْقٍ ما بين العتاب والتأنيب ، والانتقام والتأديب ، والاستعطاف والاستخفاف ، وقصور عن إدراك منازل الخطاب ومواقفه بين السُّوقة والأُمراء ، والعلماء والجهلاء . حتى إن الكاتب لَيُقيم فى الشوكة يُشاكُها مناحة لا يقيمها فى الفاجعة يُفجعُ بها، ويكتب فى الحوادث الصغار ، ما يُكبر أن يَكْتب مثله فى الحوادث الكبار ، ويخاطب صديقه بما يخاطب به عدوّه ، ويناجى أَجيره بمثل ما يناجى به أُميره .

ذهب الناس فى معنى البيان مذاهبَ متفرقة واختلفوا فى شأنه

(١) للمرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى

اختلافاً كثيراً . ولا أدرى علام يختلفون ، وإلى أين يذهبون ؟ وهذا لفظه دال على معناه دلالة واضحة ، لا تشتبه وجوهها ، ولا تتشعب مسالكها.

ليس البيان إلا الإبانة عن المعنى القائم فى النفس ، وتصويرَه فى نظر القارئ أو مسمع السامع تصويراً صحيحاً ، لا يتجاوزه ولا يقصّر عنه . فإن عِلقتْ به آفة من تينك الآفتين فهو العِيُّ والحَصَر.

جهل البيانَ قومٌ فظنوا أنه الاستكثار من غريب اللغة ونادر الأساليب ، فأغصُّوا بها صدورَ كتاباتهم ، وحَشوْها فى حلوقها حشوا يَقْبِض أَوداجها ، ويَحْبِس عليها أنفاسها . فإذا قُدر لك أن تقرأْها وكنتَ ممن وَهَب لهم الله صدراً رحْبا ، وفؤادا جَلْداً ، وجنانا يحتمل ما حُمل عليه من آفات الدهور وَرازياه قرأت مَتْنا مشوّشا من متون اللغة ، أو كتابا مضطربا من كتب المترادفات .

وجهله آخرون فظنوا أنه الهذَر فى القول ، والتبسُّط فى الحديث واقعاً ذلك من حال الكلام ومقتضاه حيث وقع ؛ فلا يزالون يجترّون بالكلمة اجترار الناقة بجرَّتها ، ويتلمظون بها تَلَمُّظ الشِفاه بريقتها ، حتى تسفُلَ وتَتَبذَّلَ ، وحتى ما تكاد تُسيغُها الحلوق ، وهم يحسَبون أنهم يحسنون صنعاً .

ولقد يخيل لى أن أكثر الكتاب فى هذا العصر يكتبون لأنفسهم

أكثر مما يكتبون للناس ، وأن كتاباتهم أشبه شىء بالأحاديث النفسية التى تتلَجلَج فى نفس الإنسان حينما يخلو بنفسه ، ويَأْنَس بوحدته ؛ فإنى لا أكاد أرى بينهم مَن يحسن أن يضع فمه على أذن السامع وضعاً محكماً ، فينفُث فى رُوعِه ما يريد أن ينفُث من خواطر قلبه وهواجس نفسه .

البيان صلة بين متكلم يُفهِم وسامع يَفهم . فبمقدار تلك الصلة من القوة والضعف تكون منزلةُ الكاتب من الرفعة والسقوط ، فإن أردتَ أن تكون كاتباً فاجعل هذه القاعدة فى البيان قاعدتك ، واحرِص الحرص كله على ألاَّ يخدعك عنها خادع فتسقط مع الساقطين .

ما أُصِيبَ البيان العربى بما أصيب به إلا من ناحية الجهل بأساليب اللغة العربية . ولا أَدرى كيف يستطيع الكاتب أن يكون كاتباً عربياً قبل أن يطلع على أساليب العرب فى أوصافهم ونعوتهم ، ومدحهم وهَجوهم ، ومحاوراتهم ومساجلاتهم ، وقبل أن يعرف كيف كانوا يعاتبون ويؤنّبون ، ويعظون وينصحون ، ويتغزّلون ويَنسِبون ، ويستعطفون ويسترحمون ، وبأى لغة يحاول أن يَكْتب كتابه إن لم يستمدَّ تلك الروح العربية استمداداً يَمْلَأُ ما بين جوانحه ، حتى يتدفّق مع المداد من أنبوب يَراعه على صفحات قِرطاسه .

إنى لأقرأ ما كتبه الجاحظ وابن المقفع والصاحب والصابى والهمذانى والخَوَارَزْمى وأمثالهُم من كتّاب العربية الأولى ، ثم أقرأ ما خطّه هؤلاء الكاتبون فى هذه الصحف والأسفار ، فأشعر بما يشعر به المنتقل دفعة واحدة من غرفة مُحكمة نوافذها ، مُسبَلة ستورها ، إلى جو يسيل قُرًّا وصِرًّا ، ويترقرق ثلجاً وبرداً .

ذلك لأنى أقرأ لغة لا هى بالعربية فأغتبط بها ، ولا هى بالعامية فأتفكّه بأحماضِها ومُجونها .

رأيت أكثر الكاتبين فى هذا العصر بين اثنين :

إما رجل يستمدّ روح كتابته من مطالعة الصحف وما يشاكلها فى أساليبها من المؤلفات الحديثة والروايات المترجمة ، فإذا عِلقتْ بنفسه تلك الملكة الصّحافية ، ألقى بها فى رُوع قارئ كتابته أدْون مما أخذها ، فيُدلى بها آخذها كذلك إلى غيره أسمجَ صورة وأكثر تشويهاً ، وهكذا لا يبقى فيها من روح العربية إلا كما يبقى من الأطلال البالية ، بعد كرّ الغَداة ومرّ العَشِىّ .

وإما طالبٌ قُصارَى ما يأخذه عن استاذه نحوُ اللغة وصرفها ، وبديعها وبيانها ، ورسمها وإملاؤها ، ومفرداتها ومُتونها ، ومؤلفاتها ، ومختلفاتها ، وأمثال ذلك من آلاتها وأدواتها . أما روحُها وجَوْهرها

فإن أكثر أساتذة البيان علماء غير أدباء ، وحاجة طالب اللغة إلى أستاذ يُفيض عليه روح اللغة ويُوحى له بسرّها ، ويُفضى اليه بلُبّها وجوهرها أكثرُ من حاجته إلى أستاذ يُعلمه وسائلها وآلاتِها . وعندي أنْ لا فرق بين أستاذ الأخلاق وأستاذ البيان ؛ فكما أن طالب الأخلاق لا يستفيده إلا من أستاذ كملت أخلاقه وحسنت آدابه ، كذلك طالب البيان لا يستفيده إلا من أستاذ مُبين .

ولا يُقْذَفَنّ فى رُوع القارئ أنى أحاول استِلاب فضل الفاضلين ، أو أنى أنكر على فُصحاء هذه اللغة ما وهب لهم الله من نعمة البيان ، فما هذا أردتُ ولا إليه ذهبت . وإنما أقول إن عشرة من الكتّاب المجيدين ، وخمسة من الشعراء البارعين — قليل فى بلد يقولون عنه إنه مَهد اللغة العربية ، ومَرعاها الخصيب .

وبعد — فإنى لا أرى لك يا طالب البيان العربى سبيلاً إليه إلا مُزاولة المُنْشَآت العربية منثورِها ومنظومها ، والوقوفَ بها وقوف المتثبّت المتفهّم ، لا وقوف المتنزّه المتفرّج . فإذا رأيت أنك قد شُغِفت بها ، وكَلِفت بمعاوَدتها والاختلاف إليها ، (وأنْ قد لَذّ لك منها ما يلَذ للعاشق من زَوْرة الطيف فى غُرّة الظلام) — فاعلم أنك

قد أخذت من البيان بنصيب ، فامض لشأنك ولا تلوِ على شيء مما وراءك ، حتى تبلغ من طَلِبتك ما تريد .

ولا تُحدثنّك نفسك أنى أحمِلك على مطالعة المنشئات العربية ، لأُسلوب تَسْترِقُه ، أو تركيب تختلِسُه ؛ فإنى لا أحب أن تكون سارقاً ولا مختلِساً . على أنك إن ذهبت إلى ما ظننتَ أنى أذهب إليه فى نصيحتك ، لم يكن دركك دركا ، ولا بيانك بياناً ، وكان كل ما أفدتَه من ذلك أن تُخرج للناس من البيان صورةً مشوّهة لا تَناسُبَ بين أجزائها ، وبُردة مرقّعة لا تَشابه بين ألوانها . وإنما أريدُ أن تحصّل لنفسك ملكة فى البيان راسخة ، تصدُر عنها آثارها بصورة واحدة ، حتى لا يَكون شأنك شأنَ أولئك الذين قد علِقت ذاكراتهم بطائفة من منثور العرب ومنظومهم ، فقنِعوا بها وظنوا أنهم قد بلغوا من اللغة ما أرادوا ، فإذا جدَّ الجِد وأرادوا أنفسهم على الإفصاح عن شيء من هواجس نفوسهم ، رجعوا إلى تلك المحفوظات ، ونبَشوا دفائنها ، فإن وجدوا بينها ما يدل على المعنى الذى يريدونه ، انتزعوه من مكانه انتزاعاً ، وحشَروه فى كتابتهم حَشْرا ، وإلا فإما أَن يتبذَّلوا باستعمال التراكيب الساقطة المشنوعة ، أو يهجُروا تلك المعانى إلى أخرى لا علاقة بينها وبين سابقاتها ولاحِقاتها . فهم لا بدّ

لهم من إحدى السَّوءتين ؛ إما فساد المعانى واضطرابها ؛ وإما هُجنة التراكيب وبشاعتها .

فاحرِص الحِرص كله على ألا تكون واحداً منهم ؛ واحذر أن تصدّق ما يقولونه فى تلمُّس العُذر لأنفسهم عن ذلك : من أن اللغة العربية أَضيق من أن تتسِع لجميع المعانى المستحدَثة ، وأنهم ما لجئوا إلى التبذّل فى التراكيب ، إلا لاستحالة الترفّع فيها . فاللغة العربية أرحب صدراً من أن تضيق بهذه البسائط من المعانى ، بعد ما وسِعت من دقائق العلوم ما لا قِبَل لغيرها باحتماله .

وليس الشأن فى عَجز اللغة وضيقها ، وإنما الشأن فى عجز المشتغلين بها عن الاضطراب فى أَرجائها والتغلغل فى طَيّاتهـا ، واكتفائِهم من بَحرها بهذه البِلة التى لا تُثلج صدرًا ، ولا تَشفى أواماً .

وكل ما يؤخذ عليها من الذّنوب أنها لا تشتمل على أعلام لهذه الهَنَات المستحدَثة . وهو فى مذهبِى أقلّ الذنوب جُرماً ، وأضعفها شأناً ، ما دُمنا نعرف وَجه الحيلة فى علاجه : بالاشتقاق إن وجدنا السبيل إليه ، أو التّعريب والوضع إن عجزنا عن الاشتقاق . فالأمر أهوَن من أن نَحار فيه ، وأصغر من أن نَقضِىَ أعمارنا فى الوقوف

يبابه ، والأخذ والرد فى شأنه ، والمُساجَلة والمناظرة فى اختيار أقرب الطرق إليه ، وأجداها عليه .

واعلم أنه لا بُدَّ لك من حُسن الاختيار فيما تريد أن تزاوله من المنشآت العربية ؛ فليس كل متقدّم ينفعك ، ولا كل متأخّر يضرك . ولا أحسبك إلا واقفاً بين يدى هذا الأمر موقف الحيرة والاضطراب ؛ لأن حسن الاختيار طَلِبةٌ تتعثّر بين يديها الآمال ، وتُقطع دونها أعناق الرجال . فالجأ فى ذلك إلى فَطاحل الأدباء الذين تعرف ويعرف الناس لهم ذَوقاً سليماً ، وقريحةً صافية ، وملكةً فى الأدب ، كأنها مِصفاة الذهب . فإن فعلت وكنت ممّن وهب الله لهم ذكاءً وفِطنة ، وقريحة خِصبة ليِّنةً ، صالحة لنَماء ما يُلقى فيها من البذور الطيِّبة — عُدتَ وبين جنبَيك ملكةٌ فى البيان راسخة ، يتناثر منها منثور الأدب ومنظومه ، تَنَاثُرَ الأنوار من حديقة الأزهار .

٤٧ — من عهد على إلى الأشتر النخعى حين ولاه مصر

اِعلم يا مالك أنى قد وجهتك الى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدلٍ وجور ، وأن الناس ينظرون فى أمورك فى مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ، ويقولون فيك كما كنت تقول فيهم . وانما يُستدل على الصالحين بما يُجْرى الله لهم على ألسنة عباده ، فليكن أحبَّ الذخائر إليك ذخيرةُ العمل الصالح ، فاملك هواك ، وشحّ بنفسك عما لا يحل لك ؛ فإن الشُّح بالنفس الإنصافُ منها فيما أحبّت أو كرهت . وأشعِرْ قلبك الرحمة للرعيّة ، والمحبةَ لهم ، واللطفَ بهم . ولا تكوننّ عليهم سبُعاً ضارياً تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخ لك فى الدين وإمّا نظير لك فى الخَلْق . يَفرُط منهم الزلل ، وتعرض لهم العِلل ، ويُؤتَى على أيديهم فى العمد والخطأ . فأعطهم من عفوك وصفحك مثلَ الذى تحبّ أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ؛ فإنك فوقهم ، ووالى الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولاّك ، وقد استكفاك أمرهم ، وابتلاك بهم . ولا تنصِبَنّ نفسَك لحرب الله ، فإنه لا يَدَىْ لك بنقمته ، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته .

ولا تندمَنْ على عفو ، ولا تبْجَحَنَّ بعقوبة ، ولا تُسْرِعَنَّ إلى بادرة وجدتَ عنهـــا مندوحة . ولاَ تقولَنَّ : إنى مؤمَّرٌ آمرُ فأُطاع ، فإن ذلك إدْغَالٌ فى القلب ، ومنهكة للدين ، وَتَقَرُّب من الغِيَر . واذا أحدث لك ما أنت فيهِ من سلطانك أُبَّهةً أو مَخِيلَةً ، فانظر الى عِظَم ملك الله فوقك ، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك ، فإن ذلك يطامن إليك من طِماحك ، ويكف عنك من غَرْبك ، وَيفِىءِ اليك بما عَزَبَ عنك من عقلك . وإياك ومُساماة الله فى عظمته ، والتشبه به فى جبروته ؛ فإن الله يُذِلُّ كل جبار ، ويُهين كل مُختال . أنْصِف الناس من نفسك ومن خاصَّةِ أهلك ، ومَنْ لك فيه هوًى من رعيتك ؛ فإنك إلَّا تفعَلْ تَظلِم ، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمَه دون عباده ، ومن خاصمه الله أدْحَضَ حجته وكان لله حَرْبًا حتى يَنزِعَ ويتوب .

وليس شىء أَدعى إلى تغيير نعمة الله ، وتعجيل نقمته ، من إقامة على ظلم ؛ فإن الله سميعٌ دعوةَ المظلومين ، وهو للظالمين بالمرصاد . وليكن أحبَّ الأمور إليك أَوسطُهَا فى الحق ، وأَعمُّها

فى العدل ، وأجمَعها لرضا الرعية ، فإن سُخْط العامة يُجحِفُ برضا الخاصة ، وإن سُخْط الخاصة يُغتفر مع رضا العامة .

وليس أحد من الرعية أثقلَ على الوالى مئونةً فى الرَّخاء ، وأقلَّ معونةً فى البلاء ، وأكرهَ للإنصاف ، وأسأل بالإلحاف ، وأقلَّ شكراً عند الإعطاء ، وأبطأ عذراً عند المنع ، وأضعفَ صبراً عند مُلمَّاتِ الدهر — من أهل الخاصة . وإنما عمادُ الدين ، وجماع المسلمين ، والعُدَّة للأعداء — العامةُ من الأمة ؛ فليكن صغوُك لهم ، وميْلُكَ معهم .

وليكن أبعدُ رعيتك منك ، وأشنؤهم عندك ، أطلبَهم لمعايب الناس ؛ فإن فى الناس عيوبا الوالى أحقُّ مَنْ ستَرَها . فلا تكشِفنَّ عما غاب عنك . فاستُرِ العورةَ ما استطعتَ يستُرِ الله منك ما تحبُّ سَتْرَه من رعيتك . أطلِقْ عن الناس عُقْدَةَ كلِّ حِقْد ، واقطع عنك سببَ كل وِتْر ، وتغابَ عن كل ما لا يصحُّ لك ، ولا تعجلَنَّ إلى تصديقِ ساعٍ ؛ فإن الساعىَ غاشٌ — وإن تَشبَّه بالناصحين .



٤٨ — عمر بن عبد العزيز ووفود الشعراء

لما استُخْلِفَ عمر بن عبد العزيز (رضى الله عنه) وفَد الشعراء إليه، وأقاموا ببابه أياماً لا يؤذَن لهم. فبينما هم كذلك إذ مر بهم رجاء بن حَيْوة وكان جليس عمر، فلما رآه جرير داخلاً قام إليه وأنشده:

يأيها الرجل المُرخى عِمامته هذا زمانك فاستأذِن لنا عمرا

فدخل عليه ولم يذكر له شيئاً من أمرهم، ثم مر بهم عَدىّ بن أَرطاةَ؟ فقال جرير أبياتاً آخرها قوله:

لا تنس حاجتنا لُقِّيتَ مغفرة قد طال مُكثى عن أهلى وأوطانى

فدخل عدىّ على عمر فقال: «يا أمير المؤمنين! الشعراء ببابك، وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة.» قال: «ويحك يا عدىّ! مالى وللشعراء؟» قال: «أعزّ الله أمير المؤمنين، إن رسول الله (ﷺ) قد امتُدِح وأعطى، ولك فى رسول الله (ﷺ) أُسوة حسنة.» قال: «كيف؟» قال: «امتدحه العباس بن مِرداس السُّلمىّ فأعطاه حلة فقطع لسانه.» قال: «أوَ ترْوى من قوله شيئاً.» قال: «نعم قوله:»

رأيتُك يا خير البرّية كلّها نشرت كتاباً جاء بالحق مُعلِما

شرعتَ لنادين الهدى بعد جَوْرنا ‏ ‏ عن الحق لما أُصبح الحق مُظلِما
ونوّرت بالبرهان أمراً مدلساً ‏ ‏ وأطفأت بالإسلام ناراً تضرّما
فمَن مُبلغٌ عنى النبي محمـــداً ‏ ‏ وكل امرئٍ يجزى بما كان قدّما
أقمتَ سبيل الحق بعد اعوِجاجه ‏ ‏ وكان قديماً رُكنه قـد تَهدّما . »

فقال عمر : « وَيْلك يا عدىّ ! مَن بالباب منهم ؟ » قال : « الفرزدق . » قال : « أليس هو الذى يقول :

هما دَلَّيانى من ثمانين قامةً ‏ ‏ كما انقضّ بازٍ أقْتم الريش كاسره
فلما استوت رِجلاىَ فى الأرض قالتا ‏ ‏ أَحىٌّ فيُرجَى أم قتيل نحاذِره

لا يدخل علىّ والله . فمن بالباب سواه ؟ » قال : « الأخطل . » قال : « يا عدىّ ! هو الذى يقول :

ولستُ بصائم رمضان طَوْعًا ‏ ‏ ولست بآكل لحمَ الأضاحى
ولست بزاجر عِيساً بُكورا ‏ ‏ إلى بَطْحاء مكةَ للنجـاح
ولست بزائر بيتـاً عتيقاً ‏ ‏ بمكة أبتغى فيـه صـلاحى
ولست بقائم بالليـل أدعو ‏ ‏ قُبيلَ الصّبح حىّ على الفلاح
ولـكنى سأشربها شَمـــولاً ‏ ‏ وأسجد عند مُبْتَلَج الصباح

والله لا يدخل علىّ وهو كافر أبداً . فمن بالباب سوى مَن ذكرت ؟ » قال : « الأحوص . » قال : « أليس هو الذى يقول :

الله بينى وبين سيّدها   يفِرّ منى بها وأتْبعـــه ؟

فما هو بدون من ذكرت ، فمن هنا أيضاً ؟ » قال : « جرير . »
قال : « أما هو الذى يقول :

طرقَتْك صائدة القلوب وليس ذا   وقت الزيارة فارجعى بسَـــلام

إن كان ولا بد فهو الذى يدخل . » فلما مثل بين يديه قال : « يا جرير ! اتّق الله ولا تقُل إلا حقاً . » فأنشده قصيدته الرائيّة المشهورة التى منها :

إنا لَنرجو إذا ما الغيث أخلفَنا   من الخليفة ما نرجو من المطر

نال الخلافة أو كانت له قَـدرًا   كما أتى ربَّه موسى على قدَر

هذى الأرامل قد قضّيتَ حاجتها   فمَن لحاجة هذا الأَرْمل الذّكرِ

الخير ما دمتَ حيًّا لا يفارقنا   بورِكت يا عمرَ الخيرات من عمر

فقال : « يا جرير ! ما أرى لك فيما ها هنا حقًّا . » قال : « بلى يا أمير المؤمنين ! إنى ابن سبيل ومنقطِع . » فقال له : « ويحكَ يا جرير ! قد وَلِيناَ هذا الأمر ولا نملك إلا ثلثمائة درهم ؛ فمائة أخذها عبد الله ، ومائة أخذتها أم عبد الله . يا غلام ! أعطه المائة الباقية . »

فأخذها جرير وقال : « والله لهِيَ أحبّ مال اكتسبتُه . » ثم خرج فقال له الشعراء : « ما وراءك ؟ » فقال : « ما يسوءكم ؟ خرجت من عند خليفة يعطى الفقراء ، ويمنع الشعراء ، وإنى عنه لراض . » وأنشد :

رأيتُ رُقَى الشيطان لا تستفِزُّه   وقد كان شيطانى من الجن راقِياً »

٤٩ — جلال الدين منكبرتى

سارت جيوش التّتار تقذف بالموت والدّمار « وَفتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ » . خرّت المدائن لصولتهم فأسروا وقتلوا . ثم سلّطوا الماء والنار ، فأخربوا ودمّروا ، وانطلقوا فى جحافلَ من السيوف والسهام والنار والدخان ، والدماء والماء ، والهَول والفزَع .

وعلاء الدّين « خُوارَزْمَ » . قد أوقد النار فلم يستطع إطفاءها ، وفتح باب الشر فلم يقدِر على إغلاقه . لم يُغْنِ جنده ، ولم تثبُت عزيمته فما زال يهجر المدينة بعد المدينة حتى اعتصمَ بجزيرة فى بحر « الخزَر » فهلك بها .

ورِث جلال الدين مُلك أبيه ، وإنما ورِث الضّراب والطّعان ، وعرشاً فى أشداق المَنون ، تُخاض إليه الأهوال ، وتُقطَع دونه الآمال .

لقد ذهب المُلك وعلاء الدين معاً ، وورث جلال الدين دَين أبيه من الكِفاح والنّضال ، ورث القتال الحاضر ، والملك الغابر .

هلُمَّ جلالَ الدين ! اِدفع عن رعيّتك ما لا يُدفع ، واختَر لنفسك — وليس فى الشر خيار :

هما خِطتان : إما إسار وذِلّة ، وإما دم « والقتل بالحرّ أجدر » تحفّزَ البطل تحفزُ الأسد ، وتقهقرَ ليثِب . ولـكن المغول كانوا فى إثره حيثما سار، يَطوون وراءه الليل والنهار، حتى خرج من ملـكه وقارب الهند، وهنالك صف جلال جنده وهم :

عِصابة ليس لهم ديار إلا ظهور الخيل والغُبار

فهزم عدوّه الجبار فى ستّ معاركَ .

يلقَى المنيّـة فى أمثال عُدتها كالسّيل يقذف جلموداً بجلمود

ولـكن طُوفان المغول أعظم من أن تثبُت فيه صُمّ الجلاميد ، أو يُغنى فيه العزم المَرير والبأس الشديد .

فذلـكم جلال الدين على نهـر السّند ، وأولئكم المغول على نهر السند ، يَكِرّ عليهم كالأسد المحرج ، ويصدُقهم القتال من الفجر إلى الظّهيرة ، يموت فى يمينه الحسام بعد الُحسام ، وينفَق تحت عزائمه الجواد بعد الجواد . فلما سُدّت على العزائم سبل النصر، وضاقت بالَمجال حِيَل الأبطال ، حَمل على عدوه فحطّمه، ثم انثنى إلى النهر فاقتحمه ، « والموت خَزيان ينظر. » تلك لُجَّة النهر تموج بجلال الدين وَجندِه ، وفوقهم من سهام المغول وابِل مُنهمِر ، وفى

الهِمم القَعساء تستوى الغَبراء والدّأماء . أُعجِب الأعـداء بهؤلاء الأبطال ، فوقفوا معجَبين ينظرون .

غرِق معظم الجند ، وخرج البطل ببقايا القتل والغرق ، ليلقَى بهم عدواً آخر ، فهذا « جودى » أحد أمراء الهند يغير على البطل المرزَّأ لينفِيَه من أرضه ، وهـذا جلال الدين على العِلاَّت يصمُد للمُغير فيهزمه .

ثم جاءه مدد من جنوده ، فتقدّم فى أُرض الهند ، وأقام بها حيث شاء على رغم « قراجة » أُمير السند « وايلتتمش » أَميرِ « دهلى » إذ تحالفا وحالفا عليه الدهر .

ما جَهد هـذا الدهر إلا هزيمة إذا نازلَت عزمَ الكرام كتائبه

أتحسب جلال الدين بلغ من الجَهد غايته ، ومن الجَلَد نهايته ، وقد أُعذر إلى المجد والملك والرعية ؟ أتحسب قد فقد ملكه جميعه ، وهُزم فى أرض غريبة ؟ فهو حِرى أن يطلب فى فِجاج الأرض مفرا ، أو يلتمس فى زواياها مستقرا ؟ كلا ! إنْ فقد مُلكه فلم يفقد رجاءه ولا عزمه ولا إباءه ؛ إن له ملكاً — وإن يكن فى يد العدو الجبار ، وإن له عرشاً — وإن يكن فى ذِمّة الزمان الغدار .

إن أمامه فى عِراك الخطوب ثمانى حِجج ، تطير فيها بين المشرق والمغرب همته ، وتنقله من حرب إلى حرب صَرامته ، ويُسلمه من مصيبة إلى مصيبة حظّه . يشق بين الأهوال طريقه إلى « كرمان » « ففارس » « فأصفهان » « فالرّى » . ثم يصمُد للخليفة العباسى الناصر ، فيهزم جنده ، ويقتل قائده ، ويسوق المنهزمين إلى أسوار بغداد .

ثم يستولى على « تبريز » ويتخذها دار ملكه ، ويُغير على « الكرج » ، كأن أعداءه ليسوا أكفاء نِضاله . وبينما هو فى « تفليس » جاءه نبأ هائل ، وناهيك بخيانة الأعوان فى حَومة الطّعان ؛ أُنبئَ أن « براقا » الحاجب والى « كرمان » قد مالأ المغول ، فبادر من « تفليس » إلى « كرمان » ليعاقبه بخيانته ، ثم يرتدّ من « كرمان » إلى الشمال ليحارب التركمان والملاحدة ، فيهزمهم ويَجزيهم بما اقترفوا فى غيبته ، ويُشَرِّق تلقاء « دامغان » ليهزم جيشاً من المغول ، ويرجع إلى الغرب حين يعلم أن « الكرج » تألّبوا عليه ، فيلتقى الجمعان وتأبى على جلال الدين شجاعته ومَضاؤه إلا أن يبارز أبطال « الكرج » وقد قتل أربعة من صَناديدهم وِلاء ، ثم حمل على « الكرج » فهزمهم أجمعين .

هذه سنة سبع وعشرين وستمائة — وجلال الدين يعمل ليؤلّف بين أمراء المسلمين ، ويضرب بهم هذا العدو المدمّر ، فلا يُمهله عدوه فيُباغته ثلاثون ألفاً من المغول ، فينهزم أمامهم ولكن ليستولى على مدينة « كنجه ».

عشر سنين نازل فيها جلال الدين منكبرتى أَحداث الزمان مُجْتمِعة ، وغلب فيها جُهد الأعداء وخيانة الأصدقاء ، وجالد عدو المسلمين وخليفة المسلمين ، وحارب المغول والتركمان والملاحدة والكرج .

أرأيت جلال الدين نَجماً يدور به فلَك من الخطوب بين المشرق والمغرب ؟ أعلمت أن الرجل العظيم يخلق أحداث التاريخ ولا ينقاد لها ؟ إن يكن ما يُروى عن جلال الدين مستحيلا ، فكَم بين حقائق التاريخ من مستحيلات !

غِياث الدين أخو جلال الدين عالىٔ الأعداء أيضاً ، فانظر إلى البطل العظيم عام ٦٢٨ هـ ، وقد اجتمع عليه الأعداء ، وخانه الإخوة والأصدقاء ، وناء بقابه خِذلان أعوانه لا بَطْشُ أقرانه . ها هو ذا مكتئِباً حزيناً مشرّداً يسير فى قُرى « الكرد » ، ولعله كان يحاول أن يخلُق من عزمه جنداً وحرباً وانتصاراً ومُلكا . ولكن رجلاً من « الكرد » باغته ففتك به :

أتته المنايا فى طريق خَفيّة ... على كل سَمع حوله وعِيان
ولو سلكت طُرُقَ السلاح لردَّها ... بطول يمينٍ واتساع جَنان

ولكن النفس العظيمة التى ملأت العدو والصديق هيبة وإعجاباً لا تموت بموت الجَسد . فقد أكبرَ الناس أن يموت البطل الذى غلب الموت فى كل مُعتَرك ، فبقُوا أكثر من عشرين عاماً يتحدثون أن بطلهم حىّ ، وأنه ظهر فى هذا المكان أو ذاك ، بل حاول بعض الناس أن يَلبسوا عظمته ، ويحملوا اسمه ، فناءوا بالعِبء ، فأخذهم المغول بغير عَناء .

يا شباب الشرق ! قلّبوا صفحات مَجدكم ؛ فإن أعظم المصائب أن تُمحَى ذكرى الآباء من صدور الأبناء ، وإن لكم فى جلال الدين لعِبرة .

٥٠ — المقامة القريضيّة

لبديع الزمان الهمذانى

حدثنا عيسى بن هشام ، قال : « طرَحتنى النَّوى مَطارحها ، حتى إذا وطِئتُ جُرجانَ الأقصى ، فاستظهرت على الأيام بِضياع أجَلتُ فيها يد العِمارة ، وأموال وقفتُها على التجارة ، وحانوت جعلته مَثابة ، ورُفقة اتخذتها صَحابة ، وجعلت للدار حاشيَتَى النهار ، وللحانوت ما بينهما . فجلسنا يوماً نتذاكر القريض وأهله ، وتِلقاءنا شاب قد جلس غير بعيد ، يُنصِت وكأنه يفهم ، ويسكت وكأنه لا يعلم . حتى إذا مال الكلام بنا مَيلَه ، وجرَّ الجدال فينا ذيله ، قال : « قد أصَبتم عُذَيقَهُ ، ووافيتُم جُذَيلهُ ، ولو شئت للفَظتُ وأفَضتُ ، ولو قلت لأصدَرتُ وأورَدت ، ولجلَوت الحق فى معرِض بيان ، يُسمِع الصُّم ، ويُنزِل العُصْم . » فقلت : « يا فاضلُ ! اُدنُ فقد منَّيتَ ، وهاتِ فقد أثنَيتَ . » فدنا ، وقال : « سلُونى أُجِبْكم ، واسمعوا أُعجِبكم . » فقلنا : « ما تقول فى امرئ القيس ؟ » قال : « هو أول من وقف بالديار وعَرَصاتها ، واغتدَى والطير فى وُكُناتها ، ووصَف الخيل بصفاتها ، ولم يقل الشعر كاسباً ، ولم يُجِد القول راغباً ، ففضَل من تفتّق للحيلة لسانُه ، وانتجعَ للرّغبة بَنانه . »

قلنا : « فما تقول فى النابغة ؟ » قال : « ينسِب إذا عشِق ، ويَثلِب إذا حَنِق ، ويمدَح إذا رغب ، ويعتذر إذا رَهِب ، ولا يرمى إلا صائباً . » قلنا : « فما تقول فى زُهَير ؟ » قال : « يُذيب الشعر والشعر يُذيبه ، ويدعو القَول والسّحر يجيبه . » قلنا : « فما تقول فى طَرَفَة ؟ » قال : « هو ماء الأشعار وطينَتها ، وكَنز القَوافى ومَدينتها ، مات ولم تظهر أسرار دَفائنه ، ولم تُفتح أغلاق خزائنه . » قلنا : « فما تقول فى جرير والفَرزدَق ؟ وأيهما أسبَق ؟ » فقال : « جرير أرقُّ شعراً ، وأغزَر غزْراً . والفرزدق أمتن صَخْراً ، وأكثر فخراً . وجرير أوجع هَجْواً ، وأشرف يوماً ، والفرزدق أكثر رَوْماً ، وأكرم قوماً . وجرير إذا نسَب أشجَى ، وإذا ثلَب أردى ، وإذا مدح أسنَى . والفرزدق إذا افتخَر أجزَى ، وإذا احتقر أزرى ، وإذا وصف أوفَى . » قلنا : « فما تقول فى المحدَثين من الشعراء والمتقدّمين منهم ؟ » قال : « المتقدمون أشرف لفظاً ، وأكثر من المعانى حظا . والمتأخرون ألطف صُنعاً ، وأرق نَسجاً . » قلنا : « فلو أريتَ من أشعارك ، ورَوَيت لنا من أخبارك . » قال : « خذهما فى معرَض واحد . » وقال :

أمَا ترَونى أتغشَّى طِمْرا ممتطياً فى الضرّ أمراً مُرّا
مُضْطَبناً على الليالى غِمْرا ملاقياً منها صروفاً حُمرا

أقصى أمانِيَّ طلوع الشِّعرى فقد عُنينا بالأمانى دهرَا
وكان هـــذا الحُرُّ أعلى قدرًا وماء هذا الوجه أغلَى سِعرَا
ضربت للسَّرّا قِبابًا خُضرا فى دار (دارًا) وإيوان (كسرى)
فانقلب الدهر لبطن ظهرَا وعاد عُرف العيش عندى نُكرَا
لم يبق من وَفرى إلا ذِكرا ثم إلى اليوم هلُمَّ جَرّا
لولا عجوزٌ لى بسُرَّ مَن را وأفرُخٌ دون جِبال بُصرَى
قد جلَب الدهر عليهم ضُرّا قتلتُ يا سادةُ نفسى صَبرَا »

قال عيسى بن هشام: « فأنلتُه ما تاحَ، وأعرض عنّا فَراحَ، فجعلت أنفيه وأثبته، وأنكره وكأنى أعرِفه، ثم دلَّتنى عليه ثنَايَاه فقلت: الإسكندرِىُّ والله، فقد كان فارَقَنا خِشْفًا، ووافانا جِلْفًا. ونهضت على إثرِه، ثم قبضتُ على خَصرِه، وقلت: ألَستَ أبا الفَتح؟ ألم نُربِّك فينا وَليداً ولبِثتَ فينا من عُمرك سنين؟ فأىُّ عجوز لك بسُرَّ من رَا؟ » فضحك إلى، وقال:

وَيحَكَ هـذا الزمان زُورُ فلا يَغُـــرَّنَّك الغرورُ
لا تلتزِم حالةً ولكن دُرْ باللّيالى كما تدورُ



٥١ — حزم عبد الملك بن مروان

لما ولِىَ الحجاج بن يوسف الحرَمين بعد قتله عبد الله بن الزُّبَيْر ، استخلص إبراهيم بن محمد بن طَلحةَ فقرّبه ، وعظّم منزلته . فلم تزل تلك حاله عنده حتى خرج إلى عبد الملك بن مروان فخرج معه مُعادلاً ، لا يُقصّر له فى برّ وإعظام حتى حضر به عبدَ الملك . فلما دخل عليه لم يبدَأ بشىء بعد السلام إلاّ أن قال له : « قدِمتُ عليك أمير المؤمنين برجل الحجاز ، لم أَدَع له بها نظيراً فى الفضل والأدب والمروءة وحسن المذهب ، مع قرابة الرّحِم ، ووجوب الحق ، وعِظم قَدر الأبوّة ، وما بلَوْتُ منه فى الطاعة والنصيحة ، وحسن الموازرة ، وهو إبراهيم ابن محمد بن طلحة ، وقد أُحضرته بابَك ليسهُل عليه إذنك ، وتعرف له ما عرّفتك . » فقال : « أذكرتَنا رِحماً قريبة ، وحقًّا واجباً . يا غلام ! ائذن لإبراهيم بن محمد بن طلحة . »

فلما دخل عليه ، أدناه عبد الملك حتى أجلسه على فراشه ، ثم قال له : « يابن طلحة ! إن أبا محمد ذكّرنا ما لم نَزل نعرِفك به من الفضل والأدب والمروءة ، وحسن المذهب ، مع قرابة الرّحم ، ووجوب الحق ، وعظم قدر الأبوّة ، وما بَلاه منك فى الطاعة والنصيحة ، وحسن المُوازَرة ، فلا تدعَنَّ حاجة فى خاصّة نفسك وعامّتك إلا ذكرتَها . »

فقال : « يا أمير المؤمنين ! إن أول الحوائج ، وأحق ما قُدّم بين يَدىِ الأمور ما كان لله فيــه رِضا ، ولحق نبيه (ﷺ) أداء ، ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة . وعندى نصيحَة لا أجد بُدًّا من ذكرها ، ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خالٍ ، فأَخلِنى يا أمير المؤمنين تَرِدْ عليك نصيحتى . » قال : « دون أبى محمد ؟ » قال : « نعم ! دون أبى محمد . » قال عبد الملك للحجاج : « قم . » فلما خطرف السّتر ، أقبل عليه ، فقال : « يابن طلحة ! قُل نصيحتك . » فقال : « يا أمير المؤمنين ! لقد عمَدت إلى الحجاج فى تَغَطْرُسه ، وتَعَجرُفه ، وبعده عن الحق ، وقُربه من الباطل ، فولَّيتَه الحرمَيْن وهما ما هما ، وبهما مَن بهما من المهاجرين والأنصار ، والمَوالى والأخيار ، يطؤهم ويسومهم الخَسْف ، ويحكم فيهم بغير السُّنَّة ، بعد الذى كان من سَفك دمائهم وما انتُهِك من حُرَمهم . ثم ظننتَ أن ذلك فيما بينك وبين الله زاهق ، وفيما بينك وبين نبيك غداً إذا جاثاك للخصومة بين يدى الله فى أمّته ، أمَا والله لا تجو هنالك إلا بحجّة ، فارْبَعْ على نفسك أو دَع . » فقــال له عبد الملك : « كذبتَ ومِنْت ، وظن بك الحجاج ما لم يجِدْه فيك ، وقد يُظَنُّ الخير بغير أهله . قم فأنت الـكاذب المائِن . » قال إبراهيم : « فقمت ، وما أعرف طريقاً ، فلما خَطْرف الستر لحقنى لاحق فقال :

« اِحبِسوا هذا . » وقال للحجاج : « أُدخل . » فدخل ، فمكثنا مليًّا من النهار لا أشكّ أنهما يتحدّثان فى أمرى ، ثم خرج الآذِن فقال : « أُدخل يابن طلحة . » فلما كُشِف لى الستر ، لقينى الحجاج وهو خارج وأنا داخل فاعتنقنى ، وقبّل ما بين عينىّ ، وقال : « أما إذا جزى الله المتواخيين خيراً بفضل تَواصُلهم ، فجزاك الله عنى أفضل الجزاء ، فوالله لئن سلمتُ لك لأرفعنّ ناظرك ، ولأُعلِيَن كَعبك ، ولأُتبِعنّ الرجال غَبرَةَ قدمَيْك . » فقلت فى نفسى : « يهزأ بى وربّ الكعبة . » فلما وصلت إلى عبد الملك أدنانى إلى مجلسى الأوّل ثم قال : « يابن طلحة ! لعل أحداً شارَكك فى نصيحتك هذه ! » قلت : « والله يا أمير المؤمنين ما أعلم أحداً أَنصحَ عندى يداً ، ولا أعظم معروفاً من الحجاج ، ولو كنت محابِياً أحداً لعرض دنيا لحابيْته ، ولكنى آثرت الله ورسوله ، وآثرتك والمؤمنين عليه . » قال : « قد علمت أنك لم تُرِد الدنيا ، ولو أردتَها لكانت لك فى الحجاج . ولكن أردت الله والدار الآخرة ، وقد عَزلته عن الحرمين لما كَرِهت من ولايته عليهما ، وأعلمته أنك استنزلتنى له عنهما استقلالاً لهما ، ووليّته العِراقين ، وأعلمته أنك استدعيَتنى إلى ولايته عليهما ، استزادةً له ، ولِما هنالك من الأمور التى لا يَدْحَضُها إلا مثله ، لازمه بذلك من حقك ما يُؤَدِّى إليك عنى أجر نصيحتك ، فاخرج معه فإنك غير ذامٍ لصحبته . »

٥٢ — الرجل المهذب

كتب الحسن بن سَهل وزير المأمون العباسىّ ، وأحد المشهورين بالذّكاء والأدب والفَصاحة ، إلى محمد بن سماعة القاضى ، رِسالة يطلب منه اختيار رجل لأحد المناصب الرفيعة ، يكون أميناً عَفيفاً ، رزيناً ، فطناً ، لبيباً ، حلو اللسان ، حسن البيان ، قد حنّكته التجارب وصقَلته الأيام ، مُضطلِعاً بأعباء ما يُكلَّفه من الأعمال ، إلى غير ذلك من الصفات التى إن توافرت فى شخص ، كان جامعاً لخلال الخير ، وخصال الأدب ، ومثَلًا عالياً للفضل والكمال . فقال :

« أما بعد ؛ فإنى احتجتُ لبعض أمورى إلى رجلٍ جامعٍ لخصال الخير ، ذى عِفة ونزاهةِ طُعْمة . قد هذّبْته الآداب ، وأحكمته التجارب . ليس بظَنِين فى رأيه ، ولا بَمطعون فى حسَبه . إن ائتُمن على الأسرار قام بها ، وإن قُلّد مهمّاً من الأمور أجزَأ فيه . له سِنٌّ مع أدب ولسان . تُقعده الرّزانةُ ، ويُسكّنه الحلم . قد فُرَّ عن ذكاء وفِطنة ، وعضّ على قارحةٍ من الكمال . تكفيه اللحظة ، وتُرشده السّكتة . قد أبصر خِدمةَ الملوك وأحكَمها ، وقام فى أمورهم فحُمد فيها ، له أناة الوزراء ، وصَولة

الأمراء ، وتواضُع العلمــاء ، وفَهم الفقهاء ، وجواب الحكماء ، لا يبيع نصيب يومه بحِرمان غَـدِه . يكاد يسترِقّ قلوب الناس بحلاوة لسانه وحسن بيانه ، دلائل الفضل عليه لائحة ، وأمارات العلم له شاهدةٌ . مضطلعاً بمـا استُنهض ، مستقلاً بمـا حُمّل . وقد آثرتُك بطلبه ، وحبَوتُك بارتيادِه ؛ ثقةً بفضل اختيارك ، ومعرفةً بحسن تَأتّيك . »

٥٣ ـ قال الصمة بن عبد الله بن طفيل فى النسيب :

حننت إلى ريا ونفسُك باعدت مزارك من ريا وشعبا كما معا
فما حسنٌ أن تأتى الأمر طائعا وتجزع أن داعى الصبابة أسمعا
قِفَا ودّعا نجدا ومن حلّ بالحمى وقلّ لنجد عندنا أن يُوَدّعا
بنفسي تلك الأرض ! ما أطيب الرُّبا ! وما أحسن المصطاف والمتَرَبَّعا !
وليست عشيّات الحمى برواجع عليك ولكن خلّ عينيك تَدْمَعَا

*
* *

ولما رأيت البشر أعرض دوننا وحالت بنات الشوق يَحْنَنَّ نُزّعا
بكت عينى اليسرى فلمّا زجرتها عن الجهل بعد الحلم أُسبلتا معًا
تلفّتُّ نحو الحى حتى وجدتُنى وَجِعت من الإصغاء لِيتاً وأخدعا
وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى على كبدى من خشية أن تَصَدّعا



٥٤ — قصـــة بِلاَل

يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « أبو بكر سيدُنا وأعتَق سيدنا . » أما أبو بكر فقد ساد بسبقه إلى الإسلام ، وبصدق إيمانه وعظيم بَلائه ، وأنه صديق الرسول . كان المؤمنَ الأول ، والصاحب الأول ، والخليفة الأول . فمَن هذا العبد الذى ساد المسلمين ، وشَهِد بسيادته الفاروق ، وكان إعتاقه فخراً لأبى بكر وتسنِيةً لمقامه ؟ ألسنا نرى من الحق والهدى أن نتعرف هذا القلب البصير الحرّ ، الذى لم يمنعه العظمةَ والخلود أنه نشأ فى جِلد عبد وفى قَيد رِق ؟ هذا العبد المعتَق ؛ بل السيد المَسُود « بلال المؤذِّن » عبد رقيق من أَمَة حبشية ؛ أما أَبوه العربى القرشى فكان أول جان عليه ، ألقاه إلى الحياة وخلّاه ، وبرئ منه كما برئ من عنترةَ العَبْسى أبوه شَدّاد ، وكان فى شريعة العرب فى جاهليتها أن تتخذ الإماء سوداً وبيضاً ، فإذا ولدت لأحدهم أَمة نَفَى الولد وأنكرهُ ، فلا يُنسب إليه ، ولا يَنال من رِعايته ، ولا يرث من ماله . ويُرسَل كأمه مملوكاً رقيقاً ، ومتاعًا من سِلَع الحى يُباع ويُشْتَرى ، ويوهَب ويُهدَى كان ذلك فساداً وظلماً ، ولكنه ظلم تقرّر كأنه الحق ، ومنكرٌ اتّبِـع كأنه الواجب ، وكأس مُرّة كرَع بلال نصيبه منها ، فنشأ نشأة الرقيق ؛ يُسخَّر فى حمل المتاع

وجمع الحطب وخدمة الحيوان . وما كان له أن يتطلع إلى خدمة كريمة ؛ كخدمة فرس ، أو إعداد سلاح . ولا كان له أن يَغشَى مجالس السّادة إلا خادماً مأموراً ، نا كِس الرأس ، ذليل الطَّرف .

على أن بلالاً قد حباه الله حلاوة فى الصوت وجمالاً فى الإلقاء ، وربما غنّى وهو يعمل عوناً لنفسه ، فإذا مر به سيد من العرب قطع غِناءه ، وكتَم صوته . وربما رفع صوته يَحدُو الإبل فى سيرها حين رَواحها وغُدوّها .

وعلم به شباب قريش ، فاستمعوا إليه ، وطرِبوا لصوته ، فإذا جاء الليل وخرج الفتيان إلى بعض شِعاب الجبل يلعبون ويسمُرُون ويلهوْن ، شاقهم الغِناء وذكروا بلالاً فاستدعوه ، وكلّفوه أن يُغنّيهم . ويستخفهم الطرب فينسوْن أن بلالاً عبد رقيق ، ويُقربونه منهم ، ويُشركونه فى سَمَرهم ، فتنكشف نفسه لجلسائه عن سمير راجح العقل ، حُلو الحديث ، حسن البيان ، يملأ عروقَه دم عربى .

وشاع لبلال بذلك ذكر حسن ، ورُفع عن أعمال العبيد ، ونُدب للتجارة والرحلة إلى الشام واليمن ، وهى أشرف أعمال قريش ، وأنبل ما يَحترفون . وتهيأت له بذلك عيشة جديدة من حقه أن يرضى عنها ويَغتبِط بها ، ولكن نفس بلال كانت أنبل من رأى سادته فيه ؛

بل كانت أنبل من نفوس جُمهورهم ؛ فلم يقبل تلك العيشة اللاهية اللاعبة فى شبابهم ، ولا رَضِي تلك الحياة الظالمة الطامسة فى شيوخهم ، وضَجِر بما حوله من فساد وظلم .

وكان فى مكة جماعة من العقلاء قد سئموا جاهلية العرب وما فيها من شر ، ينشأ عليه صغيرهم ويتورّط فيه كبيرهم . وكانوا يجتمعون ويتذاكرون هذا فى مجالسهم بالكعبة وفى سمرهم بعيداً عنها ، فمنهم مَن حرم على نفسه الخمر ، وزيّن للناس هجرها ، ومنهم من دعا الناس إلى حِلف لينصرُنّ كل مظلوم بالِحمام . كان من هذه الجماعة أبو بكر ، وكان سيدهم الأمين محمداً قبل البعثة ، واتصل بتلك الجماعة بلال ، فإذا هم يَرضون صُحبته ، ويَحمَدون رأيه وسيرته . وإذا هو يرى فيهم أصدقاء قلبه وأَصفياء نفسه ، وتتوثق الصداقة بينهم ، صداقةُ الخير وحُبّ الإصلاح . وتلك صداقة يكون فيها الكثير واحداً والمتعدّد فَرداً ، وتَفْنَى الأشخاص فى الغاية ، فإذا هم رجل واحد .

يَروى الطبَرىّ « أن قافلة ذهبت إلى الشام بتجارة فيها جماعة من رءوس قريش ، وفيها الأمين محمد قبل رسالته ، وطرأ له فى الطريق بعض العُذْر ، واضطُرّ أن يعود فلم يختر لصحبته فى عودته إلا بلالا . »
وكذلك رفعت بلالا نفسُه ومواهبه إلى أشرف أعمال العرب ، وإلى أسمى

جماعاتهم ، وما هو إلا أن أذِن الله بالخير ، وأوحَى إلى رسوله بشريعته حتى كان من أول المؤمنين أبو بكر وبلال .

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدعو الله سِرًّا : « من اتبعك على هذا الدين ؟ » فقال : « رجلان ، حُرّ وعَبد . » وكان الحر أبا بكر والعبد بلالا .

مضى بلال فى عمله لسيده يعبُد الله سرًّا ، ويجتمع بالرسول عليه الصلاة والسلام ، فَيُروى بآيات الله قلبه . ولكن سره قد فَشَا واطلع سيده على ما يكتم من إيمانه ، فسأله : « أَحقًّا يا بلال قد استخفَّك محمد ، فصبأت وكفرت باللّات والعُزّى . »

فقال : « ما استخفّنى محمد وما صَبأتُ ، وإنما هدانى الله ، وأرشدنى الرسول الأمين محمد ، فآمنت أنه لا إله إلا إله واحد ، لا يُعبَد سواه ، ولا يُشرَك معه غيره من حيوان أو إنسان أو حجر . » فقال مولاه : « لقد تكهّن العبد ، وغلبه سِحر محمد فملأ قلبه ضلالاً وبهتاناً . ما لِلعبد وتَخيُّر الأرباب ، والتمييز بين الأديان — يوم يكون له فقط أن يختار سيده ، ومالكَ رِقّه ، أو يتصرّف فى شىء من المال بيده . فَليَرْق بصرك إلى السماء ، وَلْتَعْلُ إلى المفاضلة بين الأرباب ، ولكنا — أيها العبد — أحسنّا إليك ورفعنا من قدرك . فدعاك سوء الطبع ولُؤْم النفس إلى

نُكران جميلنا ، والخروج على ديننا ، والكفر بآلهتنا . فإن لم تعبد آلهة سيدك فما أهون أن يُراق دمك كما يراق فى جانب من البادية دم شاة . »
قال بلال : « لا بأس بالموت يا مولاى ! هو سبيل كل حيّ ونهاية كل حياة . ولهُو أحبّ إلىّ من الضلالة والكفر ، وحياة الفساد والذل . » قال السيد : « إن ابن الأَمة ليتشجع فيُبدى زَهادة فى الحياة واستِخفافاً بالموت ، وهو إن رأى السيف عائد إلى رشده ، فقد علمنا من دِينِ العبيد أنه لا يملأ عقلَ العبد هَوًى وقلبَه طاعة إلا العصا والسيف . »

قال بلال : « ما يعيب ابن الأَمَة — يا سيدى — ولا ابن الحُرّة أن يتشجع ، ولا يحتاج إلى الشجاعة حتى يستخِف بالموت ، وإنما يحتاج أن يعقِل ويرى لِيستخِف به ، ويهونَ عليه ، ويعلم أنها مِيتة يذوقها المرء مرة ويتجرّعها الذليل ألف مرة . . . . »

ثارت ثورة الغضب فى نفس أُميّةَ بن خلَف مَوْلى بلال وسيد بنى جُمَح ، وصرخ لمن حوله : « خذوا العبد إلى الموت . »

مضى بلال هادئَ النفس ، مطمئن القلب ، يتلقّى الموت الذى أمر به سيده . وفكر أمية : إن قتل بلالا فما كان إلا خَسارةً عليه وضياعاً من ماله ؛ فخَيْر له أن يُستبقَى ويُسْتصلح ، وأن يُرهق عذاباً حتى يرجع

ونادى خادمه : أن أمسكوا عن قتل العبد . أما بلال فقد آمن أن « الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . » وما يملك العبد إلا نفسه ، فقد باعها من الله واستَربحَ الثمن . وعاد أمية إلى بلال ينصحه ويعذِره ، ويُخوفه ويُنذِره ، والمؤمنون يُساوَمون بإيمانهم ، ولا يُزحزحون عن دينهم ، فيأمر أن يُعذب ويُنكَّل به حتى ينزِع عن عناده . فإنما شؤم العبد على نفسه .

ويُعرّى بلال من أثوابه ، ويُلبَس دِرعا من حديد ، ويُحكَم وثاقه ، ويلْقَى فى حَرّة من حِرار مكة ضَاحِياً للشمس المُحرقة . ويُحمى حديد الدّرع فيُكوى جلده ويُشوى على هِينةٍ . ويُطيلون عذابه وهو صابر مُحتسِب ، ويقولون : « عُد يا بلال عن دينك ، واعبد اللّات والعزّى . » فيقول : « أحد ، أحد ، إنما هو الله أحد . » ويشمَت ببلال مَن يشمت ويشفع فيه مَن يشفع ، ويذكر أميـة من خُلق بلال أنه عبد عنيد أبِيّ ، وأنه إذا شُهر مَهيناً لم يلبث أن يَذِلّ . فيأمر به أن يشوّه منظره أقبح ما يُرى ، وأن يُلبس أخزى ثياب ، وأدْعاه للهزؤ والسخرية . ويُقاد بحبل فى عنقه ، ويجمع حوله الصبية ، ويُطاف به حول الكعبة فى موكِب صاخب ساخر .

كان تدبيراً لئيماً أليماً بلغ من نفس بلال وأرهقَها إرهاقاً . ولكنه الإيمان

يحلو به المرُّ ، ويلَذ معه الألم ، ويكون احتمال الألم فى سبيله إعزازاً .

وطاف موكب الصبية حول الكعبة يُنادِى ببلال : « هذا الكافر بدين اللّات . هذا الجاحد بنعمة العُزَّى . » ونادى العاطفون عليه المستبْقون له : « عد لدين اللات والعزى يُنجيك من موقف الذل وعذاب الهُون . » وبلال يجيبهم : « أحد . أحد . إنما هو الله أحد . »

وأحسَّ أمية عجزه أمام بلال ، واستشعر احتقار العرب له ، إذ لم يملك عبده ولم يستطع فى أمره حَوْلا . وسعى الساعون إليه : لقد ملأتَ البيت بعبدك ضجيجاً وصَخَباً . هلا عذَّبته أو حبسته وأرحتَ الناس منه ؟ فما عسى أن تصنع إن وثب بك فتًى من قومك ؟ أو صبأ إلى دين محمد أحد من أهلك ؟

وكان أبو بكر الصِّديق يعلم هذا ويَضيق به ، ويود لو استطاع أَن يَفدى صديقه فى الجاهلية وصاحبه فى الإسلام ، ورفيقه فى السَّبق إلى الدين الحنيف . فسعى حتى اشتراه وأعتقه ، واتخذه الرسول أميناً له وخازناً .

عُذِّب المسلمون بمكة ما عذِّبوا حتى أُذن لهم فى الهجرة فهاجروا ، ثم قاتلوا وقُتلوا ، وهزَموا وهُزموا ، وبلال بجوار الرسول فى عُسره ويُسره . حتى جاء نصر الله والفتح ، ودخل المسلمون مكة فاتحين

غالبين ، وحُطّمت الأصنام وهُدّمت اللات والعزى! وقام بلال على ظهر البيت يؤذن :

« الله أكبر . الله أكبر . »

فتردَّد صَداه أَرجاء مكة ، ويُجيب دعاءه سادة العرب . أىّ ثأر ثأر العبد ! بل أىّ فَوْز أدرك دين الحق ! وأى آية لله تعالى فى طىّ هذا الفوز ؟ وليد منفِىّ ، وعبد مَهين ، وغريب مخذول ، يقوده الصبية بحبل فى عنقه ، ضُحْكة الصغير وسخرية الكبير — يضع اليوم قدمه فى رءوس الأصنام ، ويقوم على أنقاض العصبيّة وأطلال الجاهلية يؤذن بنداء الحق .

« الله أكبر . الله أكبر . »

إنها لآية من آيات الله أن يكون أول مؤذن باسمه فى بيته هذا العبدُ الحبشى المَضيم المنفِىّ ، وإنها لَعِبرة أن يُعدّ لَهُ بالأمس موكِب الصبية يهتفون باسم اللات ، فيقوم اليوم فى جيش من المسلمين ينادى من أعلى البيت باسم الله وحده : « الله أكبر. الله أكبر. لا إله إلا الله . »

ما كان أملأَ هذه الكلمات لصدر بلال ! وما كان أقواها على لسانه ! بل ما كان أملأَها لما بين السماء والأرض ! وأقواها فى قلب كل مؤمن !

وقرَّت عين بلال بما نال الحق من الفوز . فهل علم أن نداءه هذا سيملأ الدنيا وتُردّده أقطار العالم ؟ أكان يُقَدِّرُ هذا ؟ أكانت تبلغه آماله ؟ بلى ! تعلَّمه وآمن به ، وقرأ كلمة ربه : « هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ . » فما ارتاب وما كان للمؤمن أن يَرتاب .

عاد بلال إلى المدينة مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، أمينَه وخادمه وصاحب الدعوة إلى الصلاة ومؤذّنه ، حتى أراد الله لنبيه خير الدارَيْن ، وصُدِعت قلوب المسلمين وذهِلوا ، ثم ثابوا إلى أنفسهم ، وتجمّعوا حول الجسد الكريم مُسَجًّى ، وقام بلال يؤذن :

« الله أكبر . الله أكبر . »

ويتمثل وجه الرسول وبِشره وإيمانه وعَزمه ، وأنه كان ملء القلوب ، وملء العيون ؛ بل ملء الدنيا ، حياةً وهُدى ومَعانى من الإيمان والذِّكرى فاض بها قلب بلال فتمثّلت فى ندائه .

« الله أكبر . »

وفى صوته الباكى ودَمْعه المُرسَل . فأى قلب لم يرتجف هناك ، وأىّ دمع لم ينهمِر ، وأىّ نفس لم يَغشَها من الحزن لَوْعَة سابقة . ثم أَفاق وأَفاقوا إذ نادى : « حىّ على الصلاة . » وأَقبلوا على صلاتهم ، فكان هذا آخر صوت رفعه بلال بالأذان فى المدينة ، وجَهَدَهُ أبو بكر

أن يؤذّن بعدها ، واشتد عليه عمر ، فأبى ، ثم أبى وقال : « ما أملك صوتاً أرفعه بالأذان بعد ، ولكنى يا خليفة الرسول قد سمعته صلى الله عليه وسلم يقول : « خير الأعمال بعد الإسلام الجهاد . » ولا جهاد اليوم بالمدينة فأرسلنى إلى الثغور . فما لبلال من سمع ولا بصر ، ولا يد ولا قدم — إلا لله ، فإنية فى سبيل الله . » وأحب أبو بكر أن يبقيه معه ناصحاً ومشيراً ، ومحدثاً بما علم من حديث الرسول وسنّته ؛ فقد كان طويل الصّحبة كثير الخلطة ، ولكن بلالاً لم يعرف مذ كان عبداً إلا أن يرى الرأى فلا يرجع عنه ، وما يحاول إلا أفضل الأعمال . وقد علم أن خير الأعمال الجهاد ، فلابد له أن يجاهد . وأُرسل إلى الشام إلى خالد بن الوليد أميناً وخازناً — كما كان مع الرسول ومضى لربه أبو بكر ، وجاء عمر وعزل خالداً وولى سعْداً ، وكتب إليه أن يشاطر خالداً ماله ، ويردّ نصفه إلى بيت المال . فنفّذ سعد وسلّم بلالاً نصف مال خالد ، ولكنه تردّد أن يقاسمه شيئاً من المال ، وأحبّ أن يجامل خالداً ؛ إعزاز قائد لقائد ، وبُقيا أمير على أمير . فقال بلال لسعد فى قوة وعزم : « إليك كتاب أمير المؤمنين فاقرأه . وقف فى التنفيذ عند ما رسم فيه . » وسلم خالد بما أراد بلال وهو يقول : « نطيع الأمير ونعظم المولى . »

ولما تم للمسلمين دخول بَيتِ المَقدِس ، وحضر لذلك عمر من المدينة ، دعا بلالا أن يؤذّن بين يديه أول أذان للمسلمين فى بيت القدس ، فأجاب بلال : « أما الآنَ فنعم ، ما يمنع العبد أن يسعَد بهذا المَجد ، وأن يكون أول رافع للصوت بأذان الصلاة فى المسجِدَيْن المُكرَّمَيْن : المسجد الحرام والمسجد الأَقْصى . »

فهذا بلال ! إباء وعِزّة ، وإيمان وصدق ، وجهاد وصبر . وما نكاد نذكر من فضائله إلا أنه كان مؤذن الرسول . وأَكرِم به مَقاما . ولكن كان فى صدر بلال ما هو أَجمل من صوته — وإن كان سوِيّاً جميلا . وفى عمله ما هو أَجل من الأذان — وإن كان عظيماً جليلًا .

٥٥ — من وصية بعض الأدباء لابنه

يا بنى ! إذا اجتمعت عليك أشغال جمّة ، فابدأ بأحبّها إلى الله عزّ وجل ، وأَحمدِها عاقبة . قال الشاعر :

اعمَل وأنت من الدنيا على حَذَرٍ واعلم بأنك بعد الموت مبعوث
واعلم بأنك ما قدّمتَ من عمل مُحْصًى عليك وما خلَّفت مَوْروث

يا بنى ! إذا فعلت معروفاً فلا تَمُنَّ به ؛ فإن المِنَّة تهدِم الصنيعة ، وتُحبِط الأجر ، وتُسقِط الشكر . ولذلك قال الشاعر :

فلا تك منّاناً بخير فعلتَه فقد يُفسد المعروفَ بالمَنّ صاحبه

وكن يا بنى أحسن ما تكون فى الظّاهر حالاً ، أقل ما تكون فى الباطن مالاً . واعلم أن الكريم مَن كَرُمت عند الحاجة طبيعته ، وظهرت عند الافتِقار نِعمته . قال الشاعر :

ولا عارَ إن زالت عن المرء نعمةٌ ولكنّ عارًا أن يزول التجملُ

يا بنى ! عليك بالوفاء ، فإنه يدعو إلى التُّقَى ، واعلم أنه لا يتمّ كرم المرء إلا بحسن وفائه . قال الشاعر :

إن الوفاء بعهد الله عادَتنا ولا يفى بعهود الله كذّاب

يا بنى ! إذا وعدتَ أحداً عِدة فَتممها ، وعجِّل بها ، وإياك أن تقول « لا » فيما قلتَ فيه « نعم » :

ولا أقول نعم يوماً وأُتْبِعهـــا بلا ولو ذهبتْ بالمـــال والولد

يا بنى ! خذ فى أمورك بالأناة وحسن التثبّت ، تَسلمْ من عِتاب الإخوان عند عواقبها . كما قال الشاعر :

قد يدرك المتأنّى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزّلَل

يا بنى ! إذا ائتمنَك أحد على أمانة فَالْهُ عن ذكرها ، حتى تسلّمها مَصونة إلى أهلها . فى ذلك قال الشاعر :

وإذا اؤتمِنت على الأمانة فارعَها إن الـكريم إلى الأمانة راعِى

يا بنى ! كن حذِرًا كأنك غِـرّ ، وكن ذاكراً كأنك ساهٍ ، وكن فَطِناً كأنك غافل ، فإن اللبيب العاقل هو الفِطن المتغافل . وإذا اعتذر اليك أحد من قول بلغك عنه أو سمِعتَه منه فاقبل معذرته ، ولا تَدَع صِلته ، فتكون قد جعلت صديقاً عدوًّا وفى ذلك يقول الشاعر :

ومن لا يُغمِّض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يَمُت وهو عاتب

يا بنى ! كن جَواداً بالمـال فى موضع الحق ، بخيلاً بالسِّر على جميع

الخلق ، فإن من تمام كرم الحرّ القيامَ بالبر ، والبخلَ بمكتوم السّر كما قال الشاعر :

أجود بممنوع التلاد وإننى   بسرّك عمّن رامَه لضَنين
وإن ضيّع الإخوان سرًّا فإننى   كَتوم لأسرار العَشير أمين
وعندى له يوماً اذا ما ائتمنته   مكان بسَوْداء الفؤاد مَكين

ولا تدع — يا بنى — مواصلة الكريم ، وفِرَّ الفرار كله من اللئيم ؛ فإنه لا يستقيم لك ودّه إلا مِن حاجته إليك ، أو فَرَقِه منك ، فإن استغنى عنك كان عليك ، وإن احتَجت اليه هُنتَ عنده . قال الشاعر :

إن مَن أحوجَك الدهر اليه   وتعلّقتَ به هُنتَ عليه
ليس يصفو وُدُّ من واخيْتَه   إن تعرّضت لشىء فى يَديْه

يا بنى ! لا تستَخِف بحقوق الرجال فيستَخِفّوا بحقك ، وأقبل منهم الجميل ، وكافِئْ عليه ؛ فإنك إن فعلت ذلك دام لك حَمدهم ، وصفا لك وُدّهم . وخذ بقول الشاعر :

خُذِ العفو واصفَح عن أمور كثيرة   ودع كدَر الأخلاق واعْمِد لما صَفَا
وبَغْيِ عــدو كاشِح قد علِمْته   فكُنتُ كمن أغضى بعَين على قذى

يا بنى ! لا تَعِبْ أحداً بما يبدو لك من عيوبه ، فإذا هَممتَ بذلك فاذكر عيوب نفسك ؛ فإنك ترى ما يَشغلك عن عيوب الناس ؛ فإن

عِبت أحدًا بما فيه كان ذلك قبيحاً ، وأَقبحُ منه أن تَعيبه بما فيك ، وفى ذلك قال الشاعر :

إذا ما ذكرتَ الناس فاترك عيوبهم   فلا عيبَ إلا دون ما منك يُذكر
فإن عِبت قوماً بالذى هو فيهمُ   فذلك عند الله والناس مُنكر

يا بنى ! إياك وقرينَ السُّوء ؛ فإنما صلاح أخلاق المرء بمقارنة الكِرام ، وفسادها بمحادثة اللِّئام . وإنما يُعرف المرء بقرينه وخَدينه ، قال الشاعر :

عن المرء لا تسأل وسَلْ عن قَرينه   فكلُّ قرين بالمُقارن يَقتدى

يا بنى ! لا تمازِح حليماً ولا سفيهاً ؛ فإن الحليم يَغلِبك ، والسفيه يُؤذيك . واعلم أن المِراء يُمْرِض قلبك ، ويُضْعِفُ رأيك ، ويُزرى بمُروءتك عنـــد جُلسائك ، ويفسد الصداقة القديمة . وفى ذلك قال الشاعر :

فإياك إياك المِراء فإنه   إلى الشَّر دعَّاء وللسوء جالب

يا بنى ! لا تُفتَتَن بالمال ؛ فإنه كالمسافر ، يَحُلُّ ويرحَل . واعلم أن العقل مقيم لا يبرح . ومَثَلُ مَن له مال ولا عقل له ، كرجل له نَعل ولا رجل له ؛ ومثل مَن له عقل ولا مال له ، كرجل له رِجل ولا نَعل له ، فإن آتاه الله النَّعل فالرِّجل مُهيَّأة له ، وإن أُوتى نَعْلاً مَن لا رِجل له ، فإنما هى أعجوبة فى الناس .

قال الشاعر :

إذا كنت ذا عقل ولم تك ذا غِنًى   فأنت كذى رِجْلٍ وليس له نَعْلُ
وإن كنت ذا مال ولم تك عاقلا   فأنت كذى نَعل وليس له رِجْلُ

يا بنى ! إذا أتيتَ بلداً أهلها على غير ما تعرف ، فاترك كثيراً مما كنت تعرف ، وخذ بما يعرفون ؛ فإن ذلك من حسن المُداراة ، وكثير مَن دارى فلم يَسْلَم ، فكيف بمن لم يُدار ؟ قال الشاعر :

ياذا الذى ليس له والد   يَمشى على الأرض ولا والدَه
قد مات من قبلهما آدمٌ   فأىُّ نفس بعـــده خالِده
إن جئتَ أرضاً أهلها كلّهم   عور فغَمّض عينك الواحده

يا بنى ! كن من الحليم على حذَر إن أَحرجتَه ، ومن اللئيم إن أكرمتَه ، ومن الأحمق إن مازحتَـه ، ومن الفاجر إن عاشرته . واعلم أن من الناس من يقول ويفعل ، ومنهم من لا يقول ولا يفعل ، ومنهم من يفعل ولا يقول ، وهو خـيرهم ، وشرهم الذى يقول ولا يفعل .

يا بنى ! أغضِ عن الفُكاهات والحكايات ، ولا تحدِّث أحداً عن إعجابك بولدك وزَوجتك ، ولا إعجابك بسيفك ولا فرسك . وإياك وأحاديث الرّؤيا فإنها تُطمع فيك السُّفهاء ، فيُولِدُون

لك الأحلام ، ويُفسدون فى عقلك . ولا تلبَس من الثياب مشهورًا ، ولا تتخذ من الدواب مبطورًا ، ولا تتصنع تصنُّع المرأة ، ولا تتبذّل تبذُّل العبد وتوَقّ الكُحل والإسراف فى الدُّهن . ولا تُلحّ فى الحاجات ، ولا تخضع فى الطلبات . وإياك أن تُعلِم أهلك وولدك كثرة مالك أو قلته ؛ فإنهم إن علموا قِلّته هنت عليهم . وإن علموا كثرته لم تبلُغ به رضاهم .

يا بنى ! إذا خاصمتَ فدع الحِدّة ، وفكّر فى الحجة ، واصبر لمن خصَمك ، ولا تغضَب فتذهلَ عن حجتك . وأَرْ الحاكم بينكما حلمك ولا تُكثر الإشارة بيدك . وإن قرّبك سلطان فكن منه على حدّ السّنان . وإن أمِن إليك فلا تأمن انقلابه عليك ، وارفُق به رِفقك بالصبي ، وكلِّمه بما يشتهى . وإياك أن تَدْخُل بينه وبين أحد من ولده وحشَمه وغلمانه ، وإن كان لقولك فيهم مطيعاً ! فإن أهل الملوك أصحاب خَلْوتهم .

٥٦ — قصة قصير مع الزَّبَّاء وجَـذيمة

كان جَذيمة من أفضل الملوك رأياً ، وأوسَعِهم حيلة . وهو أول من استجْمع له المُلْك بأرض العراق . وكانت منازِله ما بين الأنْبار والحيرة . فقَصد فى جموعه عمرو بن حَيَّان . فجمعَ عمرٌو جموعه ، ولَقِيَهُ فقتله جَذَيمة ، وفَضَّ جُموعَه ، فانفلُّوا وملَّـكوا بعده عليهم ابنتـــه الزَّبَّاء .

وكانت من أحْزم النِّساء ؛ ما رُئِى فى نساء زمانها أجمل منها ، وكانت كبيرة الهمة ، فخافت أن تَغْزُوَها ملوكُ العرب ، فاتخذت لنفسها نفقاً فى حصْن كان على شاطِئ الفرات ، وسكنت الفُرات فى وقت قلةِ الماء . وبنت فى وسطه أزَجاً من الآجر والكاس ، متَّصِلاً بذلك النَّفَق . وجعَلت نفقاً آخر فى البرِّيَّة متَّصِلاً بمدينة أُختها ، ثم أجرت الماء عليه . فكانت إذا خافَت عَدُوًّا دخلت النَّفَق .

فلما استجمع لها أمرها ، واستحكم ملـكُها ، أرادت أن تَغزو جذيمة ثائرة لِأبيها ، فقالت لها أختها — وكانت ذات رأى وحزم : « إنك إن غزوت جَذيمة فإنه امرؤ له ما يصدُّه ، ولا تدرِين كيف تكُونين ألَكِ أم عليك ، ولـكن ابعَثى إليه ، فأَعْلِميه أنك قد

رَغِبْت فى أن تتزوجيه ، وتجمعى ملكك إلى مُلْكِه . وسليه أن يجيبَك لذلك . فإن اغترّ ظَفِرْتِ به بلا مُخاطرة . »

فكتبت الزَّبّاء إليه بذلك تقول له إنها قد رَغِبتْ فى صِلَة بلَدها ببلده ، وإنها فى ضَعْفٍ من سلطانها ، ولم تجد كفوًا غيره ، وتسأله الإقبال عليها ، وجمع ملكها إلى ملكه .

فاستخفه الطمع ، وشاور أصحابه . فكلٌّ صوَّب رأيه فى قصدها وإجابتِها إلا قَصير بن سعد ، فقال : « هذا رأىٌ فاتِر ، وغَدْرٌ حاضِر ؛ فإن كانت صادقة فلتقْبِلْ إليك ، وإلا فلا تمكِّنها من نفسك ، فتقعَ فى حِبالِها ، وقد وترْتَها فى أبيها . » فلم يوافق جَزيمة قولَه ، ورحَل إليها . فلما دخل عليها أمرت بقَطْع رَوَاهِشه ، ونزف دمه ، إلى أن مات .

فخرج قصير إلى عمرو بن عدى ابن أخت جذيمة فقال : « هل لك فى أن أصرف الجنود إليك على أن تطلب بدم خالك ؟ » فجعل ذلك له ، فأتى القَادة والأعْلام ، فقال لهم : « أنتم القادةُ والرُّؤساء ، وعندنا الأموال والكُنوزُ . » فانْصَرف إليه منهم خَلْق كثيرٌ ، وملّكوا عَمْرَو بنَ عَدِىّ . فقال قصير : « أُنظر ما وعَدتنى به فى الزَّبّاء . » قال : وكيف وهى أمْنَعُ من عُقاب الجوّ ؟ » فقال قصير :

« إذا أَبَيْتَ فإنى جادِعٌ أَنـفِي ، وأُذُنى ، ومحتالٌ لِقتلِها ، فَأَعِنّى وخلَاكَ ذمٌّ . » فقال له عمرو : « أنت أَبْصر » فجدعَ قصيرٌ أنفه ، ثم انطلق حتى دخل على الزّباء ، فقالت : « من أَنت ؟ » فقال : « أنا قصير ، لا وربّ البشَر ما كان على ظهر الأرض أحدٌ أَنْصحَ لجذيمة منى ، ولا أغَشّ لك ، حتى جدَع عمرو بن عدِيّ أنفى وأُذُنى ، فعرفت أنى لن أكون مع أحد أثقل عليه منك . » فقالت : « أىْ قصير ! نَقْبَلُ ذلك منك ، ونُصَرّفك فى بضاعتِنا . » فأعطته مالاً للتجارة ، فأتى بيت مالِ الحيرة ، فأخذ مما فيه بأمر عمرو بن عدِيّ ما ظن أنه يُرْضيها ، وانصرَف إليها به ، فلما رأت ما جاء به فرِحَت وزادَته ، ولم يَزَلْ بها حتى أنِسَت به ، فقال لها يوماً : « إنه ليس من ملكةٍ ولا ملك إلاّ وقد ينبغى له أن يتّخذَ نَفقاً يَهْرُبُ إليه عند حُدوثِ حادِثَةٍ يَخافُها . » فقالت : « إنى قد فعلتُ ذلك ، واتخذت نَفَقاً تحت سريرى هذا ، يَخْرُج الى نفَق تحت سرير أُختى . » وأرته إياه ، فأظهر لها سروراً بذلك ، وخرج فى تجارته كما كان يَفْعَلُ ، وعرف عمرو بن عدىّ ما فعله ، فركِب عمرو فى ألفى دارع على ألف بعير فى جوَالق ، حتى إذا صاروا إليها تقدّم قصير يَسْبِقِ الإبل ، ودخل على الزّباء ، فقال لها : « اِصعَدى

حائط مدينَتِكِ ، فانظرى إلى مالِكِ ، فإنى قد جئت بمال صامت . » — وقد كانت أُمِنَتْهُ فلم تكُن تتَّهِمُهُ ولا تخافُهُ ، فلما نظرت إلى ثقل مَشْيِ الجمال قالت :

ما للجمال مشيها وئيدا   أجَنْدَلاً يَحْمِلن أَم حديدا
أم صَرَفاناً بارداً شديدا   أم الرِّجالُ جُثَّماً قُعودا

فلما دخلت الإبل ، خرجوا من الْجَوالق ، فثاروا بأهل المدينة ضرباً بالسيف . ودخلوا عليها قصرها ، فهربت تريد السرب ، فوجدت قصيراً قائماً عنده بالسيف ، فانصرفت راجعة ، واستقبلها عمرو ابن عدى فضربها . وقيل : بل مصَّت خاتمها ، وقالت : « بيدى لا بيد عَمرو . » وخُرِّبت المدينة ، وسبيت الذَّرارى ، وغَنم عمرو كل شىء كان لها ولأبيها وأُختها . والله مالك الأمر كله .

٥٧ – يوم عصيب فى جبل المقطم*



مطلع جبل المقطم أمام القلعة

«كان ذلك يوم جُمعة من شهر فبراير سنة ١٩١٩ ، ولم أكن حينئذٍ حديث عَهْد بجبل المقطَّم ، أو قليل خِبرة بوِدْيانه وطرُقاته . ولكنها حالة طارئة من النوع الذى يُبتلى به رُوّاد الصحراء ، فتودى بهم ، أو تجعلهم يتخبَّطون فيها على غير هدى إلى أن تنتشِلَهم العناية الإلهية .

كانت تجربة قاسية – ولكن الله سلّم – ولا يظنن القارئ أن هذه التجارب وأمثالها تصُدّ رُوّاد الجبال فى الصحراوات عن رِحْلاتهم ؛ بل هى مما يزيد فى خبرتهم وحَماستهم ، ويجعلهم يُقدمون غير هيّابين ولا وَجِلين . »

* للاستاذ الدمرداش محمد مراقب الامتحانات ، وهو أشد رحال التعليم فى مصر عناية بالرحلات ، وارتياد الصحراء .

« خرجت من منزلى فى هذا اليوم فى الصباح مُبَكراً ، ومعى أحد الأصدقاء ، بقصد زيارة الغابة المتحجرة الكبرى بجبل المقطم ، على أربع ساعات من القلعة بالسير الحثيث ، فى جهة الجنوب الشرقى . وكان اليوم صَحْوًا والطَّقس معتدلاً ، والهواء ساكناً ، وكنا نرجو أن نعود بعد الظهر بقليل فلم نأخذ معنا ماء ولا طعاماً سوى شَطيرتَيْن لكل منا ، وكانت ملابسى خفيفة ، وليس معى من مَرافق الرحلات الجبلية سوى عصا قصيرة . »

« وصلنا « المنشِيّة » فى منتصِف الساعة السابعة ، دُرنا حول القلعة من جهة « عرب اليسار » . وبعد أن اجتزنا تِكية « سيدى المغاورِىّ » أخذنا نرقى الجبل . وبعد نصف ساعة وصلنا هضبة المقطم السفلى ، ومررنا بقلعة الجبل ، ومقام سيدى « الجيوشى » . ثم أخذنا طريقنا إلى هضبة المقطم العليا ، واتبعنا الطريق الذى يسلكه عادة من يقصِدون إلى عيون « موسى » . وبعد ساعة مررنا بهذه العيون ، ثم انحدرنا إلى وادى « اللَّبلابة » — وهو واد متسع ، قليل الارتفاعات — فأخذنا طريقنا فيه متجهين نحو الجنوب . وبعد أن تركنا عيون « موسى » بساعتين ، وصلنا الغابة المتحجرة الكبرى ، وقد قطعنا ١٨ « كيلومتراً . »

«كانت الساعة وقتئذٍ العاشرة والنصف ، وكنا على أحسن ما نكون نشاطاً وسروراً ، وكانت الشمس ساطعة ، والهواء دافئاً منعِشاً ،



في طريق الغابة المتحجرة الكبرى

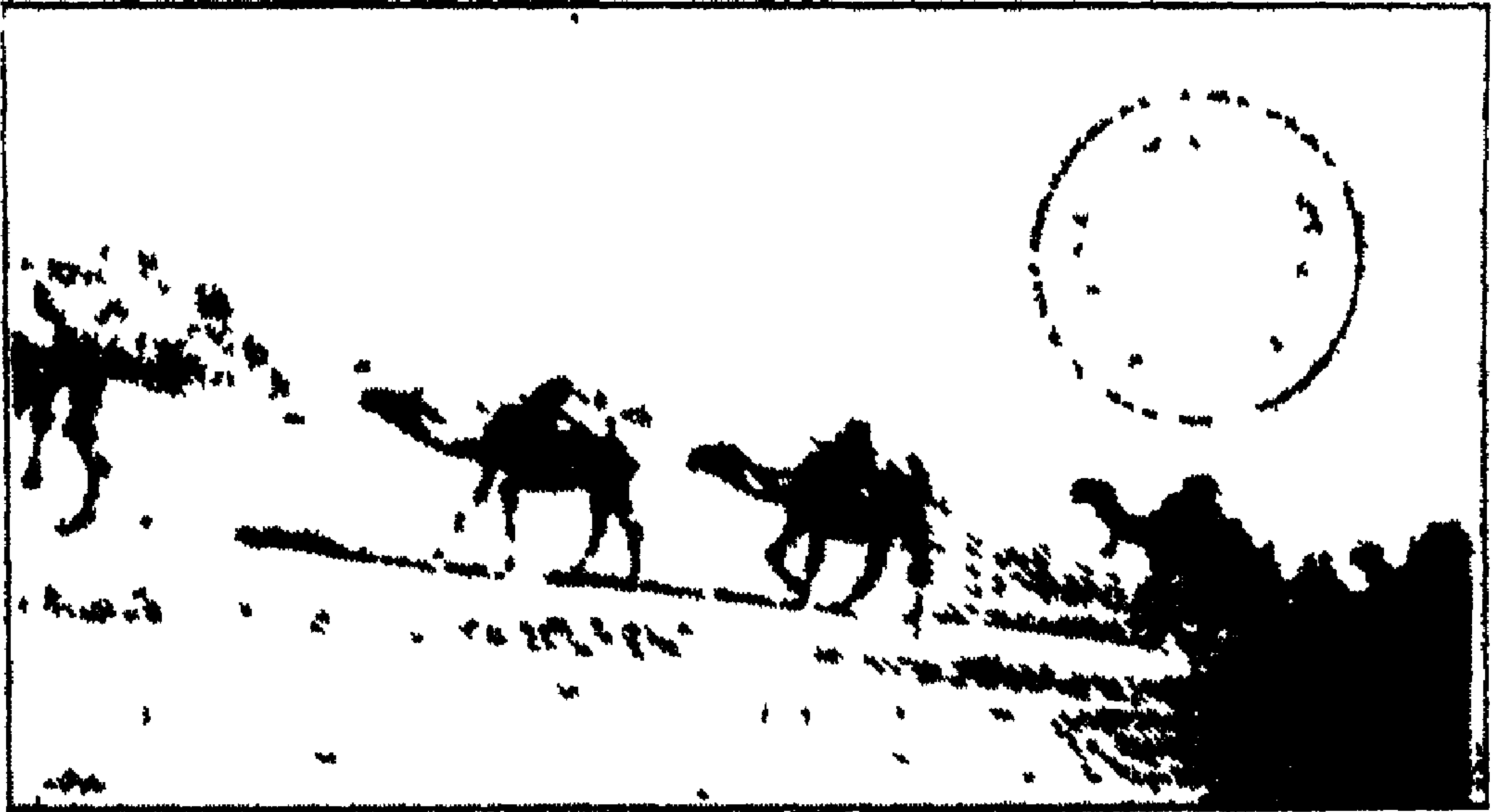
واسترحنا قليلا ، وتناولنا ما كان معنا من الطعام . ثم انطلقنا نجوس خِلال تلك الغابة ، باحثين مُستطلِعين ، فهذا جِذع شجرة مُلقىً على الأرض نخاله من بعيد جذع شجرة حقيقية ، فإذا تبيَّنته عن قرب وجدته قطعة من الصخر الرمليّ ؛ فالرمل قد حل مكان الخلايا النباتِيَّة ، وتلون بألوانها ، وتشكَّل بأشكالها وتعرجاتها . وإذا طرقته بقطعة من الصخر ، أسمَعَك صوتاً فيه رنين المعدِن . وهذا فرع شجرة حلّ به ما حل بالجذعِ . »

« قضينا فى الاستطلاع نحو ساعتين ، والجو حسن ، وكل شىء على ما يُرام ، ولكن لم نكد نتأهّب للعَوْدة منتصفَ الساعة الواحدة حتى شعرنا بأن ريحاً شمالية غربية باردة ذات سحُب بدأت تهب فى وجوهنا ، ثم تلبّد الأفق من الغرب بسحب كثيفة ، وزادت سرعة الريح . وبعد قليل انتشر فى الجو ضَباب كثيف . وحوالى الساعة الواحدة سقط رَذَاذ خفيف ، وبدأت الشمس تحتجب وراء السحب . »

فلما تغيّرت الحال كما رأيت ، عزمنا على العودة مسرعين ، فاتجهنا نحو الشمالى الغربىّ ، قاصدين السير فى الطريق نفسه الذى سلَكناه فى الصباح . ولتلبُّد الجو بالضباب ، واختفاء الشمس ، اعتمدنا فى تعرُّف الجهات على هبوب الريح ؛ فجعلنا نسير فى الاتجاه المضادّ لهبوبه . وسرنا نحو ساعة بالسير الحثيث ، وهنا لحظتُ أن معالم الطريق بدأت تتغيّر ، فلم أهتم لذلك ، وقدّرت أننا انحرفنا قليلًا جهة الشرق أو الغرب . ولكنى بعد ساعة أخرى ، أدركت أننى أسير فى طريق لم آلفه من قبل ، فساوَرنى بعض القلَق ، وأخذ صاحبى يسألنى عن موضعنا من القلعة ، ومتى نصل ، وهكذا من الأسئلة المتنوعة . »

« كنا قد وصلنا فى هذا الوقت إلى وادٍ صَخْرى عميق ظننته لأول

وَهْلة وادى « عيون موسى » ، ولـكن بعد أن نزلنا ، وسرنا فيه قليلا ، تأكدت أنه غيره . وهنا أَمطرَتنا السماء مِدراراً فتبلَّلت ملابسنا ،



وادى عيون موسى فى طريق الغابة المتحجرة الـكبرى

وتوحَّل الطريق فعاقنا ذلك عن السير . ثم بَرد الجو فلم نر بُدًّا من الالتجاء إلى مَغارة قريبة لنستريح فيها قليلاً . فلما خف المطر ، أستأنفنا السير فى الاتجاه نفسه . وبعد ساعة أخرى أدركت تماماً أنى أسير على غير هدى ، وأَيقنت بعد أَن تنكَّر الطريق أنى قد ضَلَلْتُ ، وتملـكنى ضيق صدرٍ شديد ، وساوَرَتنى المخاوف ، وأَخذت أَتصور سوء المصير فى هذه المَفاوِزِ حيث لا ماء ولا طعام ولا غِطاء . ولكنِّى وجدت من الحـكمة أن أُخفىَ الأمر على صاحبى ، فكتمت كَرْبى ، وتكلَّفت الاطمئنان تكلُّفاً ، وكنت كلما سألنى عن القلعة وعن سبب تأخرنا ، أجبتُه أنَّا

لا بُدّ واصلان إن شاء الله . ولكنه بالرغم من محاولتى إخفاء اضطِرابى ، وتصنُّعى الهدوء — لَحَظ صاحبى فى وجهى شدة الحَيْرة والغضب ، فأخذ يشكو الجوع والبرد والتعب . وزاد الطّين بِلّة أن ثارت فى وجهنا فى هذه اللحظة زوبعة رملية شديدة ، وهَطل المطر كأنه يُصَب من أفواه القِرَب ، فعَميت عيوننا ، وأصبحنا غَرقَى فى لُجّة من الماء والوحَل .

« وكنا حينئذ نسير على ظهر جبل عالٍ ، لا يزيد عرضه على عشرين « مترا » ، وعن شمالنا واد عميق لا يقل انخفاضه عن مائة « متر » ، وقد يزيد ، وعن يميننا وادٍ آخر كالأول إلا أنه أكثر اتساعاً ، وأقل انحِداراً . وكان الظلام مُخَيِّماً فى كل مكان ، وكانت الريح باردة عاتية ، تَسفِى فى وجوهنا الرمل والتراب باستمرار ، فتعذَّرت الرؤية ، واشتد بنا الكرب ، وتوقعت فى كل خطوة أن نَهوِىَ فى هُوّة عميقة ، أو نسقط على الأرض من الإعياء . »

طلب منى صاحبى ونحن فى هذا الموقف الحرِج أن نأوِى إلى مَلْجَأ يقينا البرد والمطر ، وشكا إلىّ ما حلّ به من التعب المضنى ، فسرَّيْتُ عنه وشجعته ، ثم أفصَحت له عن حقيقة موقفنا بكلمات قليلة ، ورجوته أن يصبر ، وقلت له : « إن الليل قد دَهِمَنا ، وليس لنا واقٍ فى هذه الجبال إلا رحمة الله ، وإن الوقوف عن الحركة يضرّ بنا ؛

فملابسنا مبلَّلة ، وبطوننا خاوية ، والبرد قارس ، ولا فائدة من التذمُّر . ثم أردَفتُ ذلك بقولى : « ربما كنا أقربَ إلى السلامة مما يبدو لنا الآن . »

« فلما وقف صاحبى على ما نحن فيه ، اضطرب كثيراً ، ولكن لم يلبث — لحسن الحظ — أن سلم أمره لله ، وقال : « وأنا معك ، فالله سبحانه يتولانا بلطفه وهدايته ! » ثم قال : « ولماذا لا نسير فى عكس اتجاهنا ، فقد جربنا السير فى اتجاه مضادٍّ للريح ولم نصل إلى غاية ؟ » فقلت له : « ربما لَحظت أنى دائماً أسير والريح فى وجهى ؛ لأنى أعلم أن هبوب الريح فى مصر فى هذا الشهر من السنة يكون عادة من الشمال الغربى أو الغرب ؛ فالسير فى هذا الاتجاه أسلمُ عاقبة ، ما دمنا لا نملك وسيلة أخرى من وسائل الاهتداء إلى الجهات الأصلية ، ولا بدّ أن يؤدىَ بنا السير عاجلاً أو آجلاً إلى وادى النيل . » فقال : « عسى ! » ثم سكت .

وبعد أن قطعنا مَرحلة أخرى ، رأيت من الحكمة أن ألتجِئ إلى الوادى بسبب الظلام الدّامِس ، والبرد القارس ، فاخترت نقطة ظننت أنها أقل خُطورة إذا أَردنا أن نهبِط الوادى . وأشرت إلى صاحبى أن يتبعَنى ، وأن يكون حريصاً يقِظاً ، وأن يستجمع كل قواه

حتى لا تزِلَّ قدمه ، فيهوِى إلى الحضيض ، فأومأ بالإيجاب . وفى أقل من نصف ساعة ، وصلنا بَطن الوادى بسلام ، وبعد أن استرحنا قليلًا ، أخذنا طريقنا متبعين تعاريج الوادى . وقد قلت فى نفسى : « إن كُتِب علينا البقاء فى البَيْداء هذه الليلة ، فسنجد فى إحدى المَغاور ملجأً وحِماية . »

بعد أن سرنا فى الوادى نحو « كيلومتر » فطِنت إلى أننا متجهان إلى منبَع الوادى ، فعُدنا أدراجَنا ، ولدينا أملٌ — إنْ نحن واصلنا السير — أن نصل إلى مَدخل الوادى فى وقت قريب ، وقد نهتدى عنده إلى طريق يكون لى به معرفة . »

« فى هذا الوقت العصيب بَرِقَتْ لِى بارِقة أمل على غير انتظار ، بدّدت كثيرًا من غمنا وكآبتنا ، وأعادت إلينا شيئاً من الطُّمأنينة والثقة . كانت الساعة السادسة والنصف مساء عند ما أدركت أنْ لى بالوادى الذى نسير فيه معرفة سابقة من بعض الشواهد والعلامات . وبعد قليل ترجَّحَ عندى من تعاريج الوادى ونظامها أنا نسير فى وادى دِجلة . ثم لم نلبث طويلاً حتى ثبت لى من علامة مميَّزة فى الحائط الجنوبِى للوادى — وهى فتحة مَغارَة لها شكل خاص — أن الوادى هو وادى دجلة حقيقة ، فكِدت أطير من الفرح ،

وأخذتنى نَشوة سرور أعجِز عن وصفها ، ولا يشعر بمثلها إلاّ من كان فى مثل موقفنا وحالتنا عند ما تنتشله العناية الإلهية من ضِيق مُهلك ، إلى سلامة مؤكَّدَة . ثم أخذت أفكّر فيما عسى أن يكون قد جرى لنا ، حتى تحوّلنا عن وِجهتنا الأصلية إلى هذا الوادى . ووادى دِجلة واد طويل ، يبلغ طوله من مدخله حتى نهايته نحو اثنى عشر « كيلومترا » ، كثير التعاريج ، ينتهى بشلّال هو غاية فى الجلال ، يقصده كثيرون من مُحِبّى الرحلات الجبلية ؛ للاستمتاع بمشاهِده الفريدة ، ومناظره البديعة . ويقع مدخل الوادى فى الشرق من « طُرَةَ » على بُعد ساعة ونصف منها ، وتمتد بينهما سلسلة من التلال تُخفى مدخل الوادى ، وتجعل الوصول إليه مُتعسِّراً . وعقِبَ الأمطار الغزيرة ، يُتْرَع الوادى بالماء ، ويخرج منه سَيْل جارِف يهدِّد المِنْطَقَة المجاورة « لطرة » بالإتلاف والغرق . »

« بشّرت صاحبى بالخلاص من الوَرْطة فانتَعش ، وعادت إليه بشاشته ، وأخذت — ونحن نسير فى الوادى — أقصّ عليه بعض ما صادفته من المواقف الحرِجة فى رحلاتى السابقة ، وأبين له كيف كنت أخرج منها فى كل مرة سالماً — بتوفيق الله وبفضل الاطمئنان ، ورَباطة الجأش ، ومعونة ذاكرتى التى تحفظ كثيراً من العلامات المميِّزة للجبال والوِديان حين أزورها . »

« مضت ساعة على هذه الحال ، ولم نصل بعد إلى مَخرج الوادى فقال صاحبي : « هل من نهاية لهذا الوادى ؟ » فقلت : « لم يبق إلا ساعة واحدة . » فقال : « وماذا بعد ذلك ؟ » قلت : « إما أن نقصد « طُرة » ، ونركب القطار إلى باب « اللوق » ، وإما أن نذهب إلى « المنشية » عن طريق البساتين ، ومقابر الإمام الشافعى . »

« فقال إنه يُفضّل الطريق الأخير . فقلت : « لا بأس ، وعلى كل حالٍ فالزمن اللازم لقطع المسافة فى الحالتين لا يقل عن ساعتين من مدخل الوادى . » فتضجّر صاحبي ، ونظر إلى ساعته ، ثم قال : « إننا لن نصل إلى بيوتنا قبل نصف الليل . » وبعد سكونٍ طويل ، عاد فسألنى : « هل من خَوف علينا من الوحوش أو اللصوص فى هذه الجهات النائية الموحِشة ؟ »

« فقلت : « كن مطمئناً فالله معنا ، وهو يحمينا . » فقال : كيف ذلك وليس معنا ما ندفع به عن أنفسنا غير هذه العصا ؟ » مشيراً إلى العصا التى كنتُ أحملها . وقبل أن أجيبه عن سؤاله عثَرت قدماه بحجر كبير ، فكاد يسقط ، فتألم وتضجّر ثم سكت وسكتُّ ، وغَشِيَنا سكون عميق لا نسمع فيه غيرَ وقع أقدامنا على أرض الوادى

الصّخرية ، وصَفير الريح فى صُدوع الصخور ، وثقوبها . ولا أُطيل القول ، فقد كانت الساعة التاسعة عند ما وصلنا مدخل الوادى ، وما كِدنا نتجه نحو بلدة البساتين حتى أمطرَتْنا السماء مدراراً مرة أخرى ، واشتد الظلام فلم نر إلا قليلا مما أمامنا ، ولم يمنعنا ذلك من الجِدّ فى السير ، ثم أخذنا نَرقَى أول تَلٍّ فى طريقنا ، وهو يرتفع عن السهل نحو خمسين « متراً » .

« وحدث هنا أمر كاد يقضى علىّ لولا لُطف الله ؛ فعند ما كنا نتسلّق التل إلى ظهره ، صاح بى صاحبى مستنجداً ، فالتفتُّ إلى الوراء فجأة لأتبيّن ما حل به ، ممسِكا بكلتا يدىّ بحجر فى جدار التّل ، فلم أشعر إلا وقد زلِقت يداىَ ، واختلّ توازُنِى ، وأخذ جسمى يتدحرج بعنف إلى الأرض ، ولكن قُدِّرت لى السلامة . فصدمنى حجر آخر منعنى من الهبوط ، بعد أن أصِبت فى رأسى وركبتى إصابة بسيطة ، ولما استعَدتُ توازنى انتَصَبْتُ واقفاً ، وأنا لا أكاد أصدّق بالنجاة . ثم سمعت صاحبى ينادينى وقد بلغ ظهر التل ، فاتّكأت على عصاى ، وسرت فى طريقى إليه ، وأنا أشعر بدُوار من أثَر الصدمة . وعند ما أدركته استرحنا قليلا ، وقد سُرِّىَ عنى بعض الغم . ثم لحظت أن الريح تهب من الجنوب الغربى ، فاستغربت ذلك ، وأدركت السر فى

وجودنا فى مكان بعيد عن الغابة المتحجرة الكبرى بنحو (١٢) « كيلومتراً » جهة الجنوب الغربىّ ، مع أن سيرنا منذ الظُّهر كان نحو الشمال حسب ظنّى ، وذلك أنى واجهتُ الريح ، لأنها تهب من الشمال الغربى ، فلما تغيّر اتجاهها ، وهبّت من الجنوب الغربى ، دُرنا معها فى مُنحْنٍ واسع من غير انتباه . »

« استرحنا ، وقمنا متجهين نحو البساتين ، وقطعنا فى التل مسافة طويلة ، ثم أخذنا نتحدر نحو القرية ، وهنا انقشَعت السحب ، وصفا أديم السماء ، وظهرت النجوم ، فألقيتُ نظرة على ما حولى ، ولشد ما دَهِشتُ حينما وجدتُ أنّا لانزال نسير أمام مدخل وادى دجلة ، فكظمت دهشتى وحَيرتى ، وعدّلت اتجاهى مرة أخرى ، وعدنا فارتقينا التل مرة ثانية . وبعد قليل تبين لى أيضاً أننا لا نزال نسير أمام الوادى . »

« أمر غريب محيّر لم أر فى تعليله إلا شيئاً واحداً هو : أنى بعد تلك الصدمة العنيفة لم أقو على معرفة الاتجاهات بدقة . فلما صرت إلى هذه الحال ، أشَرتُ على صاحبى بالجلوس للراحة ، قال : « ولماذا ؟ » فقلت له : « لقد ضَلَلْنَا الطريق مرة أخرى . » فما كاد يسمع هذه الكلمة حتى خارت قواه ، وسقط على الأرض ،

وعَرَته رِعدة شديدة ، وأقسم لا يَبرح مكانه . ثم استولى عليه النُّعاس فنام نوماً عميقاً وجلست بجانبه ، وأخذت أفكِّر في الأمر ، وأنا مُغْتَمٌ يائِس ، وبدا لي أن أعود إلي الوادي ملتمِساً ملجأً نأوِيَ إليه حتى الصباح . بيد أني رأيت قبل تنفيذ هذه الفكرة أن أقوم بمحاولة أخيرة نخلعت سترتي وألبستها عصايَ ، وغرست العصا في الأض بجانب صاحبي ؛ لأستدل بها على مكانه عند عودتي . ثم صعِدت إلى أعلى قمة بالقرب منا ، مستكْشفاً ما حولنا ، وأدَرتُ بصري في الجهات الأربع ، فلمحت جهة الغرب وراء الأفق ضوءا ساطعاً ، ظننته أول وَهْلة ضوء مصانع شركة الأسمنت في « المعصَرة » ، فهَرْوَلتُ إلى صاحبي أزُفّ إليه هذى البُشرى ، وأيقظته من نومه قائلاً : « لقد أبصرت ضوءا قويا جهة الغرب ، سوف يَهديني سواء السبيل . » فلم يكترِث لقولي ، ويظهر أَن النوم كان قد أعاد إليه قواه ، فنهض في نشاط ، وقال : « هيا بنا ! » وقال كلمات لم أتبيَّنها ، ثم اعتمد على كِتفي بإحدي يديه ، وأخذنا نسير . وعوَّلت هذه المرة أن أَتَّبعَ مسيل الوادي من غير انحراف ، فاتخذت طريقي في مَجرى السيل خُطوة خطوة . »

« وكان جسمي وعقلي متعبَيْن ، وعيناى غائرَتَيْن ضعيفتين ، وعلى الجملة كنت مُضعضَعاً سيِّئَ الحال . وكنت أشعر بيده على كتفي كأنها

حجر ثقيل ، فكنت أنقلها من كتف إلى كتف من غير أن أزعجه في سكونه . »

« وبعد ساعة ونصف ، ظهرت لنا أضواء شديدة ساطعة انشرح لها صدر صاحبي ، وعاودته بَشاشته ، فأخذ يمزَح ويعيب هيئتي الرَّثة ؛ فوجهي شاحب ، وطَربوشي فقد شكله من الأمطار ، وأصبح متهدِّلاً ، كاسياً رأسي حتى أذني ، وبدلتي تقلَّصت وضاقت ، فارتفع طرف سِرْوالِي إلى قرب رُكبتي ، واستَرْخَى جَوْربي فغطى حذائي ، وامتلأ الحذاء ماء ووحَلًا ، وعلى الجملة كان شكلي مُضحِكاً ، وهيئتي تدعو إلى الشفقة والرِّثاء . »

« بعد أن فرَّج صاحبي بعض كَربه بأمثال هذه المُهاتَرة ، سألني : « فيم أفكر ؟ » فقلت : « إني أستغرب وجود هذه الأضواء الشديدة في هذه البُقعة . » فقال مازحاً : « لا تستغرب ، فربما كان الجِنّ قد نصَبوا لهم هنا عُرساً . » فقلت : « نعوذ بالله ! فحَسْبنا ما أصابنا هذا اليوم ! » وبينما نحن في هذا الحِوَار ، سمعنا صوتاً غريباً يَرِنّ في الفضاء ، فوجِمنا لهذه المفاجأة الجديدة ، ثم أنْصَتْنا بشدة خِلتُ معها أني أسمع دبيب الحشرات في بطن الأرض ، وأخذنا نُحدِّق يميناً وشمالاً عسى أن نهتدي لمصدر الصوت فلم نر شيئاً . »

وبينما نحن فى اضطراب وحيرة ، رنّ الصوت فى الفضاء مرة ثانية ، وكان فى هذه المرة جَليًّا ، وسمعنا « هولت » Holt` « هولت » ، فقلت لصاحبي بلهفة : « قف . » فقال : « ما الَخطب ؟ » فقلت له : « يظهر أننا فى وسط مُعسكر للجنود الإنجليزية . » فقال : « يا لسوء المصير ! » فقلت له : « اطمئن ولا تخف ! »

وبعد قليل تقـدم إلينا ثلاثة من الجنود الإنجليزية ، مدجّجين بالسلاح ، وسألونا : « هل معكم سلاح ؟ » فأجبْنا مأخوذين : « ليس معنا سوى هذه العصا . » فقالوا : « تقدما . » فتقدمنا ثم قادونا إلى خَيمة قريبـة مضروبة بالقرب من المعسكر ، فوجدنا بها ضابطاً شابًّا على كرسىّ ، وأمامه مِنضدة عليها كتاب يقرأ فيه . فلما لمحنا نظر إلينا شَزْرًا ، وسألنا وهو يتثاءب : « هل أنتما هاربان من المعسكر ؟ » فأجبت : « لسنا جنوداً . » فقال بخشونة : « أقصد أنكما أسيران هاربان من المعسكر . » فقلت : « عَفْوًا ! لسنا من الأسرى . » فقال وهو يُحملِق إلينا : « مَن أنتما إذن ؟ . » فقلت : « أنا فلان ، ووظيفتى كذا ، وزميلى فلان ، ووظيفته كذا . » فكتب ذلك فى ورقة أمامه . ثم قال : « ما خطبكما ؟ » فقصصت عليه حكايتنا بإيجاز ، فلم يكد يسمع طرَفًا منها حتى اعتدل

فى كرسيِّه ، وألقى الكتاب جانباً وأصغى بانتباه . وما كدت أنتهى حتى مدّ إلينا يده مُصافحاً ، ثم غمَرنا بلطفه وكرمه ، وأمر لنا بكرسيّين من القماش فجلسنا ، ثم أمر لنا بقَدَحين من الشاى وبعض « البسكويت » فشربنا وأكلنا ، وبعد أن شكرته على إحسانه ، وجميل عواطفه ، قال : « إن واجبه يقضى عليه — بعد أن سمع قصّتنا ، وتحقّق من صِدقنا — أن يُخَلِّىَ سبيلنا ، ولكنه يرى أننا فى غاية التعب والضعف ، فهو يدعونا لنكون فى ضيافته حتى الصباح . فشكرته كثيراً على معروفه ، واعتذَرت إليـه ، ثم رَجَوت منه أن يأمر لنا بمُرشد يقودنا إلى محطة سكة الحديد ، فقال : « ولماذا لا تمكثان هنا هذه الليلة ؟ » فقلت : ألا ترى يا سيدى أننا فى الساعة الثانية صباحاً ، ولا بد أن أولادنا الآن فى قلَق شديد على مَصيرنا ؟ وقبيح بنا أن نطيل عذابَهم أكثر من ذلك . » فأطرق قليلًا ، ثم أنعَم النظر فينـا وقال : « حَسناً ! هيا بنا ! » فأركبنا سيارة أقلتنا إلى محطة « طرة » ، ثم ركبنا القطار إلى باب اللوق ، ومنها قصدنا منزلَينا ، شاكرين الله سبحانه فضل العناية والرِّعاية .



٥٨ — بتهوفن *

فى ٢٦ من مارس سنة ١٩٢٧ احتَفَل العالمُ بمرور مائة عام على وفاة بتهوفن ، إجلالاً لتلك الألْحان القُدْسِيَّة التى أَورثها إياه هذا النابغة الشّقى ، والتى ما تزال — برغم ما أحدث كبار رجال الموسيقى — آياتٍ خالدةً فى عالم النَّغَم . فما تزال ألْحان بتهوفن ، وسائر أناشيده الغِنائية تموج فى جوِّ الوجود فتزيده بالحياة نِعمة ، وتشدو فى أغْوار نفوس عارفيها والمعجبين بها ، كلّما أعوزهم اللَّحن العَذب ، ليرفعَ من هممهم ، وليقوّى عزائمهم .



وما يزالُ اسم بتهوفن — ولن يزال — مُقْتَرِنا بكل لحن من هذه الألحان ، بكل نَغَمةٍ من نغماتها . وذِكر العالم له لمرور مائة عام على وفاته ليس إلا أداءا لِدَيْن الشكر الواجب على العالم لكل من زاد حياته جمالاً وفضلاً وقوة .

* من كتاب (فى أوقات الفراغ) لمعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا .

يذكر العالمُ كلّه بتهوفن ، فيذكر ذلك الألمانى المولد ، الفلمنكيّ الأصل . المتقارب أجزاء الجسم ، فى قِصَر يكاد يجعله قزما ، الحاد الفطرة ، العبوس المتجهّم للحياة بعد ما تجهّمت الحياة له فأورثته المرض ، وانتهت به إلى الصَّمم .

يذكر العالم هذا الرجل الذى لم يجد فى غير العمل سبيلًا للسعادة ، أو بالأحرى لحسن احتمال الشقاء ، والذى توفر على فن الموسيقى توفراً جعله يُنتج هذه الثروة الغنية .

والذى لم يعرف غير الموسيقى ، ولم يؤمن بشىء إيمانه بها كانت أعصابه أوتاراً تهتز بالنغم لكل ما فى الحياة . فقد كان ما فى الحياة عنده نغماً ؛ كان الجمال نغماً ، والعواطف نغماً ، والأفكار نغماً ، والنور والظلمة ، والحزن والمسرّة ، والزهر والشجر ، والسحاب والجبل ، وكل ما فى الطبيعة وما فى الحياة أنغاماً ، تَشدو بها أوتار هذه النفس العصبيّة الحاسة الشديدة التأثر بكل ما يُلامِسها .

بهذه الأنغام وبما تُعبِّر عنه من جليل المعانى ، وبذكرى واضعها يحتفل العالم .

وعجيب أن كانت حياة واضع هذه الأنغام السماويّة نِشازًا كلها ؛ فلم ينشأ « بتهوفن » نشأة غيره ، ولم تتّسق حياته مع نبوغه ، ولم يَذُق

من الهناءة ما يذوقه أمثاله ؛ بل كان معذَّباً فى نشأته ، معذَّباً جُلّ حياته ، معذَّباً كذلك فى موته .

ولد « لدفج فان بتهوفن » بمدينة « ليون » على مَقربة من « كولونيا » فى ١٦ ديسمبر سنة ١٧٧٠ ، وكان أبوه مغنّياً سِكّيراً .

وكانت أمه خادماً وابنـة طبّاخ وأرمَلَةَ فراش . وهذه بداية فى الحياة لا تبشّر بخير ولا بنعمة ، بل هى نذير صِراع للوجود قاسٍ قتّال . ولم يمهله أبوه إلى أكثر من الرابعـة من عُمْره ، حتى تبيّن منه مَيلًا للموسيقى ، فأراد أن يستغِلّه بعرضه على الناس ، فحبسه ومعه « كمنجا » صغيرة ، وأرهقه بالعمل حتى كاد يُكَرّهُ إليه فنّا خُلق له . لكن كسب الأب كان تافهاً ، فكان لا بُد للطفل أن يجنى من عمله عيشه . فما بلغ الحادية عشرة حتى كان عازفاً فى أَحد المسارح . وفقد أمه وهو فى السابعة عشرة من عمره ، فحزِن لفقدها أشد الحزن ، وأَلقى ذلك عليه أعباء العناية بأمر أسرته ، وتربية أَخَوَيه بسبب ما انحطّ من قُوى أبيه .

وفى نوفمبر سنة ١٧٩٢ ارتحل الموسيقىُ إلى « فينا » — عاصمة ألمانيا الموسيقية — على أَثر موت أبيه . وكان يومئذ — كما كان طِوال حياته — ميّالاً للعزلة محباً للعمل حبّاً جمّا . وكان لذلك قد جعل من « البِيانة » خير أصدقائه ، وإليها كان يَبُثُّ شَجَنَهُ حين اضْطُرّ لهجره دار أهله — وقد جعلتها

عَرْبدة أبيه جحيماً ، وإياها كان يستَودِع الأفكار الطَريفة التى يفيض بها قلبه ، وعليها كان يرتجِل هذه الأفكار ارتجِالاً ، ومعها كان يتناجى بما يجول فى نفسه من خَلَجات ، وما يَجيش به صدره من عواطِفَ . وبها كان يعبرّ للنساء اللواتى أحبَّ عما يغمُر قلبه من هُيام ، وما يحُزّ فيه من غيرة . بل لقد كان يتحدّث بها إلى أصدقائه ، ولم يكن أكثر منها بلاغة للعبارة عمّا فى نفسه .

فقَدت سيّدة من معارفه ولدها ، وجزِعت لفقده أىّ جزَع ، فلما ذهب « بتهوفن » يواسيها أَمسك بيدها ووضعها على قلبه وقال لها : « إن ما أشعر به هنا لا سبيل إلى بيانه . لكن « البيانة » ستقوله عنى » ثم جلس إلى الآلة الموسيقية وارتجل قطعة كانت للسيدة نعم العَزاء ، وكذلك كانت « البيانة » صديقته ، كما كانت موضع قوّته فى الموسيقى ، وسلطانه فى الارتجال .

ولقد قال عنه « موزار » — الذى ملأت ألحانه آذان ذلك العصر ، وما تزال إلى اليوم من مفاخر الموسيقى — : —

« تنبّهوا إلى هذا الشاب ؛ فسيكون موضع حديث الناس يوماً من الأيام »

ذهب إلى « فِينّا » على أثر وفاة أبيه بدعوة من كبار القوم هناك ، وفى

مُقدّمتهم « الكونت دوالشتين » . وكان أكبرُ همه من ذَهابه إليها ، أن يَدرُس على « هايدن » أكبر المؤلفين الموسيقيين الألمان يومئذ .

لكن « هايدن » كان مشغولاً بتواليفه جِدّ الاشتغال ، فلم يجد الشاب من وقته ما يفيـده ، فتركه بل قاطعه وعمَد إلى الدرس على « السير ختبرجيه » ، وكانت أخلاق هذا الأستاذ — على علمه — يشوبها كَثير من الغرور والجَفوة ، بما لا يتّفق وأخلاق « بتهوفن » الحرّة الثائرة . وعلى ذلك أكمل دراسته الموسيقية وحده فظلّ فيها من آثار النبُوّ عن متعارف القواعد ، ما لم يعبأ به نبوغه المُبْتـكِر ، وقوته الخارقة للمـــادة ، وسلطانه الذى حلق فى السّماك فخضعت له كل القواعد .

وعاضَده يومئذ « لخنفسكى » وآواه فى داره ، وفرض له ستمائة « فلورين » سنويًا . وألفت بينهما صداقة متينة ، لم تكن تخلو من أسباب لسوء التفاهم ، قضت دائمًا عليها الأميرة « لخنفسكى » التى كانت موسيقية تقدر فضل النابغة الذى يقيم معهم حَقَ قدره .

ويومئذ كانت الثورة الفَرنسوية تغزو العالم كله بمبادئها . وكان « بتهوفن » خَصماً لها أول أمره ، ولكن مداومته قراءة « هوميروس » و « أفلاطون » و « فرجيـل » وغيرهم ، وتَبَيُّنَه المبـــادئ

الجمهورية التى قامت عليها الثورة — جعل منه نصيرًا من أكبر أنصارها . ولذلك لم يتردد حين جاء إليه الجنرال الفرنسى « برناردوت » يطلب إليه أن يضع لحنًا symphonie لمجد قنصل الثورة « بونابارت » . وأتم « بتهوفن » اللّحن وكان على أهبة إرساله إلى باريس ، وإذ ذاك علم أن « نابليون » توّج نفسه إمبراطورًا فما لبث أن عاد إلى بيته ساخطًا ومزّق لحنه وقال : « كلا ! هذا رجل مطامع كغيره من الرجال . » ولم يُرد أن يَسمع بعد ذلك عنه خبرًا . ثم ألح عليه أصدقاؤه بعد سنوات من ذلك أنْ يعيد هذا اللّحن إلى الحياة ، فغيّر فيه القطعة الثانية — وكانت نشيد النصر — ووضع بدلها نشيد الأسَى ؛ كأنما ينعَى به ما كان من انهيار آماله . وسمّى اللحن « لحَن البطولة » ، وأضاف إلى عنوانه هذه العبارة : « إحياء لذكرى رجل عظيم . »

ومن يومئذ بدأت تواليفه ومصنّفاته تفيض فَيْضًا . فكَتب عِدة ألحان من خير ألحانه . ويومئذ أحسّ بسلطانه وآمَن بقوته ، وفاض عنه الرضا بالحياة والسكينة لها . وتدل الصور التى صورته فى ذلك العصر على مبلغ طمأنينته وعظيم أمله فى المستقبل . ففى سنة ١٧٩٦ كتب فى مذكراته الخاصة يقول : « إقدامًا ! وبرغم

أسباب ضعف الجسد فالنصر لعبقريتى ، هأنذا بلغت الخامسة والعشرين . . . فيجب فى هذا العام أن يظهر الرجل كاملاً . »

وأول حفلة عامة له « كبيانىّ » وقعت فى ٣٠ من مارس سنة ١٧٩٥ ، لكنه لم يبقَ لديه ريب فى قوته ، ولم يُخْفَ ذلك على أحد من أصحابه .

لكن يا لقَسْوَةِ القدَر ! فما كاد هذا النابغة القوى يتربَّع على دَست عظمته ، حتى بدأت مقدمات الهم واليأس تسلك إليه مسارِبَها . وبدأ وجه الحياة يتجهم ، وبدأت نُذُرُ الشقاء تتقدّم ، وبدأت مقدمات الصَّمم تظهر بطَنين الآذان ليلَ نهارَ طنيناً مُزعِجاً . وقد ظل سنواتٍ يخفى مرضه حتى على أعز أصدقائه . وكيف تريد موسيقيًّا على أن يقول للناس إنه أصم ؟ لكن ذلك لم يقعد به عن مداومة العمل ، ولئن ظهرت بعض آثار الحزن الناشئة عن آلامه فى عدد من الألحان ، التى وضعها فى ذلك الحين — لقد بقى أكثرها بسّاماً طروباً . غير أنه لم يُطق كتمان عِلّته بعد أن احتملها خمس سنوات تِباعا ، فكتب فى سنة ١٨٠١ يشكو هذه العِلة إلى كثير من أصدقائه ، ومن بينهم صديقه « أمندا » إذ كتب يقول له :

« عزيزى الطيّب الرفيق « أمندا » . . . . كم كنتُ أرجو أن تكون بجانبى . فصديقك « بتهوفن » بائس غاية البؤس ؛ ذلك أن سمعى —

وهو أكرم أجزاء نفسى علىّ — قد ضَعُف كثيراً ، وكنت أشعر منذ كنا معاً بأعراض المرض ، وكنت أُخفيه ، لكنه اطَّرد سُوءه من بعد . فهل أشْفى ؟ أرجو ذلك بالطبع ، ولكن رجائى فيه قليل ، فمثل هذا المرض أشد مما سواه استعصاء على البُرء وسأضطر لقضاء العيش فى بؤس ، فأتجنب كل ما أُحب ، وكل ما هو عزيز علىّ . . . يا لشقاء الاستسلام الذى يجب أن ألجأ إليه ! لا ريب أنى فرضت على نفسى السُّموّ فوق كل هذه الآلام . فهل ترى أستطيع تحقيق ما فرضت ؟ »

وأدى به الصمم والمرض والانقطاع عن الناس وخيانة صديقته ، إلى اليأس من الحياة ، وإلى اليقين باقتراب ختامها . وزاد به اليأس حين ذهب إلى إحدى ضاحيات « فينّـا » مستشفِياً ، ومكث بها ستة أشهر لم يُفِد لسمعه خلالهـا شيئاً . هنالك كتب وصيته التى نثبتها هنا ، وإن كان قد عاش بعدها خمساً وعشرين سنة ؛ لأنها تدل على عظيم ألم هذا الرجل المظيم ؛ كما تدل على عظيم نبوغه ، وعظيم إيمانه بفنّه ، وعلى طهارة نفسه ، وطِيب قلبه وحبه الناس . وتدل على أن هذه العواصف كانت فى نفسه هَيّاجة ثائرة — كهذه الموسيقى القويّة

الثائرة، التي نسمعها له في كثير من ألحانه، وحتى في ألحانه الرّقيقة اللُّحمة والسَّدَى . قال :

« يأيها الذين ينظرون إليّ ، ويحسبونني حقوداً أو بَرِماً بالناس ، أو متطيراً بالحياة ! لشَدَّ ما تظلمونني ! إنكم لا تعرفون السبب الخفيّ الذي يُظهرني بهذا المظهَر ! فقد كان عقلي وقلبي متجهيْن منذ طفولتي إلى عاطفة رقيقة هي الطيبة ، وكنت دائماً مستعدًّا لأقوم حتى بعظائم الأعمال . لكن صوّروا لأنفسكم بؤس حالي منذ ست سنين ، هذه الحال التي زادها الأطباء الأغرار سوءا ، والتي ما أزال أُخدَع في أمرها عاماً بعد عام ، آملاً في تحسُّنها ، ثم اضطر آخر الأمر لأحبسها : حالاً مُزمنة يقتضي البرء منها — إن كان فيه أمل — عدة سنين ، وقد يكون هذا البرء مُحالاً . »

« لقد ولِدت ذا مزاج حاد نشيط ، مستعد لذوق مسرات الاجتماع ، ثم اضطررت — وما أزال في أول عمري — إلى عيش العزلة ، وحاولت التغلب على ذلك فصدمتني التجربة الأليمة القاسية غير مرّة ، وجدَّدَتْ عندي الإحساس بمرضي . ثم إني ما كنت مستطيعاً أن أقول للناس : ارفعوا الصوت وصيحوا فإني أصم . وكيف أستطيع أن أذيع ضعف حاسة كان يجب أن تكون عندي أدنى إلى الكمال منها عند الآخرين ؟

حاسة كانت فى الماضى بالغة من الكمال حدًّا لم يُتَح لقليل من أبناء فنى أن يبلغوه . كلا ! لا أستطيع . فاعذرونى إذاً إن رأيتمونى أعيش عيش العزلة ، بينما أريد أن أكون معكم وفى صحبتكم ، وشقائى مضاعف إن كان ألمى سبباً للحكم علىّ حكماً قاسياً . ولقد مُنعت أن أجد الراحة والطمأنينة فى الاجتماع بالناس ، وفى المحادثات الظريفة ، وفى العطف المتبادل ؛ فأنا وحيد منقطع ، لا أستطيع أن أجازف بنفسى فى الجماعة . وما لم تُكرهنى على ذلك حاجة ماسّة ، فيجب أن أعيش منفيًّا . فإذا اقتربتُ من جماعة مَلك على الاضطراب مجموع حواسى ، خشية أن أتعرّض لوقوف الناس على بيّنة أمرى . »

« ومن ثَمّ أمضيت هذه الستة الأشهر فى الريف ، وقد طلب إلىّ طبيبى الفاضل أن يُعنى بسمعى جَهد الطاقة . وبلغ من ذلك أكثر مما كنت أرجو ولقد شعَرت غير مرة بالميل للاجتماع بالناس ، وتركت نفسى تنال مُناها . ولكن أى منزلة أن أرى رجلاً على مقربة منى يسمع قيثارة من بعيد ولا أسمع أنا شيئاً ، أو يسمع غناء الراعى ولا أسمع أنا شيئاً . ولقد قرّبت هذه التجارب بينى وبين اليأس ، حتى كدت أقضى بيدى على حياتى . لكنه الفنّ — الفن وحده — هو الذى استبقانى . أوَّتاهُ ! لقد بدا لى أن من المحال

أترك هذا العالم قبل أن أُتِمّ كل ما أحسست أنى مطالَب بأدائه ، وكذلك أطلت فى هذه الحياة اليائسة — والبائسة حقًّا — لجسد سريع التهيج حتى لَيَنقُلُه أَقل تغيير من خير الحالات إلى أَسوئها . . . . . . صبراً ! كذلك يقولون . وهو الصبر الذى يجب أَن أُختاره الآن لى مرشداً . وقد اخترته . وإنى لأرجو أن تظلّ عزيمتى على المقاومة حتى يَرضى الله بالقضاء على بقية حياتى . وإن يصلُح الحال أو يَسُوءْ فإنى لصابر . أَلا ليس يسيراً أن يُكْرَهَ الإنسان — وما يزال فى الثامنة والعشرين من العمر — على أن يكون فليسوفاً ، وذلك أشدّ قسوة برجل الفنّ منه بأى رجل آخر . »

« اللهم إنك لتَستشِفّ من سمائك حُجُب قلبى وتعرفه ، وتعلم أنه عامر بحب الناس والرغبة فى عمل الخير . وأنتم أيها الناس إذا قرأتم يوماً هذا الذى أكتب ، فاذكروا كم كنتم ظالمين لى . وإن الشقى ليتعَزَّى إذا رأى شقيًّا مثله قام — برغم كل ما أَلقت الطبيعة فى سبيله من عقبات — بكل ما فى جهده أن يقوم به ؛ كى يكون فى صف رجال الفن والصفوة المختارين . »

لدفيج فان بتهوفن

لم تُنشَر هذه الوصية إلا بعد وفاة « بتهوفن » . لكنها تدل على

مبلغ ما كانت تضطرب به نفسه حين كتبها من الآلام وعلى شديد إيمانه — مع ذلك — بالفن ؛ هذا الإيمان الذى جعله يستأخر الموت ، وإن كان فى الموت راحة له من شِقوته وأوْصابه . ويستأخره ليُتم رسالته ، وإن عانى فى سبيل إتمامها من الآلام ما لا قِبَل لغيره باحتماله . وكذلك ترى النوابغ حقًّا يستهينون فى سبيل إبراز مواهبهم ، بكل ما يحرص الناس عليه ، وبكل مايجزَعون منه ويفرون .

وبينما كان « بتهوفن » يكتم هـذه الصيحات الفاجعة ، مكتفِياً بترجيعها فى صدره بينه وبين نفسه ، وبإثباتها على القرطاس ؛ لتكون سبيلًا إلى سلامته بعد موته — كان أخواه يستغِلان ألحانه استغلالاً مادياً ، ما كان « بتهوفن » ليعنى به لولا حبه لأخويه حباً يتفق مع عظَمة الفضيلة ، التى تفيض بها نفسه أناشيدَ وألحانا قُدسية سامية . وكثيراً ما خاطبه أصحابه فيما يجنى عليه أخواه من مَساءات ، فكان جوابه وهو يبكى : « لكنهما أخوَاىَ . » وما لأخويه وبكائه ! إنه لهما مزرعة تُستغلّ ، ومورد رزق فيّاض .

« وبتهوفن » لا يُفيد من ذلك المال كله ، إلا ما يقيم حياته المليئة بالآلام . فأما هذه الحياة التى يحتفظ هو بها للفن ، فليست فى مِلكه ؛ لأنها هبة القَدَرِ للوجود كله فى حاضره ومستقبله .

هى قيثارة قدسية بعثها يد العناية إلى هذا العالم ؛ لتُنشِد الناس كل ما أبدعته العناية فى الخلق من نغمات . وإلى أن تتم هذه الرسالة الواجبة عليها ، يجب أن يبقى صاحبها معذَّبًا شقيًا ، ويجب أن يستريح لعذابه ولشِقوته ، أو — على الأقل — يجب أن ينسيه إيمانُه برسالته ، وانصرافه بكل وجوده لإبلاغها — هذا الشقاء وهذا العذاب .

وكان حظ « بتهوفن » مذَبذَبا : فما تكاد آوِنة طمأنينته تطول به زمنًا ، حتى تعقبها آونة شقاء أطول منها ، وتعدل مَرارتُها أضعاف حلاوة تلك الآوِنة .

وكم لاقى بسبب صَمَمه من عناء وهمّ ، فقد أراد أن يدير « أوبرا » فى سنة ١٨٢٢ ، وكان جليًا منذ الفصل الأول أنه عاجز عن هذه الإدارة كل العجز ، فقد كانت عصاه بطيئة ، فكانت الآلات الموسيقية بطيئة معها ، لكن المغنّين لم يكونوا يستطيعون اتّباع هذه الموسيقى فكانوا يُسرعون . وحصل اضطراب اضطر معه مدير « الجَوق » العامل إلى إيقاف التمثيل . ثم عاد « بتهوفن » إلى الإدارة ، وعاد التمثيل إلى الاضطراب .

قال صديقه الدكتور « شندلره » : « ولم يقْوَ قلب أَحد على أن يدفَعه ليقول « لبتهوفن » : تنحَّ أيها البائس ؛ فأنت عاجز عن الإدارة . ووقف التمثيل المرة الثانيـة ، فوقف « بتهوفن » ينظر فى

كل ناحية يريد أن يعرف سبب الاضطراب ، ولما لم يفهم شيئاً ناداني إليه ومد إليّ كراسته لأكتب له ، فكتبت : أرجوك ألا تستمر وسافسّر لك في البيت سبب ذلك . فما هو إلا أن قفز صائحاً بي : « فلنعجّل بالخروج » وجرى إلى بيته بكل ما مكّنته قواه ، وهناك ارتمى على مَقْعَد ، وسند بيديه وجهه ، وجلس حتى ساعة الطعام لا ينطق بكلمة ، وساعة الطعام ظل صامتاً — وعلى وجهه أثر الألم الفاجع والانحلال الأليم . فلما كان بعد العَشاء ، وأردت أن أتركه رجا مني أن أصحَبه إلى طبيب كان معروفاً بأنه من خير أطباء الآذان . . . . وفي كل ما تلا ذلك من صِلاتي « ببتهوفن » لم أر يوماً كهذا اليوم القاسي من أيام نوفمبر . . . . وقد بقي هذا المشهد الأليم طَعْنة في قلبه حتى فاجأته منيّته . »

وفي سنة ١٨٢٤ كان حاضراً لتمثيل رواية على موسيقاه . ولما انتهت الموسيقى صفّق الناس أشد التصفيق ، فلم يسمع شيئاً ، ولم يعرف من أمر إجلال الناس لقطعته ، إلا بعد ما أمسكت مُغنّية يده وأدارت وجهه إلى ناحية الجمهور ؛ ليرى الأيدي المصفّقة ، والقبّعات التي تهتَزّ في الأيدي علامة الإعجاب والثناء .

وفي أيامه الأخيرة كان لا يأنس إلى الناس ، ولا يعرف غير الطبيعة : فكان يُرى هائماً في الغابات والأحراش ، وليس له همّ الا تدوين الأنغام

والألحان ، لا يحول بينه وبين ذلك حر ولا قُر ، ولا مطر ولا ثلج .

بعد ذلك مات أَحدُ أُخويه تاركاً من ورائه وَلداً أحبه « بتهوفن » بهذه القوّة التي كان يندفع بها إلى كل شيء وسار الفتى سيرة سيِّئَةً لم يُصلح منها حبُّ عمه إياه ، ولا مداومتُه نصيحتَه . وكان هذا الفتى كثيرَ الاستدانة ؛ فكان « بتهوفن » — من فرط حبِّه له — يعمل جهد طاقته لسداد ديونه . وسافر « بتهوفن » فى خريف سنة ١٨٢٦ يبحث عن وسيلة يوطِّد بها مستقبل ابن أخيه هذا ، فلما عاد فى أواخر نوفمبر سنة ١٨٢٦ أصابه بَرْد أَمْرَضَهُ ، ولم يكن أحدٌ من أصدقائه حاضِراً ليُعنى به ، فكلَّف الفتى أن يبحَثَ له عن طبيب ، فنسِى مدى يومين . ثم جاء الطبيب ، وعالج « بتهوفن » عِلاجاً سيِّئاً . وقد استطاع بقوة بنيته أن يقاوِمَ المرض ثلاثة أَشهر تباعًا . لكنه ضعُف بعدها ضَعْفاً أضاع الأمل فى شفائه ولولا كرم بعض الإنكليز من أصدقائه لقضى آخر أيامه فى بُؤْس وشِقْوة — ليس كمثلها بؤس ولا شِقْوَة .

ثم جعل ينتظر فى صبر وسكينة « ختام المهزلة » حتى يوم ٢٦ من مارس سنة ١٨٢٧ إذ عَصَفت عاصفة ، وهَطلت ثلوج ، وأرْعَدت السماء ، وهاجت الطبيعة بأصوات موسيقاها المَهينة المخيفةِ .

وعلى موج هذه الأصوات طارت روح « بتهوفن » إلى عالم الخلود وكان عُمْرهُ يومئذ ستًّا وخمسين سنة وثلاثة أشهر وتسعة أيام . فلما آن لجثمانه أن يُنقل إلى مقرّه الأخير شيَّعه ثلاثون ألفاً ، ولبِست « فِينَّا » عليه الحداد . ودفن فى مقبرة « وارنج » ، وما يزال قبره إلى اليوم فيها ، وعليه هذه الكلمة الوَحِدَةُ الخالدة : « بتهوفن » .

وكذلك قضى من كان يرى الموسيقى إلهاماً أسمى من الحكمة ومن الفلسفة ، ويتمثل أفكارَه فى عزف الآلات أكثر مما يتمثلها فى ألفاظِ الناس . وكذلك قَضى الذى يستصفى للإنسانية الرّحيق العَذْب ، ويُملى عليها أقدس ما فى الروح من جلال . قضى ونُقِل إلى قبره حيث خط اسمه . لكن روحه الماثل فى ألْحانه وأناشيده وعَزَفاته ما يَزال باقياً — ولن يزال وهل الرُّوح الخالد إلا العمل يترك به صاحبه فى العالم أثرًا خالدا ؟ ، وهل أثر أَخْلَد من موسيقى « بتهوفن » ؟ أم هل أثَرٌ أكبر منها سِحْرًا وقَداسةً ؟ فلا غَرْوَ أن هذا العالم يحتفِل بمرور مائة عام على وفاته ؛ إجلالاً لألْحانه القُدسيَّةِ السامية ، فيؤدى بعض دَيْن الشكر الواجب على العالم لكل من زاد حياتَه جمالاً وفَضْلاً وقُوَّةً .



معجم الكلمات الصعبة

وهو مرتب بحسب ترتيب الدروس

الدرس	الكلمة	معناها	الدرس	الكلمة	معناها
١	الأغلال	جمع غُلٍّ وهو طوق من حديد يجعل فى العنق		البصير	الموحد العالم ما يجب لخالقه
	المثلات	جمع مَثُلَةٍ وهى العقوبة		الزَّبدُ	وَضَرُ الغليان
	تغيض	تنقص		رابياً	عالياً
	بمقدار	بقدر لا يجاوزه ولا ينقص عنه		جُفاء	يَرْمِى به السيل
	الغيب	الغائب عن الحس		المِهاد	المستقَرّ
	الشهادة	الحاضر المشاهد	٢	الأستاذ الامام	الشيخ محمد عبده أحد أساطين النهضة الحديثة
	الكبير	العظيم الشأن		المُعَنَّين	جمع مُعْنًى وهو المُهْتَمّ
	المتعال	المستعلى عن كل شىء بقدرته		ملكة	صفة راسخة فى النفس
	سارب	بارز وظاهر		نغتبط	نفرح ونسر
	معقبات	ملائكة تعتقب فى حفظه		النفحة	الهبَّة
	فلا مرد له	فلا دافع له		التشبث	التعلق والتمسك
	المحال	القوة أو المكايدة		أهداب	أطراف
	ضلال	خسارة وضياع		التشويش	الخلط وهى كلمة مولدة وصوابها التهويش
	الأعمى	المشرك الجاهل بحقيقة العبادة			

البيت	الكلمة	معناها
٣	عَتَاد	عُدَّة
	كاهِل	مُقَدَّم أعلى الظَّهر إلى العنق
	مُفْعَم	مُمتلِئ
	الأُهْبَة	العُدَّة
	يُرْدِيها	يُهلِكها
	لامَناصَ	لا ملجأ ولا مَفَرّ
	الأَثَرَة	الاستبداد بالشيء
	يرهَبُ	يخافُ
	مَهِيض	غير محافظ عليه ولا مُراعى
	جَبَروت	عَسْف وظُلم
	الويل	الهلاكُ
	يَجنَح	يميلُ
	الصَّلَف	التمدح بالباطل والعُجب والكبرياء
	تُزجِي	تَدْفع
	المَعدلة	العدل
	الشأفة	الأصل واستأصل شأفته أزاله وأذهبه

البيت	الكلمة	معناها
	لا يستشري	لا يستطيرُ ويعظم
	يستفحل	يَكبُرُ ويعظم
	شارة	علامة
	أدران	أوساخ وأقذاز
	المحظورات	ما حَرَّم الله قِربانَها
	لا محيص	لا مفرّ ولا مَهْرَبَ
	أَحْجَم	امتنع عن الإقدام
٤	مَلّ	ضَجِرَ
	وَجْدٍ	حُزْن وأَلَم
	فَرْط	شدة
	رهن اكتئابه	ملازم للحزن والعُبُوس
	اختال	مشى في تيه وعُجْب
	لَدْن شبابه	غَضّ شبابه
	غَرِد	مغنٍ حسن الصوت
	يَصْدَح	يرفع صوته بالتغريد
	النُّعابُ	الصياح بالبين والفراق
	الحباب	ما يعلو الماء من الفقاقيع
	اليَمّ	البحر

البيت	الكلمة	معناها
	الدُّسُر	جمع دِسَار وهو خيط من ليف أو كتان تشد به ألواح السفين
	العُباب	الموج ومعظم الماء
	آرابه	جمع أَرَب وهو الأمل والغرض
	المنون	الموت
	القريض	الشعر
	نَهْلة	شَرْبة
	السراب	ما يظن ماء وليس ماء
	أثخن	أَوْهَنَ وأضعفَ
	عصفت به	ذهبت به وقضت عليه
	الشّهاب	شعلة من نار ساطعة
	تَقْرَع	تَعْلُو
	يوم احتسابه	يوم مَوْتِه
	قمة الطود	أعلى الجبل
	يبهَرُ العين	علوُّها حسنا

البيت	الكلمة	معناها
	العِيَاب	جمع عيبة وهى ما يجعل فيه الثياب، ومن الرجل موضع سِرّه
	الصابُ	شجر مُرٌّ
	صال	جهر فى قوة وشجاعة
	غير آبه	غير خائف ولا حاسب حساباً
	النِّكْسُ	الضعيف الجبان
	المجتاب	القاطع
	أكنافه	نواحيه وجهاته
	ضَراء	هجوم واعتداء
	أنكس	أشد إيلاماً وأقوى إيذاء
	الضرغام	الأسد
	الختل	الخداع
	يبابه	خرابه
	محضة	خالصة
	لُبَابه	قلبه وخالصه
	المُجَلى	السابق فى الحلبة

البيت	الكلمة	معناها
٥	البَله	ضعف العقل
	الأعِفاء	جمع عفيف وهو الذى يكف عما لا يحِلُّ ولا يَجْمُلُ
	رنين	صوت
	تخفت	تنخفض
	سُجراء	أخلاء وأصدقاء
	يُطْرُون	يثنون عليه
	المرقش	المزكش المزخرف الثياب
٦	ينفد	ينتهى
	كَلّت	اعتراها الوهن والضعف
	وَرَلٌ	دابة كالضب
	اقتفياه	اتبعاه
	عُوذَةٌ	رُقْيَةٌ
	الحَيْد	شاخص من الجبل كأنه جناح
	سِرْبٌ	قطيع من الظباء
	هَدِيل	صوتٌ

البيت	الكلمة	معناها
	القَمارى	جمع قُمْرِيّة وهى ضرب من الحمام
	الأرجُوان	ثيابٌ حُمْرٌ
	قَرَاح	ماء صاف
	أوجَسَ	أحس وأضْمَرَ
٧	أجْدَى	أكثر نَفْعًا
	غرضا	هَدَفًا
	اعتووت	تَدَاوَلتْ
	كَلَمته	جَرَحَتْهُ
	يَهِى	يضعف
	بِشْرَه	طلاقة وجهه
	رَيْطَتها	الريطة بفتح الراء : كل ملاءة غير ذات لِفقين كلها نسج واحد أو كل ثوب رقيق
	سربالها	السربال القميص أو كل ما يلبس
٨	جاسوا	ترددوا وطافوا

رقم	الكلمة	معناها
	نَحِّ	أبْعِدِ
	السَّرِيَّة	عدد من الجيوش من خمسة إلى أربعمائة
	ذمة	عَهْدٌ
	عَيْن	رقيب
	الجِلْاد	المضاربة بالسيوف
	المناجزة	المقاتلة
	أذِكِ	انشُر
	العيون	الرقباء
	الطلائع	جمع طليعة وهى ما يُبْعَث ليطَّلعَ طِلْعَ العَدُوّ
	حايَدْتَ	اختصصتَ
	عقد	عهد ضمان
	تُرْهِبُ	تُخيف
٩	أنفذ	بعث وأرسلَ
	المعوزين	المحتاجين
	يَغلى	أتألم
	بجنبه	بكبده

رقم	الكلمة	معناها
	حافز	دافع
	تَكَشَّفَت	ظهرت ووضحت
	الأفذاذ	جمع فذ وهو الفرد
	تسلق الجدار	تَسَوَّرَ وعلى فراشه قَلِق
	الطمّاح	الكثير الطموح الى المعالى
١١	ظاهرتها	عاونتها وساعدتها
	الجوارى	جمع جارية وهى السفينة
	تُزْجَى	تُدْفَع
	المها	جمع مهاة وهى البقرة الوحشية والمراد بها هنا الفتيات الجميلات الواسعات العيون
	كتائب	جمع كتيبة وهى الجيش أو جماعة الفرسان إذا أغارت من المائة إلى الألف
	ردود	جمع رِدٍّ وهو ما يمنع من الارتداد إلى الوراء
	الذاريات	الذى تذرى الأشياء وتطيرها

الصحيفة	الكلمة	معناها
	راع	أفزعَ وأخاف
	اطلاعها	ظهورها
	بنود	رايات وأعلام
	الصبير	السحاب بعضه فوق بعض
	مواخر	جمع ماخرة وهى السفينة العظيمة
	الصُّفاح	حجارة عراض رقاق
	صلود	صُلْب
	قنان	جمع قُنة وهى أعلى الجبل
	شُمَّخ	عاليـــة
	رُيُود	جمع رَيْد وهو الحرف الناتئ من الجبل
	مارج	نار بلا دخان
١٢	يوم صائف	شديد الحر
	يرتاب فى أمرى	يُشَكُّ فيه
	الجعالة	ماجعله المأمون من المال لمن يأتيه به : الرشوة
	تنقرف	تشمئز وتنفر

الصحيفة	الكلمة	معناها
	يُسَلِّى الهَمّ	يذهبه
	الهلع	الفزع والخوف
	سُبَّة	عاراً
	فتذممتُ	استنكفتُ
	احتشمت	خجلت
	يَنِم بك	يوصل خبرك إلى من يبحث عنك
	على رِسْلك	اتئد وتمهَّلْ
	تكلؤهم	تحرسهم وتحفظهم
	لا تثريب عليك	لا لوم عليك .
	جحدتك	كفرتك وأنكرت كرمك
١٣	أغذوا	أسرعوا
	المير	الميرة وهى الزاد
	الآل	السراب
	التأويب	السير جميع النهار
	الإدلاج	السير من أول الليل
	حُبُك	حبك السماء : طرائق نجومها

ص	الكلمة	معناها
	زجموا الصرح	رفعوا الصرح وهو القصر العظيم والمراد به دولة الروم
	المذءوم	المذموم المحتقر
	اللج	معظم الماء
	الثَّبج	وسط (الماء)
	الضِّراب	القتال
	الدأماء	البحر
	المكتهل	المُسِن
	الْجَمام	بفتح الجيم: الراحة ومنه جَمَّ الفرس يَجِمُّ ويَجُمُّ جَماماً إذا ذهب إعياؤه
	الفيافى	جمع فَيْفاء، وهى: المفازة لا ماء فيها
	المهامه	المفازات والبلاد المقفرة مفرده: مَهْمَهٌ ومَهْمَهَةٌ
	الوغى	الحرب، وأصلها الصوت والجلبة
	اللَّظَى	النار، أو لَهَبُها

ص	الكلمة	معناها
	مصفَّدون	مقيدون موثقون
	المُتَمَطِّر	المسرع فى السِّباق
	المضطَرَب	المكان يجول فيه الفرس أو نحوه
١٤	الريف	أرض فيها خصب وزرع
	الفاقة	الفقر
	يعافها	يكرهها ويزهد فيها
	قرى الضيف	أكرمه وقدم له الطعام وغيره
	اللبوس	المراد منه هنا الدرع
	حُقَّ لأمة	يحق لها ويجدر بها
	البُحْبُوحة	سعة العيش ورغده
	الجُنَّة	الترس ونحوه يتخذ للوقاية
	دِنْيا	يقال هو ابن عمى دِنْيا أى لحًّا
	الناب	المسن من الإبل
	البلاغ	الكفاية
	الحُمُول	جمع حِمْل كالأحمال
	الفِلذة	القطعة من الشىء

الجزء	الكلمة	معناها
	يعقِرها	بكسر القاف ، أى يضرب قوائمها بالسيف ليذبحها
	الجزْع	الخرز اليمانى الصينىّ فيه سواد وبياض
	إدراك رغمه	إذلاله ، والرغم : القسر والإذلال
	الوَلث	العهد
	غلق الرهن	استحقه المرتهن
	لا تُخفَر ذمته	لا يُنقَض عهده
	الغائلة	الشر
	الوَطث	الضرب الشديد بالرجل على الأرض
	التهجين	التقبيح
	الطَّماطِمَة	الذين فى ألسنتهم عجمة مفرده: طِمْطِم وطِمْطِمِىّ وطمْطمانىّ
	لا تخزلوا	لا تمشوا بتثاقل
	النجيب	البعير أو الفرس العتيق الكريم
	المَهْرية	نسبة إلى مَهْرَة، وهو حَىّ تنسب إليه الإبل النجيبة

الجزء	الكلمة	معناها
	المرازبة	رؤساء الفرس ، مفرده : مَرْزُبان
	الولاء	التوالى ، من وَالى
	الأَوَد	الاعوجاج
١٥	الأُدْم	ما يؤدتم به من زيت وجبن ونحوهما
	الوُجد	مثلث الواو ، ما يجده المرء عنده من مال
	انكساف الألوان	تغيرها من قلة الدم
	البَوْن	الفرْق والبعد
	الأديم	الجلد
	السُّنون	المجاعات يسببها القحط
	يحسم	ينقطع ، والمراد هنا ينكمش
١٦	يَطْمِس	يُخْفى
	سرّح الطرف	أطلق سراحه لينظر حيث يشاء
	الفجاج	الأماكن المسيحة البعيدة الأطراف ، مفرده فَجّ

البيت	الكلمة	معناها
	متحرزاً	محتاطاً
	نجيّيْن	صديقين يتسارّان
	الكليل	المُتْعَب
	تُصيخ	تتوجه للاستماع بدقة
	الظَّفَر	النصر
	المُغار	الإغارة والغزو
	تلقّف	أى تتلقّف : تختطف
	الأتراب	النظراء
	كَلَب الأعداء	شدتهم وشرهم
	تُنيخ	تبرك ، والمراد هنا تهجم
	تَدُكُّ مَعْقِلاً	تدقّ حِصناً وتهدمه
	كوكبة	جماعة
	ينْهلّ	يسقط بغزارة
	الزفرات	جمع زَفْرة وهى إدخال النفس والمراد هنا الأنّات والحسرات
	أوطار من اطار	الأوقار : الأحمال الثقيلة
	قُرِف به	اتهم به وعيب عليه

البيت	الكلمة	معناها
١٧	النَّهَل	الشرب الأول
	العَلَل	الشرب الثانى
	زخَرت	امتدت جداً وارتفعت وامتلأت
	النَّيازك	النَيْزَك الرمح القصير ويطلق على ما شبه الرماح من النجوم
	الزَّجر	زَجر الطير تفاءل به فتطيّر فنهره . وزَجر الطير فنّ معروف من الفنون التى عرف بها العرب
	الطِّيرة	ماتتشاءم به من الفأل الردىء
	المِجَنّ	التُرس تتقى به الطعنات فى الحرب
	الطارق	الزائر ليلاً
	هَوِيتم	بكسر الواو بمعنى أحببتم واشتهيتم
	الزكى	الطيب الطاهر
١٨	تكاته أمه	فقدته وهو وحيدها

الصحيفة	الكلمة	معناها
	الفاتك	الجرىء الذى يقتُل على غرة
	يتشحّط فى دمه	يتضرّج به ويضطرب فيه
	بادرة السيف	البادرة شباة السيف أى حدّ طرفه
	تنشد الحصين	تسأل عنه
	تألّفه	جعله إلفاً ومحباً
	تسوّر	تسلق
	موقور	مُحمّل
	خلف جلسه	تكلم فيه وهو غائب
	المَرْزِئة	المصيبة
	السجيح	اللين السهل
	الافَن	ضعف الرأى والعقل
	الشوارف	وعاء الخمر من خابية ونحوها
١٩	عثا فيه	عبث به وأفسده
	أسْجِح	أحسِن العفو
	العانى	الخاضع الأسير
٢١	مارت	تحركت واضطربت
	انحسر	انسحب وانخفض

الصحيفة	الكلمة	معناها
٢٢	السُّكر	السَّد
	الحِجر	العقل
	الحَبْر	العالم الفاضل
	الفجْر	الشقّ
	السَّمْر	سمر العين : سملها أو فقأها
	الوزر	الذنب
	مترعا	مملوءا
	الوِتر	الواحد الفرد
٢٣	علق مَضِنَّة	أمر نفيس يُضَنّ به
	غل مَظِنَّة	كالغل فى العنق يحمل الناس يظنون بصاحبه الظنون
	جَلْفة القلم	ما بين مبْراه إلى سنّته
	الثقاف	آلة تسوى بها الرماح
٢٤	تمتار	تأخذ الميرة أى الزاد
	فى غارم	فى حالة غارم وجب عليه مال

بيت	الكلمة	معناها
	في مرهق	في حالة مرهق أي مثقل بالديون أو الهموم
	وهنًا	نصفَ الليل
	الأُدُم	الجلود مفرده : أديم
	يَفَع	شب وترعرع
	أخفر ذمتي	أخون عهدي
	الضاري	الوحش الذي تعود الصيد
	حارِ	يا حارث
	خَوّار	ضعيف جبان
	إظهار	معونة ومظاهرة
	ختّار	الذي تعود الغَدْر
	ناجية	سريعة ، كالنجِيّة
٢٥	البَشامة	شجرة عطرة الرائحة ، ورقها يسود الشعر، ويستاك بقضبها
	ابتدرها	أسرع إليها
٢٦	يضرى على الغزال	يعود صيدها
	صف بجناحيه	بسطهما

بيت	الكلمة	معناها
	التمعُّك	التمرغ
	الفراهة	الحذق ، وفعله فَرُهَ
	رُقش	زين بالألوان
	الجُؤجُؤ	الصّدر
	الإضْمَار	أضمر الخيل ونحوها عَلَفها القوتَ بقلة بعد السِّمن
	الرَّبْرَب	القطيع من بقر الوحوش
	تستنّ	استنّ الفرس قمص
	الجآذر	جمع جُؤْذُر وهو البقرة الوحشية
	جلَّى	رفع رأسه ثم نظر
	المعاجر	جمع مِعْجر وهو ثوب تعتجر به المرأة أي تلفه حول رأسها
	مصرَّعة	مقتولة مذبوحة
	القليب	البئر
	الأقبل	شبه الأحوال
	المستوهل	الذي فيه ضعف وفزع

البيت	الكلمة	معناها
٢٨	نكب عنها	انحرف
	مَنْعَجًا	اسم لمكان خاص
	ضاع عَبَقُه	فاحت رائحته التي تلزَق بالأشياء
٢٩	أُرْتِجَ	أغلق
	اللُّغوب	التعب والإعياء
	السَّفُّود	الحديدة التي يشوى بها اللحم
	كظم غيظه	كتم غضبه
	خَوَلكم	حَشَمُكم
٣٠	عفّى آثارها	أزالها
	المتون	الظهور جمع مَتْن
	النَّبع	شجر تتخذ منه القسيّ ومن أغصانه السهام وينبت في رءوس الجبال
	الغَرَب	نبات رخو ينبت على الأنهار
	القُشُب	الجديدة، مفرده قشيب
	حُفَّلاً	جمع حافل وهي الناقة التي امتلأ ضرعها

البيت	الكلمة	معناها
	الصببَ	الانحدار
	الذوائب	الضفائر
	الآني	الحارّ جدًّا
	السَّرِب	السائل
	غيلان	هو ذو الرمة الشاعر المشهور
	الجحفل	الجيش العظيم
	اللجب	الكثير الضوضاء
	الَّلجِج	الضيق
	الكماة	الأبطال ، مفرده كَمِيّ
	صُغْرًا	أذِلَّاء
	جلّت	كشفت وأضاءت
٣١	البذالة	عدم صيانة الثياب وأن يعمل الإنسان عمل نفسه
	العَضْب	المِقول الحديد الكلام
	نضوخ	غزيرة الإنتاج
	لَقوح	غزيرة الإنتاج
	الخنا	الفُحش
	لم يُقرَف	لم يتهم

ص	الكلمة	معناها
	الرائحة	المراد منها هنا على ما يظهر الماشية تغدو وتروح
	رشاه	جعل فى أنفه الرشاء أى الحبل والمراد هنا أخمه
٣٣	انبلاج الصبح	إشراقه
	النيرات	بالتاء : الكواكب
	قُدَّ	اقطعْ
	الدرارىّ	الكواكب المضيئة الصافية الشعاع
	أُحَبُّ	من حَبَا أى أعطى
	عافه	كرهه وزهد فيه
	عراه	أصابه
	آبى	أكره ، وماضيه أبى
	أقصدت	بالدال . يقال أقصده أصاب مقتله
	احتسابا	يدخر ثوابه عند الله
	الجفن	الغمد
	المهند	السيف

ص	الكلمة	معناها
	القرضاب	القطاع
	سَلَّه	شهره
	طاح به	ذهب به
	التحوت	السفلة
	الأوشاب	الأخلاط من الناس ، مفرده : وِشْبٌ
	النيِّرات	الكواكب
	عُبابا	البحر العباب : الذى ارتفعت مياهه ، والعُباب : الموج
	الهام	الهامة : الرأس . والهامُ الرءوس
	الأصيل	الوقت بين العصر والمغرب
	الشفق	بقية ضوء الشمس وحمرتها فى أول الليل، بعد الأصيل والمعروف شفق الصبح
	ميعة الشباب	الميعة : أول كل شىء وأصله

البيت	الكلمة	معناها
	فرند السيف	فِرِند السيف وإفرِنده جوهره ووشْيُه. وسيف فِرِند: لا مثيل له
	قارح القوم	المجرّب الخبير المحنَّك
	الحباب	الفقاقيع التى تعلو الماء أو الخمر
	العُقاب	طائر من جوارح الطير يطلق على الذكر والأنثى وجمعه عِقبان وهو يشبه النسر. ويقال: هو أمنعُ من عقاب الجوّ
	السراب	ما يشاهد نصف النهار من اشتداد الحراة كأنه ماء «تنعكس فيه البيوت والأشجار والجبال»
	مِذرهًا	المدره: زعيم القوم المتكلم عنهم.
	الأوصابا	جمع ومفرده الوصَبُ وهو المرض ونحول الجسم
	قابا	يقال: هو على قاب قوسين: كناية عن القرب
	وشفنا سلافها والرضابا	السلاف والسلافة: ما سال قبل العصر وهو أفضل الخمر، والرضاب: العسل
	فتنظر بجنبيه الثوابا	إشارة إلى قوله تعالى: (ولمن خاف مقام ربه جنتان).
٣٤	بنى الغريين	بنى البناءين المسميين بالغريين.
	ظربان	الظربان: دويبّة كالهرة منتنة. والجمع ظرابىّ وظَرابين.
	الحائن	الأحمق.
	حال الجريض دون القريض	حال الغمّ والغصَصُ دونَ الشّعر والطرَب
	الطبيين	الطُّبْىُ، والطُّبى: حلَمات ضَرع الناقة. والجمع أطباء. والمعنى بلغ الأمر منتهى شدته

البيت	الكلمة	معناها
	سيذهب غوراً بعد إنجاد	الغَور هو ما انحدر واطمأنّ من الأرض . وأنجد أى أتى نَجْدًا والنّجْد المرتفع من الأرض .
٣٥	احتبي بسيفه	أى جلس متقلّداً سيفه
	وهْدة	الوَهْـــدة : الأرض المنخفضة .
	اليمامة	موضع قرب الخليج الفارسىّ
	ما نكلنا	نكل ينـكُل نكولاً عن الأمر أى نكَص وجبن . والناكل هو الجبان الضعيف
	أطرد إلىّ	أى احمل علىّ مطارداً
	لتوجرَنّ لهب السنان	أوْجرَه بالرمح أى طعنه به فى فِيه. والسِّنان هو نَصْل الرمح وجمعه أسِنّة
	أغِذّ السّيرَ	أى أسْرِع فى المسير .
	من فارس مستلئم	اسـتلأم استِلآمًا أى تدرّع ولبِسَ اللأمَـة وهى الدّرْع وجمعها لأم .

البيت	الكلمة	معناها
	أن تُستَباحَ	استباح الشىء أى جعله مُباحًا لا حُرمة له والبيض
	البيض قصم الظهر	هنا : النِّساء . والقَصم أى الكسر والقَصْفُ . والمعنى أن استباحة النساء المخدرات كارثة تقصم الظهور .
٣٦	إخلاف النجوم	النجوم جمع ومفرده نَجْم وهو الكوكب ، وكان العرب يعرفون بالنجوم مواسم المطر فأخلفتهم ولم تحقق ما يرجون .
	قلة الغيوم	الغيوم جمع ومفرده غَيمة والغَيمة والغَيم : السّحاب
	كلَب البرد	الكلَب مصـدر كلِب . وكلَب البَرْد : الشـدة والجذب الناشِىء مِنه .
	الرِّفد	العَوْنُ
	المَبرك مُعتلّ	بَرك بالمكان أى أقام فيه . والمَبْرَك مَوضع البُروك أى الإقامـة ، ومعتلّ أى متغير لا خير فيه .

البيت	الكلمة	معناها
	مُسْنِتُون	أصابهم القحط والجوع
	مجحفة مبلطة	مجحفة أى مُهلكة ، ومبلطة أى مُفْقِرةٌ .
	هُبَعًا ورُبعًا	الهُبَع : الحمار والفصيل يُنْتَجُ أو فى آخر النتاج والرُّبَع هو الفَصيل الذى تلده الناقة فى الربيع . والمعنى لم تترك شيئاً ولا نتاجاً
	عافطة ونافطة	العافطة هى النَّعجــة ، والنافطة هى الماعزة . يقال ما له عافطة ولا نافطة أى لا نعجة ولا عنز، كناية عن أن ليس له شىء .
	رِزّ كتيبة	الرِّزّ هو الصــوت . والكتيبة هى القطعة من الجيش ، والجمع كتائب .
	مِقْوَلى	المِقْوَل هو اللّسان .

البيت	الكلمة	معناها
	جَنْدَلٌ وصفائح	الجندل الحجارة والواحدة جنـدلة والجمع جنادل . والصفائح جمع ومفـرده صفيحة وهى الحجر العريض.
	زَقَا	يقال زقا الديك يَزْقو زَقْواً وزُقاء أى صاح فهو زاقٍ
	بُسورها	البُسور مصدر بَسَر يَبْسُر أى قطّب وجهه ومنه يقال للأسـد : البَسُور .
	القور	الصخور العظيمة أو السُّود ، مفرده قارة .
	يفحصن الحصا بالكراكر	الكراكر جمع كِرْكِرَةٌ وهى صدر كل ذى خُفٍّ من البهائم .
٣٧	كان عمرانها يُطْوَى وكأن خرابها ينشر	يُطوى : نقيض ينشر. ففيه طباق .
	غلائل الحديد	غلال جمع غِلالة وهى الشعار.

صفحة	الكلمة	معناها
	تحجيل	التحجيل بياض فى قوائم الفرس فهو مُحجَّل
	كأسورة	وحَجِيل . واللُّجين : الفضة .
	اللجين	
	العفاء	الاندثار
	الأسى	الحزن
٣٩	جنّها	ستَرَها
	انجاب	ذهب
	مُعصفَر	مصبوغ بالعُصْفُر وهو صبغ أصفر اللون
	يتسعّر	يتّقد ويشتعل
	يشبِهُ شعاع	يوقده
	الورْسُ	نبات كالسمسم يصبغ به والورسىُّ المصبوغ به
	كبد السماء	وسطها .
	حشرجت	يقال : حَشْرَجَ حشرجة أى تردّد نفَسُه عند الموت
	التصعلك	ضد الغنى . يقال : تصَعْلَكَ أى افتقر .
	العُنَّاب	شجرٌ حبُّه كحب الزيتون فى الشكل ولكنه أحمر حلو . والواحدة عُنَّابة .
	الحشف البالى	الحشف : أردأ التَّمْر . وأحشَفَ النَّخلُ أى أتى بالحشف .
	خبائنا	الخباء هو ما يعمل من وبر أو صوف للسَّكن .
	الجَزْع	خرزٌ فيه سواد وبياض واحدته جَزْعة .
	متوع النهار	بلوغ غاية ارتفاعه .
	الهاجرة	نصف النهار فى القيظ أو من عند زوال الشمس إلى العصر .
	غِلالة الشمس	أشعتها .

البيت	الكلمة	معناها
	التبر	التّبر ما كان من الذهب غير مضروب أو غير مصوغ أو فى تراب معدنه .
	أطمار	جمع طِمر وهو الثوب البالى .
	الفَلق	الصّبح
	الغَسق	ظلمة أول الليل . والليل الغاسق هو ما اشتدت ظلمته
	الأوكار	جمع وَكْر وهو عش الطائر
٤٠	سُدَف الدّجن	السُّدف جمع سُدْفة وهى ستار الظلام . والدّجن الغَيم المُظلم
	شآبيب المطر	الشؤبوب : الدّفعة من المطر وما يندفع منه بشدة
	قذائف	جمع قذيفة وهى ما يُرمى به
	خوذات	جمع خُوذة وهى ما يحمله المحارب على رأسه ليقيه

البيت	الكلمة	معناها
	الأريكة	سرير مزيّن فاخر . والجمع أرائك
	الضّيغم	الأســــد
	العَرين	مأوى الأسد
	واسِط عِقدهم	الواسط والواسطة : الجوهرة التى فى وسط القلادة وهى أجودها .
	مِنَنٌ فى رقابهم كأطواق الحمام	المِنة : الإحسان والمعروف والطوق ما يحيط بالعنق من حلى وغيره ومنه الحمامة المطوّقة
	الأقيال	جمع القَيْل وهو الرئيس والملك
	العفاة	جمع عافٍ وهو كل طالب فضل أو رزق
	القنا	جمع القناة وهى الرمح
٤٢	أميس	مَاسَ الرجل يميس ويميس أى مشى وهو يتمايل أو يتبختر

البيت	الكلمة	معناها
	الفرضة	المكان الذى يجتمع فيه الناس . وهى من البحر محطّ السفن وجمعها فُرَضٌ
	الهُوّة	ما انهبط من الأرض والمقصود هنا : القبر
	الرّميم والرّمام	البالى التالف
	قنطرة جواز	أى مَمَرٌّ ومعْبَر الى الدار الآخرة
	العضين	جمع عِضَة وهى الكذب والسّحر
	حذار	اسم فعل أمر بمعنى احذر
	وارته الأرض	أخفته والمراد دُفِن فى الأرض
	أقران	جمع قِرن وهو النظير
	بَوال	جمع بالية أى الهالكة الفانية

البيت	الكلمة	معناها
	أقْوت	أقْوَى الشيء إقْواءً أى افتقر ، وأقوت الدارُ أى خلت من ساكنيها .
	العِراص	جمع عرصة وهى ساحة الدار
	الحفائر	جمع حفيرة وهى القبر
	المجالس	أماكن الجلوس .
	المقاصر	الدُّور
	الرموس	جمع رمْس وهو القبر مُستويا لا يعلو على وجه الأرض
	ثووا بها	يقال : ثوَى يَثوِى بالمكان ثُوِيًّا أى أقام فيه
	الأعاصر	جمع إعصار وهو الريحُ تذرّى الترابَ
	الدساكر	جمع دَسْكَرَةٌ وهى القرية العظيمة . والبناء كالقصر تكون حواليه بيوت .

صح	الكلمة	معناها
	الذّخائر .	جمع ذخيرة وهى ما ذُخر ومنه ذخائر الحرب .
	الذّب عنه	الدفع عنه .
	ضائر	ضـــارٌّ
	الأريب	الماهر وفعله أرُب يَأرُبُ
	تبلى	تختبر وتمتحن .
	السرائر	جمع سريرة وهى الضمير وما فى النفس
	النّشور	بعث الأجسام يوم القيامة
	مُكبّ	مقبل مُنهمك
	المؤازِرُ	الذى يعاونك
	الاستعبار	جريان العبرات أى الدموع من حزن ونحوه
	خسِئَتْ	طُردت وبَعُدت
	اللّهى	بفتح اللام جمع اللّهات . وهى اللحمة المُشْرِفة على الحلْق فى أقصى سقف الفم
٤٤	النّشْوة	المرَحُ والطّرب

صح	الكلمة	معناها
	قَسْراً	إكراهاً .
	الصاعقة	نار تسقط من السماء فى رعد شديد .
	عُنجُهِيّته	تعصّبه
	الكَنود	للمذكر والمؤنث : الكافر النعمة والعاصى
	الكَليم	المجروح .
	يبْخَع نَفْسَه	ينهكها ويكاد يهلكها من الغَم والندم .
	يتَمَلْمَل	يتقلّب على فراشه مرضاً وغمّا .
٤٥	الغضى	شجر من الأَثْل خشبه من أصلب الخشب والواحدة منه غَضَاةٌ .
	أُزْجِى	أَسُوق
	القَلوصُ	الطويلة القوائم من الإبل وجمعه : قِلَاص وقلائص وقُلُص
	النواجى	السريعة .

ص	الكلمة	معناها
	غالتْ خراسان	أهلكتْها .
	هامتى	رأسى .
	بأعلى الرّقمتين	الرّقْمةُ هى الرّوضة أو جانب الوادى والرقْمتان اسم لمكانين ببلاد العرب
	الرّدينى	نسبة إلى رُدينة وهى امرأة اشتهرت بتقويم الرماح .
	لَحدِى	قبرى
	خَلّ	خَلّ لحمُه يخِلُّ ويخُلُّ نقص وهُزِل
	سُهَيل	نجم معروف
	الأسنة	جمع سِنان وهو نصل الرّمح
	طريف وتالد	الطريف المال المكتسب حديثاً ، ويقابله التليد .
	الغواديا	جمع غادية وهى السحابة تنشأ غَدْوة وتمطر مَطرة الغداة
	قاليا	كارهاً مُبغِضًا .
	هابيا	الهابِى : ترابُ القبر .

ص	الكلمة	معناها
٤٦	الرُّقْمة	القطعة من الورق .
	العتاب	اللوم برفق بقصد إزالة السُّخط وجلب الرّضا
	التأنيب	التعنيف بشدة .
	السُّوقة	الرعيّة من الناس . للواحد والجمع والمذكر والمؤنث .
	العىُّ والحصَر	العجز فى النطق .
	الودج	عِرق فى العنق ينتفخ عند الغضب .
	اجترار الناقة بجِرّتها	الجِرّة بكسر الجيم : ما يجترّه الحيوان
	تلمظ الشفاه بريقتها	تلمّظ الرجلُ أى تذوّق وتتبع بلسانه اللُّماظَة
	الرُّوع	القلب والذهن والعقل
	هُجْنة التراكيب	أى التراكيب التى دخل فيها عَيبٌ وقبح .
٤٧	يفرُط منهم	يظهر منهم الخطأ من غير رَوية وتدبّر.
	الزّلل	

ص	الكلمة	معنـــاها
	إدخال فى القلب	أى فساد، وخيانة وحقد
	الغِـيَر	غِيَر الدهـــر أحداثه ومصائبه .
	يكف من غَربك	أى يمنع من حدّتك والغَربُ أيضاً هو الدّمع
	عَزب عنك	غابَ وبَعُد .
	أدحض حجته	أبطلها
	ملمات الدهر	كوارثه .
٤٨	أسوة حسنة	قدوة صالحة
	البازُ والبازى	ضربٌ من الصقور . وجمعه بُزاةٌ و بيزان
	الأقتم	مَا له القُتْمة أى شدة السواد
	الشّمول	الخمـــر
	مبتلج الصبح	أى وقت ابتلاجه وهو وقت إشراقه وإضاءته والبُلجة أول الفجر

ص	الكلمة	معناها
	رُقى	الرُّقْيةُ أن يستعان للحصول على أمر بقوَى تفوقُ القُوى الطبيعية فى زعم العرب وجمعها رقى ورُقيات
٤٩	إسارٌ	يقال: أسَرهُ أسْراً وإساراً أى جعله أسيراً
	العِصابة	الجماعة من الناس
	الجُلمود	الصخرة الصُّلبة
	ينفق الجواد	يَهلِكُ
	اللُّجـة	معظم الماء
	تموج	ترتفع وتهيج وتضطرب
	الهمم القعساء	الهمم العالية
	الغبراء	الأرض . وبنو الغبراء أى الفقراء
	الدّأْماء	البحر
	أكفاء	جمع الكَفْء والكِفْء والكُفْء وهو المِثل والنظير

البيت	الكلمة	معناها
	صناديد	جمع صِنْدِيد وهو الشديد والسيد والشجاع
	الأحداث	جمع حَدَثٌ وهو الأمر الجديد الذى ليس معتادا ولا معروفا
	جَنان	الجَنان : العقل والقلب
٥٠	طرحتنى	رمتنى
	النوى	ما ينويه المسافر بسفره
	استظهرتُ	استعنتُ
	أجلت	حركت وأعملت
	المثابة	المرجع والمآب
	حاشيتا النهار	طرفاه : الصباح والمساء
	القريض	الشعر
	العُذَيق	مصغر عَذْق وهو النخلة بحملها أو عِذْق وهو العنقود
	الجُذَيْل	مصغر جِذْل وهو عود ينصب للجربى من الإبل لتحتك به
	العُصْم	جمع أعصم وهو من الوعول والظباء ما فى ذراعيه أو أحدهما بياض وسائره أسود أو أحمر
	اِغتدى	ذهب وقت الغدوة
	تفتّق	تفتح وانطلق للكلام
	البنان	الغرض : الأصابع
	يَنْسِب	يشبّب بالنساء ويتغنى بأوصافهن
	يَثْلِبُ	يسُب ويشتم
	الأغلاق	جمع غلق وهو ما تُغْلَق به الأبواب
	أغزرُ غزْرا	أكثر كثرة أى فى معانيه
	أكثر روما	أكثر مطالبَ
	أَرْدى	أوجع وأهلك
	أزْرى به	وضع منه ، وألصق النقيصة به
	أتغشّى	أتخذ لى غِطاء

الصفحة	الكلمة	معناها
	الطِّمر	الثوب الخلق البالى
	مُضْطَغِناً	حاملاً فى ضِبْنِهِ حقداً
	غِمْراً	والضِبن ما دون الإبط
	الصروف	تقلبات الزمن
	الشِّعرى	كوكب يظهر فى شدة الحر
	السُّرا	المسرة والرخاء
	تاح	تهيأ وقُدِّر
	الخِشْفُ	ولد الظبي
٥١	استخلص	اصطفى واختار
	معادلا	نظيراً
	خَطرف	أسرع فى النزول
	تغطرسه	تكبره وتعجرفه
	يسومهم الخسف	يذيقهم الذل
	جاثاك	جلس معك ركبته إلى ركبتك
	إرْبَع بنفسك	انتظرْ وتحبَّسْ
	مِنْت	من مان : كَذَب
	مَليّا	زمناً طويلا

الصفحة	الكلمة	معناها
	غبرة قدميك	ترابهما
	استنزلتنى عنهما	طلبتَ منى النزول عنهما
٥٢	ما يُكَلَّفُه	ما يُعْهَدُ إليه بعمله
	نزاهة طعمة	الطعمة : وجه المكسب
	أجزأ فيه	أحسن القيام به
	فُرَّ	اختير
	وعض على قارحة	القارحة السن التى يصير بها ذو الحافر قارحا أى بالغا التاسعة من عمره . والمراد من هذا التعبير : بلغ سن النضج والكمال
	الارتياد	الطلب
	التأتّى	الترفق وإتيان الأمور من وجوهها
٥٣	حننت	تألمتَ من الشوق
	الأمر	المراد منه هنا الفراق
	تجزع	تحزن وتتأسف
	الصبابة	شدة الشوق والمحبة

صفحة	الكلمة	معناها
	المصطاف	المكان يُقضى فيه الصيف
	البِشر	جبل بأرض الجزيرة بالعراق
	أعْرض	أبدى عرضه وجانبه
	جالت	بالجيم : تحركت
	بنات الشوق	مسبّباته وآثاره
	نزْعا	شديدة الشوق
	اللّيت	صفحة العنق
	الأخْدَع	عرق فى العنق
٥٤	تسنية لمقامه	تعلية له
	كرع الماء ونحوه	تناوله بفيه
	يغشى المجالس	يتعهدها ويأتيها
	يسمُرُون	يتحدثون ليلًا
	صبأت	خرجت من دين إلى دين آخر ، أو اعتنقت دين الصابئة

صفحة	الكلمة	معناها
	الحرة	أرض ذات حجارة سود مفتتة
	ضاحيا للشمس	بارزاً متعرضاً لها
	على هينةٍ	على مهل
	المحتسب	الذى ينوى بعمله وجه الله
	صاخِب	كثير الصَّخَب ، أى شدة الصوت
	مُسَجّى	مُغَطى
٥٦	الأزَج	ضرب من الأبنية
	الكِلْس	كل ما طليت به حائطاً أو باطن قصر من غير آجُرّ
	جدع أنفه	قطعه
	الدارع	لابس الدرع
	الجوالق	بفتح الجيم جمع جِوالق أو جُوالق : وعاء معروف يشبه الغرارة أى الحقيبة
	المشى الوئيد	البطىء
	الصَّرَفان	النُّحاس والرّصاص

فهرس الموضوعات